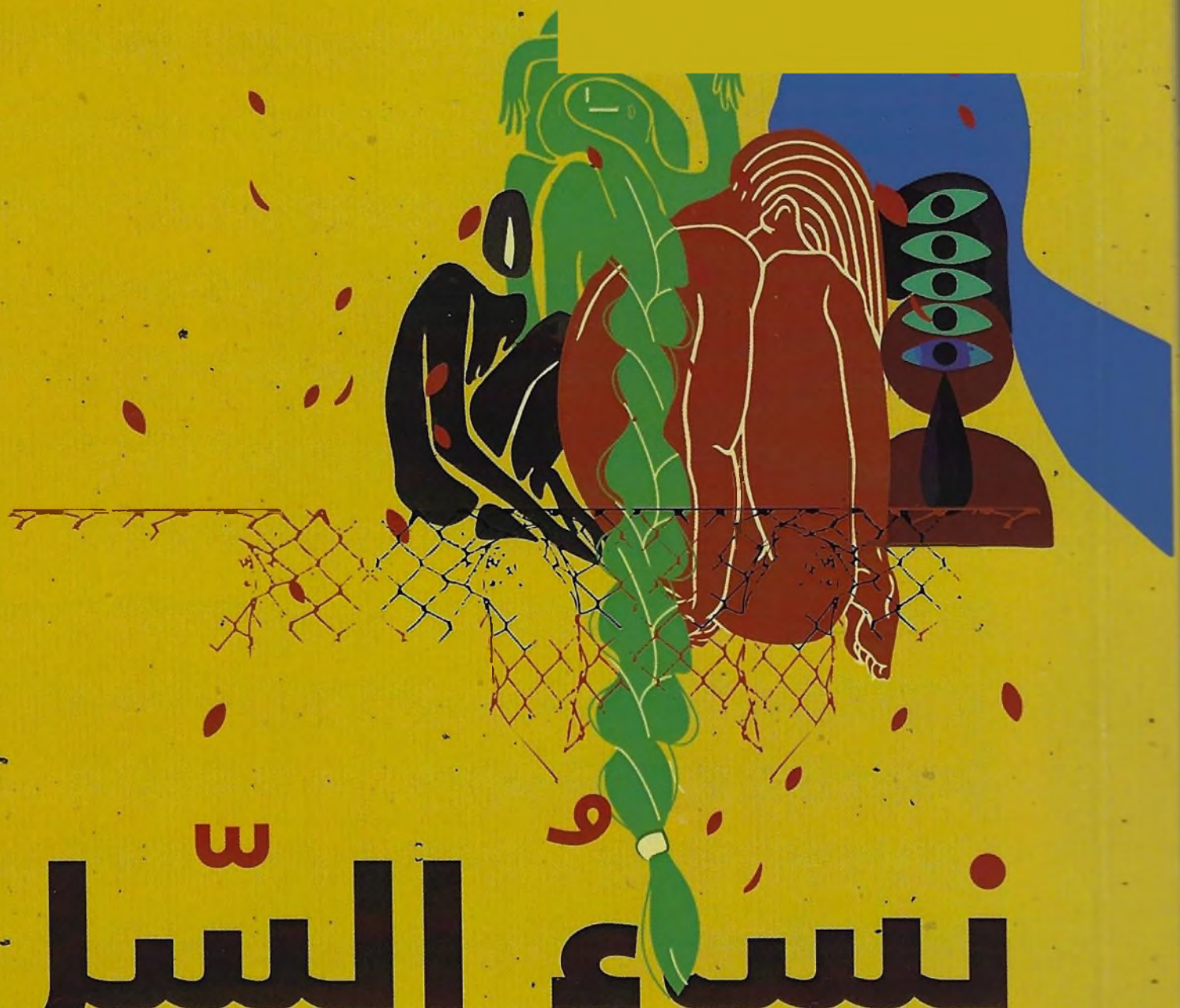

نساء السّل

ريبر يوسف

مدونة أبو عبدو

رواية

نساءُ السّل

نساءُ السّل – رواية
تأليف: ريبر يوسف

تصميم الغلاف: قهوة غرافيكس
ISBN: 978 - 9933 - 641 - 85 - 6
الطبعة الأولى: 2022

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع
سوريا – دمشق – ص ب: / 9838/
الإمارات العربية المتحدة، الشارقة، مدينة الشارقة للنشر– المنطقة الحرة، مركز الأعمال.
هاتف–فاكس: / 6133856/ 11 00963
جوال: 00971557195187
البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net
الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net
fb.com /Adwan.Publishing.House twitter.com /AdwanPH

إن دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره. وتعبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن رأي الدار.

جميع الحقوق محفوظة للناشر دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع. لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو أو بأية طريقة سواء كانت إلكترونية، أو ميكانيكية، أو بالتصوير، أو بالتسجيل، أو خلاف ذلك إلا بموافقة كتابية مسبقة من الناشر.

ريبر يوسف

نساءُ السّل

رواية

«الماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء»

ابن خلدون

إلى

نساء السل..

و

روكا

القسم الأول

I

كَلأت الفرسُ أنفاسهنَّ داخل الكهف

أ

خطوات الخيول تحت الأحمال نثرت نور القمر، واستودعتهُ الصخور والحجارة المنتشرة على أقدام جبال ماردين. سرعان ما قضم الحصانُ العشبَ المشبع بالضياء وحمحمَ؛ إذْ أفلتَ (كالو) العنان له، سعّر نار المشعل بزفراته الحادة، ومرَّرها على أسطح الصخور كأنّه يقرأ بواطنها، حتّى هدأت عيناه في صورة الشمس المنقوشة على إحداها. أدار رأسهُ صوب (سلتي)، صحّحَ موضع الضماد حول معصمه الأيسر، كان قد شقّه بخنجره وعبّأ موضع الجرح مِلحاً، فيتوجّس بالألم، وينتصر على النوم في الليالي العديدة القادمة. رفع المشعل إلى مستوى وجهه فتزمّل بالضوء، ومَرَّرَ راحة يده اليسرى على لحيته المخضّبة الطويلة. زفرت (سلتي) المترجّلة تحت شال كمّمَت به وجهها، قبضت على المشعل وحرَّكت رأسها الممسوس بالشعاع المتراقص كجناحي فراشةٍ متأهّبةٍ، وبسطت نظراتها نحو (كالو)؛ إذْ نَكَتَ أسفل الصخرة بخنجره، وأخرج من باطن التراب صندوقاً معدنيّاً بحجم كفّ المتربّص، كمَّمَ نار المشعل بالتراب فاستسلم وانطفأ، من ثمَّ أكملوا صعود سلسلة الجبال المتشرّبة بنور القمر يجرّون وراءهم آثار أنفاسهم الوازنة.

- متى نصل يا عمّتي؟

بالكاد استطاعت (سلتي) فصل بحّة (عَيشانه) عن أصوات الحوافر المواظبة على حَفرِ ظلام الدروب السريّة. سرحت في سؤال الطفلة المندفع صوبها مثل طيرٍ هبّ فجأةً من بين أغصان شجرةٍ كثيفة الأوراق، فدفعت الطفلةُ صوبها السؤال مجدّداً، لكنْ هذه المرّة بنبرةٍ أشدّ رأفة:

- متى نصل يا عمّتي؟

- لماذا تسألين يا ابنتي؟

جاوبتها العمّة من وراء شالها الرطب الأبيض، بنبرةِ لسانٍ لدَغهُ الخوف.

- أنا تعبة، أريد أن أنام، فلنتوقّف قليلاً.

قالت الطفلة بنبرة الملتفتين إلى بيوتٍ غادروها، أرادت البقاء على حدود موطن ولادتها أطول مدّةٍ ممكنةٍ، فاستنجدت بالنوم. هل يوقّف النومُ الزمنَ؟

- فلْنسترح هنا بين الصخور حتّى طلوع الفجر يا (كالو).

رَبَتت (سلتي) بصوتها الهشّ على أذني (كالو) الذي يتقدّمهم جارّاً حصانه. وبدون أن يلتفت (كالو) إليها، بدون تفكير، كأنّه أعدّ سلفاً معظم الأجوبة لجميع الأسئلة طوال مدّة مسيرهم:

- الشمس ستكشفنا للجنود العثمانيّين، سنكمل الآن، وقبل طلوع الفجر نستريح، يجب علينا المواظبة على السير وحسب يا خانم.

استسلمت (عَيشانه) لفكرة السير حتّى الفجر، وأسندت رأسها إلى رقبة الفرس، وحضنتها بكلتا يديها.

- لا تغفي على الفرس يا (عَيشانه)، كيلا تسقطي أرضاً.

قالت (سلتي) بنبرةٍ حادّةٍ شبيهةٍ بلدغة سوطٍ مصنوعٍ من ذيل حصان، ومضت صوبها كي تنزلها عن ظهر فرسها.

كلّ شيءٍ بدا ظلّ أشياء راحلة، كلّ فكرة، كلّ حصوة، كلّ صخرة، كلّ حفنة تراب، كلّ وقع خطوة، كلّ تمتمة، كلّهم كانوا ثقالاً يظهرون على ظهورهم المنحنية. كان كلّ شيء هو نفسه صورة الاغتراب التي رافقت ثلاثة خيول تجرّها طفلةٌ، وعمّتها، وخادمهما.

كان (كالو) في الثانية عشرة آن أطلق الضابط العثماني النار على والده؛ إذْ نَهَرَه معترضاً على تبوّل الجنود بجانب تنّورهم. لم يبك (كالو)، رفقة أمّه وسيراً على الأقدام هجرا قريتهما صوب مزارع عشائر (الدنا) الإيزيديّة، بمنطقة ماردين، لتموت أمّه إثر السلّ بعد عام، معزولةً وحيدةً في كوخٍ طينيٍّ على أطراف البساتين. لا أحد يعرف عنه شيئاً، لم يحدث أنْ سألهُ أحدٌ، كان هذا الأمر جلّ ما يقلق ويشغل بال (كالو). مرّات عديدة، قبل الخلود إلى النوم، تمتمَ على وسادته: «وجودي من صلب عدمي، فقط الحجارة، والأشجار، واليتامى لا يُسألون».

كثيراً ما تمنّى أن يسأله الآخرون ليجاوبهم: «لا أعلم». حضّر في داخله ذاك السؤال وتلك الإجابة طوال العقود الثلاثة التي أنفقها في خدمة قصر القائد (قاسو).

- انتظرا هنا ريثما أتفقّد المكان.

وبعد لحظاتٍ عاد (كالو) ليَلجوا جميعاً بطن كهفٍ عميقٍ كابتهالات المهَدَّدين.

مثل أجنّةٍ داخل الأرحام سبحوا في بطن الكهف، خشخشة ثيابهم

الممزوجة بأصداء زفراتهم خدشت الظلام التام، آثار حركاتهم بدت الشاهد الوحيد عليهم، هي إشارات وجودهم الوحيدة الآن، لا يعلمون ما إن نامت خيولهم واقفةً أم مستلقيةً، فكّر (كالو) بهذا. الشيء الوحيد الذي تأكّدت (سلتي) منه هو أنّ (عَيشانه) مستلقية على ركبتها، رأسها مستسلم بين راحتي يديها الناعمتين مثل طلوع النبات الأوّل من قاع التراب.

غيّرت (سلتي) نَظْم تنفّسها، كي يزداد أثر الصدى داخل الكهف، في هيئة إشارات لـ (كالو) تُعلِمه بذلك أنّها لم تنم بعد. بدوره (كالو) أطلق الإشارات ذاتها، وأربكَ إيقاع زفراته. عاودت (سلتي) الكرّة، شهقت وزفرت بإيقاعٍ أسرع وأعمق، متحيّنةً نَظْم أنفاس (كالو) الذي وهبها الجسارة كي تدفع سؤالاً تدحرج في الظلام وسقط في قاع أذنيه:

- لم تنم بعد يا (كالو)؟

- وكذلك أنتِ يا خانم.

- هل ستعود إلى (ماردين) فيما بعد؟

- هكذا وعدتهم.

تُعيد (سلتي) أنفاسها إلى عهدها الأوّل، وتستودعها الطمأنينة بعد أن قبضت على طرف حبل الكلام مع (كالو)، وصارت توجّه رأسها صوب مجرى الحبل ذاك كي لا تتوه عنه. سعى كلاهما إلى الحفاظ على ركن قعود الآخر داخل الظلام؛ إذْ قبض كلٌّ منهما على موطن صدى صوت الآخر.

- كنتُ أودّ التحدّث إليك بشأن أمور لا أرغب بأن تسمعها (عَيشانه).

- حاولي أن تنامي يا خانم، ستتحدّث فيما بعد.

- هل تشعر بالنعاس؟

- كلّا، لكن الأفضل أن تتوافق لحظات نومكِ مع لحظات نوم (عَيشانه) كيلا تشعر بالوحدة عندما تستيقظ.

- أخشى أن تفترسها الوحدة الكبيرة يا (كالو)، لا همَّ لي سواها الآن.

- اهدئي الآن يا خانم، لا تفكري بكل شيء دفعةً واحدةً كيلا تتعبي.

- وهل تستطيع ذلك؟

- الرجال أمرهم مختلف عن النساء يا خانم، هَمُّ حمايتكما الآن يستحوذ على كامل عقلي، هَمُّ النجاة بكما من كامل الشرور.

- اسمعني جيّداً يا (كالو)، حين نصل، خبّئ عن الناس قصّتنا، ونسبنا، ودِيننا.

- وكيف السبيل إلى ذلك؟

- فكّر الآن بروايةٍ واحفظها جيّداً كي ترويها فيما بعد للناس حيث نصل.

عادت أنفاس (كالو) إلى الاعتباط، وتسارع صدى القفص الحجريّ حوله، كأنّه تعثّر بكلامٍ لم يفهمه.

- لستُ ماهراً بتأليف الروايات والقصص يا خانم.

- أرجوك فكّر، وما نفع هروبنا إن علم الناس بأمرنا في مكان آخر، إذاً، كان حريّاً بنا البقاء في قريتنا بـ (ماردين) يا (كالو)، ابحث عن قصّة.

توقّف نَظْم الأصداء لحظات قصيرة إلى أن لكمت (سلتي) مجدّداً صمت المكان عبر بحّة صوتها المرتعشة:

- إذاً تظاهر بأنّك أصمّ، هكذا تنجو بنفسك من أسئلة الرجال حيث نصل.

- فكرة صائبة، لكنّك وحدك ستحملين أثقال سرد القصص وخلق الإجابات هناك.

قال بعد صمتٍ طويلٍ. ظنّت (سلتي) أنّه يتدرّب.

- لا عليك يا (كالو)، النساء لا يسألن عن الدين والأنساب مثل الرجال، فقط تظاهر بأنّك زوجي.

حطّ الصدى مجدّداً مثل طائرٍ وافدٍ مشبعٍ بأثر السماء. استحوذ الشرود في الماضي، والحاضر، والمستقبل على كليهما. هناك، داخل بطن الكهف المغروس في سلسلة جبال (ماردين) المطلّة من جهتها الأُخرى على سهول شاسعةٍ منثورة عليها القرى الصغيرة، ومضارب البدو الكرد، ودوابّهم، هناك على تلك السهول ستُروى القصص الجديدة لموازبة القصص القديمة، هل يولد المرء ليحفظ فينسى ويختبئ؟

- هل نمت؟

- لا يا خانم، لكنّي فكرت بكلامك، وكما تعلمين سأعود بعد أن نصل إلى سهول (ماردين)، قد أمكث يوماً وليلة هناك، وما نفع إن تظاهرت بالصمم؟

- ربما لن تعود إلى (ماردين) أبداً يا (كالو)، ربما تتغيّر الظروف والأحداث، كلّ شيء الآن مبهم، لكن، (كالو)، ما هو دينك؟ هل تعرف شيئاً عن الديانة الإيزيديّة؟

تكاثرت أصداء زفرات (كالو) في بطن الكهف كأنّ سربَ طيورٍ عظيماً ولجه واستعمره. تسارعت شهقاته، فكثيراً ما انتظر أن يسأله أحدهم هذا السؤال، تخبّطت شفتاه بعضها ببعض كجناحي طائرٍ على كتفِ مكفوف، شهق عميقاً، عبَرَ محراثٌ حنجرته، خرج من رحم أمّه الآن وسقط في رحم

الظلام هذا. ما أخّره عن إجابة سيدته (سلتي) لم يكن إثر التفكير بالسؤال، فهو أعدّ كامل الأجوبة لكامل الأسئلة داخل عقله طوال العقود المنقضية، بل إنّه لم يتأخّر عن الإجابة قطّ، إنّما غابَ في باطن وجوده الذي لمسه لتوّه، هناك، في قاع الكهف، واجهَ حلمه الأزلي:

- لا أعلم ما هو ديني يا خانم.

لم تعر (سلتي) أهميّةً لجوابه، بدا الأمر طبيعيّاً لها، كأنّها انتظرت هذا الجواب منه.

- كما تعلم، سنلجأ إلى إحدى قرى الكُرد المسلمين يا (كالو)، هل فكرت بالأمر؟ حيث عليك التظاهر بأنّك مسلم، ربما الآن اقتنعت بضرورة أن تكون أصمَّ.

لم يفكّر (كالو) بتلك الكيمياء كلّها، كأنّه قد تنقّل إلى موطنٍ آخر داخل ذهنه. بدا رحيله جليّاً عبر نَظْم أنفاسه التي استوطنت الهدوء، ما من صدى يرشد كلام (سلتي) المتدفّق صوب أذنيه، سقط (كالو) في قاع بئرٍ أشد حلكة من هذا الظلام المستحوذ عليهم، لم تعد تأخذه جمجمات خيولهم داخل الكهف، كان يستطلع أصداء زفراتها بين الفينة والأُخرى، ويفكّر بأكلها وشربها في هذه المنطقة البعيدة عن مصادر الماء، سلكوها لأنّها خارج سيطرة الجنود، وبعيدة عن عيونهم، هذا ما أشاره عليه قائده (قاسو). شعر بأنّه سيّد الكهف وخادمه في آنٍ واحد: سيّدٌ يخفي عن شعبه هواجسه، فلا تسقط صورة ذاته العظيمة وتتبدّد في عيون المتربّصين، وخادمٌ لأنّه فكّر بكلّ هذا معاً ودفعةً واحدةً؛ لذلك صار أسير حلمه ذاك، حلم وجوده الموثوق بسؤال أحدهم له: «مَن أنت يا (كالو)؟ ما هو اسم والدك، واسم قريتك؟ ما هو دينك؟». إلّا أنّه سقط عن فرس حلمه؛ إذْ أدرك غاية سؤال

سيّدته (سلتي) له، سرعان ما عاد إلى التعرّف على بحّة صوته وإخراجه من أصداء الموجودات داخل الكهف:

- أنتِ حكيمة دائماً يا خانم.

لم تهتمّ (سلتي) لإطرائه، ربّما لأنّها هي الأُخرى واقفةٌ بدورها على بوّابة النسب، والرتب، والصفات، فكلّهم الآن يحملون المقام ذاته داخل الكهف المخبوء في صدر جبال (ماردين) التي تحصّن فيها الكُردُ الفارّون من سُلطة الجنود العثمانيّين قبل عقودٍ خمسة، عندما عاد جيش (إبراهيم محمد علي باشا) إلى مصر، وتُرِكت العشائر الكرديّة وحيدةً تواجه قمع العثمانيّين.

- ينبغي لك فقط مراقبة حركات صلاتهم وتقليدها يا (كالو)، المسلمون أيضاً يصدرون صوتاً خافتاً في أثناء الصلاة.

- وهل الأصم ملزمٌ بالعبادة يا خانم؟ هل صُمُّ المسلمين يُصَلّون؟

عادت الريبةُ وألحقت الأصداء بالنَظْم الذي عُهِدَت إليه الخشية، خشية الأنفاس من المجهول والمعلوم في آنٍ واحد، هناك، داخل الكهف، كامل المفاهيم توحّدت، وعادت إلى أصلها، إلى وحدة الموجودات.

لم تبذل (سلتي) مجهوداً حتّى عادت من شرودها بخطبٍ ما، تجلّى هذا في طمأنينةٍ غريبةٍ سكنت زفراتها، كأنّها مُقدِمَةٌ على البوح بأمرٍ مريب. بدوره (كالو)، المنهمك في قراءة ومراقبة وتفحّص الجلبة المعدومة داخل المكان المرتمي على جسد الظلام، تارةً أرسل أذنيه في أثر حمحمات الخيول داخل الكهف، وتارةً أُخرى فكّرَ بإمكانيّة جلب الماء لها، لا سيّما أنّها لم تشرب منذ ساعات، مذ هربوا قاصدين سهول (ماردين) الجنوبيّة والجزيرة. فكّرَ بـ(عَيشانه)، بكامل الروايات التي ينبغي لها حفظها كي

تبقى بعيدةً عن منقار الموت، فكّرَ بسيّدته (سلتي)، والقائد (قاسو)، وما ستؤول إليه أمور وأحوال الناس في قرى الإيزيديّين، كلّ تلك الهواجس والأفكار راودت (كالو) في اللّحظة ذاتها التي كان يفكّر فيها بكلمات سيّدته (سلتي)، بل وبتلك الكلمات التي لم تنطلق من صدرها بعد.

من جديد، دفعت (سلتي) إشاراتها في هيئة الزفرات صوب (كالو)، ومن جديد أعاد هو إرسال الإشارات ذاتها إليها عبْر زفراته المحمولة على ظهور الأصداء هناك.

- متى سنصل إلى سهول (ماردين) الجنوبيّة؟

- بعد مسير ليلتين يا خانم.

- هربنا من (ماردين) فجأةً، تستطيع أن تقول بأنّ خروجنا من هناك كان نتيجة قرارٍ لم يُدرَس كفايةً، وربّما لن يكون بمقدوري التحدّث إليك فيما بعد بحريّةٍ تامّة؛ لذلك، ينبغي لك معرفة بعض الأمور الآن، قبل استيقاظ (عَيشانه)، أتسمعني يا (كالو)؟

- أجل يا خانم.

- كنّا أنا وأخي (قاسو) أطفالاً عندما قُتِل والدنا في إحدى المعارك مع الجنود العثمانيّين، أخذتنا أمّنا إلى قرية أخوالنا، وبعد سنوات عادت بنا كي يدير (قاسو) ممتلكات أبي، ويحمل راية والدنا، ويسيّر شؤون العشيرة، هذا ما كنّا نعتقده بادئ الأمر، لكنْ تبيّن لنا فيما بعد السبب الجوهر الذي دفع بوالدتنا إلى العودة بنا حيث قريتنا قرب (ماردين)، كانت مريضةً بالسلّ، وجود الخدم وأحوالنا المعيشيّة الميسورة جدّاً هي ما جعلها تبقى صامدةً مدّةً أطول، كنّا نعتقد بأنّنا أنا و(قاسو) بقينا خارج دائرة العدوى، لكن، لكن..

صمتت (سلتي) فجأةً، كَمَن يتذكّر ما ينبغي له عدم البوح به، من ثمّ عادت بنَظْمٍ أسرع، فأملت كلّ شيء، مثل كائنٍ يلفظ أنفاسه الأخيرة:

- لكن.. لكنّي لم أنجُ من السلّ يا (كالو)، وكما تعلم، هذا مرضٌ خبيثٌ، ينقضُّ على المرء فجأةً، لا أعرف ما إن كنت سأعيش طويلاً أم لا، كما تلحظ، وجهي مكمّمٌ طوال الوقت خوفاً عليكما: (عَيشانه) وأنت، قد يكون وهماً، قد يكون حقيقة، لا أعلم.

- أطال الله في عمرك يا خانم.

- لا يهمّ هذا حقّاً يا (كالو)، علينا التحدّث بشأن بعض الأمور المهمّة جدّاً، لذلك اسمعني قبل أن تستيقظ (عَيشانه): والدتها ماتت قبل سنوات أيضاً إثر مرض السلّ، وكانت هي وصيّتها الوحيدة قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة، أرادت لها مصيراً آخرَ لا يشبه مصير أخيها (لدومان)، كانت متوجّسة من كل شيء، موت ابنها (لدومان) مقتولاً بالسمّ استحوذ على فكرة النجاة بِـ(عَيشانه)، لذلك يا (كالو)، لا تعد إلى (ماردين) أبداً، ستكون سندها إن متُّ، هي الآن في سنّ الثانية عشرة، لم تزل طفلةً، فكّر بمصيرها إن متُّ، ستكون وحيدةً، طفلة في الثانية عشرة وحيدة على أرضٍ غريبةٍ وبعيدة. لا تعد كي تدفنني وفق شعائر (الإيزيديّين)، ما من وقتٍ للتفكير يا (كالو)، الغدُ يشبه الركض وراء ظبية. سواد المستقبل يشبه الظلام في هذا الكهف، هذا رجاء، هل تعدني؟

- أطال الله في عمرك يا خانم، لكنّي وعدت الجميع أنّي سأعود بعد أن أوصلكم إلى الجنوب، لكن أنتِ و(عَيشانه) أيضاً بمنزلة وطني، لذلك أعدك يا خانم.

هدأ الزفير وحفيف الثياب على سرير الصدى داخل الكهف المخبوء في صدر جبال (ماردين) المعبأة بآثار أصوات الراحلين.

فكّت (سلتي) عقدة الصرّة بجانب ركبتها، وأخرجت ثلاث حبّاتٍ من التين، وصارت تسأل الظلام عن موطن يد (كالو):

- اقترب منّي، هاك، اتبع يدي، وخذ منها تيناً.

مدّت (سلتي) ذراعها، وبسطت راحتها المعبّأة بحبّات التين المطفأة مثل فخّ، وتحيّنت طائراً خفيّاً يهبّ من يد (كالو) الذي رمى حبل قلبه داخل قاع الظلام، وتسلّق أثر صوت سيّدته (سلتي).

الأغنية التي كانت تدندها (سلتي) لـ (عَيشانه) عندما استيقظت داخل الكهف.

..

Hejîra Çiyayî

Kurdish Folk

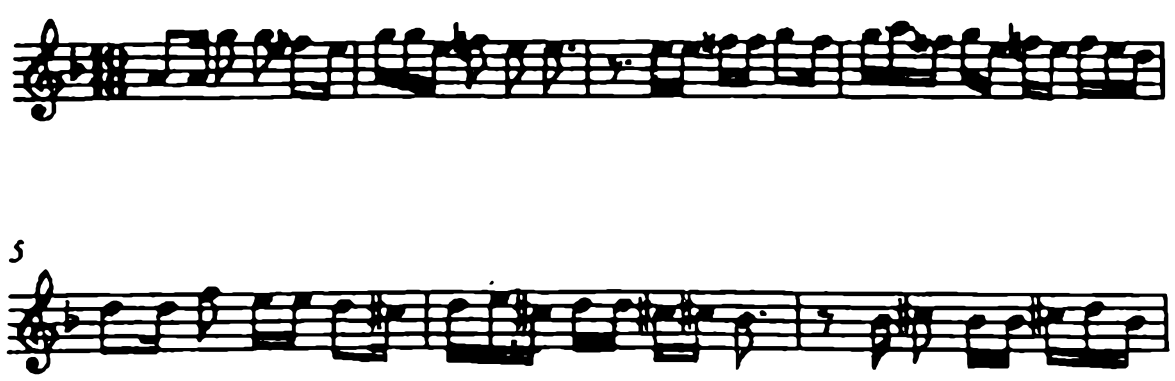

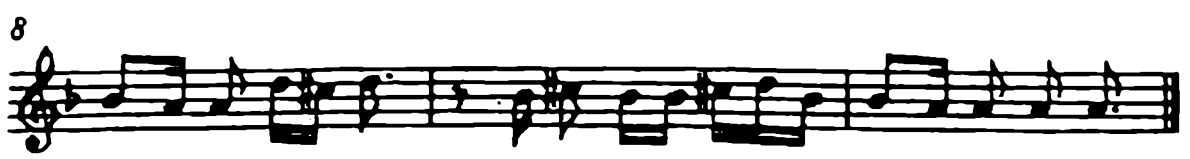

II

الغروبُ تمدد
على ظهرها

أ

منحنية الظهر، أنفاسها كخَرانِق الأرانب في مرمى نظرات مريضٍ، سلكت الدرب ومهرت ترابه بختمي قدميها، كلأت الريح في شالها المورّد، وجُبِل الغبار مع قطرات دموعها. التفتت إلى الكَرمِ المرميّ في الخلاء المطلّ على الحدود التي تفصل سوريا عن تركيا، أرسلت عينيها في سبيل الطمأنينة والنجاة. تذكّرت كلام راعي القرية، مراسلهم، الذي كان ينقل هدايا الناس من القرى التي ألحقتها اتّفاقيّة «سايكس – بيكو» بالدولة التركيّة الحديثة، إلى أهلهم في قرية (شورِك) وراء الحدود في الجهة التي ألحِقَت بالدولة السوريّة. كان الأهالي على الطرفين يرمون الهدايا إلى الرعاة، فينقلونها بدورهم إلى ذويهم وراء الحدود مقابل كسرة خبز. قال راعي قرية (شورِك) قبل سنوات: «الحدود من جهة تركيا ممتلئةٌ بالألغام المضادّة للبشر والدوابّ». لم تمتلك (سيرانه) الجسارة لاستكشاف الأمر بنفسها آنَ اقتعدت التراب الخمريّ حول شجيرات العنب غير الناضجة في كرم أبيها، أو ربّما توجّست بوسيلة نجاةٍ أُخرى تخلّصها من الطغيان، فوضعت عينيها مباشرةً في عين الشمس وهي تميل وتهبط بسرعةٍ نحو الزوال. تأمّلت في شعاعها المنعكس على حبّات العنب، وتلمّست

الغروب في اللّون البرتقاليّ المائل إلى الحُمرة على شالها المبلّل بالدموع. قبل ساعات، أرسلت عينيها صوب بيوت القرويّين، سرعان ما أعادت إلى عقلها فكرة اللّجوء إليهم، والنوم عندهم حتّى بزوغ فجر اليوم التالي، خشية أن تُتَّهم بعلاقةٍ مريبةٍ مع أحد شبّان القرية. فقدت كلّ السبل التي تعينها على ما هي عليه، فاستسلمت، وبزفراتها الحادّة قصقصت الدرب، ومَهَرَت التراب بباطن قدميها، محنيّة الظهر. كلأت الريح في شالها المورّد، امتطت ظلّها على درب قرية خالها، حول عينيها تتقاذف كرات الغبار المجبول مع قطرات دموعها.

تحوّل الزمن في بكائها. كانت أسيرة صراعين في اللحظة ذاتها، تبكي آنَ تتذكّر كامل الأحداث التي نالت منها، وتتوقّف عن البكاء آنَ يستولي عليها الخوف وتتوجّس بالخلاء الشاسع. مرتعشةً تسير كأنّها شوكةٌ صغيرةٌ مدفونةٌ في جسدها الذي خرج قبل تسعة عشر عاماً من رحم أمّها في الغرفة الشماليّة المسدودة نوافذها باللّبنات والطين. في تلك الغرفة، قبل تسعة عشر عاماً، ولدت، وحُملت إلى أبيها الذي كانت أنفاسه على وشك الاختلاط مع أنفاس الموت، في فراشه داخل الغرفة المجاورة. على الدرب ذاته حملتها أمّها وسارت إلى قرية ذويها؛ إذْ جاءوا إليها بعد أربعين يوماً وقالوا لها: «موطن الأرملة هو بيت ذويها، حتّى تتزوّج مرّةً أُخرى، أو ينقضي أجلها». لم تكن وقتها متاحةً إمكانيّة عيش امرأةٍ خارج منزل ذويها؛ إذْ كانت الأرامل يتزوّجن عنوةً مرّةً أُخرى، بينما يبقى أطفالهنّ في كنف أحد الجدَّيْن، كان الأزواج الجدد يرفضون تربية أطفال ليسوا من صلبهم.

حَظيت (سيرانه) بإمكانيّة العيش مع أمّها في بيت خالها عشر سنوات، وُهِبَت السنوات تلك لها؛ إذْ لم يقبل أيٌّ من الرجال الزواج بأمّها وقد أشيع

في القرى المجاورة خبر موت زوجها إثر مرض السلّ، كان ذلك مصدر طمأنينةٍ للأمّ وقتها. ذات يومٍ طلبت إحضار ابنتها (سيرانه) إلى كوخها الصغير حيث عُزلت فيه بعد أن سيطر السلّ على كامل جسدها، والتهم لحمها وترك لعظامها كسوة الجلد فقط. داخل ذلك الكوخ، مكمَّمة قالت: «يا ابنتي يا (سيرانه)، يا عزيزة قلبي، أحمد الله على مرضي بالسلّ، فلولاه لزوّجوني مرّةً ثانيةً، كنتُ سأنفصل عنكِ لأعيش مع رجُلٍ، أحمد الله لأنّني عشتُ معكِ هذه السنوات يا ابنتي، كنتِ ملاذي وخلاصي، كوني شجاعةً واحتفظي بالأسرار حتّى تفشيها لأطفالكِ فيما بعد، ليتني أستطيع ضمّكِ، وتقبيل وجنتيكِ، واستنشاق رائحة شعركِ يا ابنتي».

على تلّةٍ متاخمةٍ للبيوت الطينيّة، تحت خيمةٍ مغزولةٍ من شعور الماعز، نُصبت لتلقّي العزاء في موت والدة (سيرانه). قالت (عَدلك) التي حضرت من قرية (شورِك) المجاورة: «سأعيد (سيرانه) إلى القرية، فكما تعلمون، هناك بيت أجدادها، وهي الوريثة الوحيدة لهم، أوليس هذا هو الصواب؟ عاداتنا وتقاليدنا تقول ذلك، فأمّها مضت إلى رحمة ربها».

بعد تناول البرغل مع لحم خروفٍ ذُبِح للضيوف القادمين من القرى المجاورة، وضعت (عَدلك) يد (سيرانه) الناعمة مثل طلوع النباتات الأوّل من قاع التراب في يدها المُعبّأة برائحة حجر (البيلون)، سارتا على الدرب ذاته الذي سارت عليه أمّها بعد موت والدها عندما كان عمرها أربعين يوماً فقط، لكنّ (سيرانه) هذه المرّة ليست محمولةً بين ذراعي أمّها. وضعت الشمسُ البَريق داخل دموعها، شالها الملوّن على رأسها يخفق بين دفتيّ الريح كرايةٍ بيضاء يرفعها المستسلمون في وجه الغزاة، تلتفتُ بين الفينة والأُخرى لتلمح قرية أمّها وراء ظهرها تصغر شيئاً فشيئاً على مرمى نظراتها

الغماميّة إثرَ البكاء، فيما طيور لا مرئيّة تحوم حولها، ترشدها بالغناء الخفيّ إلى مواطن الذكريات داخل قلبها؛ صوت أمّها، حركاتها، قصصها على البيادر المكسوّة بالبابونج، الخبيزة، والزهور البريّة، ما دفعها إلى التوقّف عن البكاء للحظات. أشغلتها تلك الذكريات قليلاً عن زمنها المضارع، عن غياب كلّ ما عاشت عليه، ليعود شعاع الشمس مجدّداً إلى أعشاش دموعها المنسابة على خدّيها اللّذَين لم يكن بمقدور أمّها تقبيلهما قبل موتها بأيّام، تجفّف أثر البكاء على وجهها بطرف شالها الموَرَّد، تسير بخطواتٍ اعتباطيّةٍ فيما الغروب المقابل لوجهها يطيل ظلّها وراءها كأنّه يسحبه إلى حيث كانت أمّها.

في ليلتها الأولى ببيت والدها، تعرّفت (سيرانه) إلى فانوس اللوكس، توجّست من ضوئه الأبيض الوهّاج، ومن بابور الكاز، وشاهدت للمرّة الأولى صابون زيت الغار. كان تجّار (عامودا) يجلبونه من مدينة (عفرين) المتدثّرة جبالها وتلالها بأشجار الزيتون، تتبّعت بسبّابتها أشكال الحيوانات والزهور مطرّزة بخيوطٍ ملوّنةٍ على الستائر البيضاء المنسدلة قبالة النوافذ، كما يتتبّع الأطفال في المدارس الحروف المدوّنة على صفحات الكتب والدفاتر. حاولت (سيرانه) قراءة مصائر الأشكال تلك، لكنّ صوت (عَدلك) أعادها من الشرود فيما شاهدته في قرية أهل أمّها، وما تراه داخل بيت أبيها، بدون أن تدرك بأنّها تتفحّص أدوات الرفاهية وتقارن بين طبقتين اجتماعيّتين.

- ولدتِ في هذه الغرفة يا (سيرانه)، كانت هذه النوافذ وقتها مسدودةً باللّبنات والطين، خوفاً من طلقات جنود الأتراك على الحدود، فتحتها

مجدّداً، وأعدتُ النوافذ إليها قبل أربع سنوات، بعد أن عمّرت الدولة مخفراً صغيراً على طرف القرية، وتلاشت عادة إطلاق النار اعتباطيّاً لدى الجنود الأتراك، تغيَّر شيءٌ ما في البلد، القرويّون لا يعرفونه.

بعد مغادرة (عَدلك) الغرفة، تمدّدت (سيرانه) في سريرها المحشوّ بصوف الأغنام، توسّدت الظلام وقد تكاثف في مرمى عينيها، فخدشته بالنحيب؛ إذْ استسلمت له كجنديٍّ تصوّبُ بندقيّةً عليه، صارَ البكاء أحد طقوس عبادتها، كلّ شيءٍ كان يبعث على البكاء. تعيد ما عاشته في ذهنها بجسارةِ منهزمةٍ، بدون حتّى أن تنسى بعض التفاصيل، من ثمّ تبكي وتبكي، ظنّت أنّها إذا نسيتْ شيئاً ما، فستغدو وحيدة. صارت الذكريات أهلها الوحيدين تلك الليلة داخل غرفتها بقرية (شورِك) أقصى شمال سوريا الشرقيّ، تماماً في منتصف المسافة بين مدينتي: عامودا، والقامشلي.

بعد أشهرٍ قليلةٍ، تعاملت مع أرض أبيها كما يتعامل الأطفال مع الكتب والأقلام في مدرسة عامودا ومساجد القرى حيث تعلّم فيها الأطفال القراءة، والكتابة، والحساب، حتّى إنّها لم تستحوذ على أسئلةٍ تُبَدِّد فكرتها تلك من رأسها. حوّلت الأرض إلى لوحٍ مدرسيٍّ، ودوّنت عليه تعريفها، راقبت وتعلّمت الكلمات التي تطلب بها الأرض حاجيّاتها من البشر. حفظت كلّ شيءٍ عن ظهر قلب، صارت تستيقظ فجراً على صياح الديك في فناء بيتها، تطوي لحافها وفرشتها، تغسل وجهها، تحمل جرّة ماءٍ صغيرةً مكسوّةً بقماشٍ يحفظ برودتها، وكسرة خبزٍ مع بضع تمراتٍ وحبّة بصل، تمضي إلى الأرض، تقلع الأعشاب الضارّة، وتقلّب التراب حول شتلات البندورة، والخيار، والباذنجان، والكوسا، والبصل، والبطيخ، واليقطين، والبامية، وأزهار دوار الشمس، لتعود وقت الظهيرة تتناول قليلاً

من طعامٍ أعدّته (عَدلك) الذي كان غالباً وجبة برغل مع بصل أخضر، أو يابس، من ثمّ تعود مجدّداً إلى الحقل تنكش التربة حول الشتلات، وتقلّب بمجرفةٍ صغيرةٍ التربة وتجمعها فتدثّر الجذور البارزة. كانت السنونوات تحوم حول رأسها، ترشدها إلى الغروب كي تؤوب، فتستلقي في سريرها، وتمارس طقس استرجاع الذكريات داخل ذهنها، وتستسلم للنحيب الممزوج مع التعب.

تحوّل الزمن لدى (سيرانه) شيئاً فشيئاً، وكذلك نحيبها قبل الخلود إلى النوم، بدا كلّ ما تصنعه من لحظة استيقاظها فجراً إلى لحظة معاودة النوم ليلاً بمنزلة أفعالٍ لا إراديّة. صارت أسيرة أفعالٍ تستحوذ عليها إلى الحدّ الذي لم يعد بمقدورها التفكير في العالم خارج قرية (شورِك)، كأنّها تجرّدت ممّا كانت عليه. تأمّلت البغل في ساحة بيتهم موثوقاً إلى شجرة التين على باب الحظيرة؛ حيث تعيش الدجاجات، وبغلهم، وخروفٌ وحيدٌ يخرج فجراً رفقة قطيع القرويّين يقوده الراعي صوب المراعي على خطّ الحدود، ذات يومٍ امتلكت الجسارة؛ إذْ سألت (عَدلك):

– لماذا لا نشتري المزيد من الأغنام كباقي القرويّين، على الأقل لن تبقى هذه الغنمة وحيدة؟

– القرويّون لا يملكون أرضاً كبيرةً مثل أرضنا يا (سيرانه)، لا وقت لدينا لتربية الأغنام، ثمّ لماذا تُدخِلين رأسكِ في أسئلةٍ غير مفيدة؟ لا تفكّري، قومي بعملكِ فقط.

لم تأخذ (سيرانه) قسوة جواب (عَدلك) على محمل الأهميّة، فهي اعتادت على هكذا أجوبة مندفعة صوب أسئلتها؛ هجرت عادة التفكير بنيّات زوجة جدّها، وساعدها على ذلك حواراتها المستمرّة مع شتلات

الخضروات في البستان، مع الشمس، والقمر، والنجوم، مع الريح والمطر، مع التراب، مع غير المرئيّين وراء الحدود، كثيراً ما فكّرت بالناس هناك، وكيف يعيشون، وهل ثمّة أناسٌ غير أجدادها خلف الجبال في مرمى نظراتها داخل الحدود التركيّة؟ كانت الحال بادئ الأمر عصيّةً على النكران والنسيان، كانت ممارسات (عَدلك) من الأسباب العديدة التي تدفعها إلى النحيب لحظات اللّيل الأولى.

تأمّلت البغل داخل حوش بيتهم المسيّج بلبناتٍ مرصوفةٍ على بعضها متماسكةٍ إثر طينٍ تيبّس وتحوّل إلى جزءٍ من اللّبنات، كان سور بيتها جرحاً قديماً وطويلاً تخثّر الدم على أنسجته، تأمّلت في عينيّ البغل وتمتمت:

- كم أنت وحيدٌ يا دابّة الله!

كلّ ما كان، غاب في كلّ ما يحدث. وكلّ ما يحدث، يتربّص بما سيحدث في ذهن (سيرانه). تناهى إلى مسامعها صوتٌ ينادي: «كاااز كاااااز كاااااز كاااااز»، هرعت حافيةً كأنّه صوت مخلّصها. رُميَ حبلٌ طويلٌ متينٌ إلى قاع البئر؛ حيث تقطن رفقة صمتها، فهاجت بذلك الصوت. خرجت من باب البيت الخشبيّ الموارب، ارتطمت عيناها بخالها يقتَعِدُ عربة «طنبر» يجرّه بغل. نادت عليه عبر صوتٍ تحجّر في قاع صدرها، هرعت كأنّها خرجت من سجنٍ قضت فيه سنواتٍ طوالاً، كان خالها بمنزلة الركن الذي يطلقون عليه اسم: الحريّة، سبقت دموعها المتداخلة مع الهواء، سبقت ظلّها الذي اختفى من سرعة ركضها صوب ركن حريّتها، تمتم خالها بقرب قلبه: «هذه أنت يا سيرانه». أوقف البغل بقوّة، جارّاً العنان كأنّه يجرّ الزمن الماضي ويجلبه إلى الحاضر، فوَلجت حوافر البغل التراب، وتحجّرت حركته، نزل خالها عن «الطنبر»، فَرَدَ لها ذراعيه إلى أن ولجتهما قامة

(سيرانه)، حملها على كتفيه واحتضن ساقيها المتدلّيتين على صدره فيما قبضت هي على رأسه براحتي يديها، سار بها حول «الطنبر» كما كان يفعل في طفولتها، اقتعدا الأرض في مرمى ظلّه، والبغل متحجّر الحركة، إلى أن غفت الموجودات حولهما.

بعد صمتٍ طويلٍ، فكّر خلاله كلاهما بالسؤال الأوّل الذي ينبغي له أن يُسأل، جميع الأسئلة والأحداث قد تزاحمت فيما بينها وتسابقت؛ أيها ستُنطَق أوّلاً، لذلك ساد الصمت. وضعت (سيرانه) كفّ خالها بين راحتي يديها، وصارت تتلمّس الجلد المتشقّق الممتلئ بأثر التراب، والكاز، والزمن، نهضا، أرسلت (سيرانه) سؤالاً بنبرة التمتمة صوب مسامع خالها:

– هل تزور قبر أمّي يا خالي؟

ارتجفت حنجرة خالها كفستان (سيرانه)، وهبط ريقه إلى قاع بطنه مثل حجرٍ يُرمى في بئرٍ، وغابا داخل قاع السكون إلى أن اختفت كامل الموجودات في مرمى عينيهما لحظتها، كأنّهما عاشا حلماً طويلاً يشبه الحدود التي تمتدّ بها العين ولا تبلغ النهاية، امتدّت نظرات (سيرانه) وراء خالها ولم تنته.

فيما بعد، دخل حدثٌ آخر إلى قرارة نفس (سيرانه)، الحدث الذي تحوّل إلى لسان تستطعم به الدنيا وتحيا للغد في سبيله، صارت تتحيّن دوماً صوت خالها يمرّ بقريتها مرّةً في كلّ عامٍ ينادي: «كاااااز كاااااز كاااااز». بات ذاك النداء إشارة وجود (سيرانه)، كان يُتَرجَم ويتحوّل إلى لغتها الخاصّة، لغتها الأمّ، لغة الفَقد، ويصبح النداء على هذا النحو: «سيرااااااااااانه، سيرااااااااااااااااااااااااااااااااااااانه، أنا قادمٌ يا ابنتي».

مع الزمن، لم تحظَ (سيرانه) بما يحوّر ما تؤمن به في قلبها، كأنّها

استسلمت لفكرة العيش خارج العالم وداخل ذكرياتها منذ الخطوة الأولى التي خطتها على الدرب إلى قرية (شورِك)؛ حيث موطن والدها. منذ تلك الخطوة أدمنت على فكرة العيش والبقاء داخل ذكرياتها، حوّلتها إلى جيشها المطيع وحاربت به كلّ ما يشغل بالها ويقلقها في زمنها المضارع، حتّى إنّها لم تفكّر للحظة بالمستقبل الذي كان هلاميّاً غامضاً مثل سؤالها ما إذا كان ثمّة عالم وراء الجبال في مرمى نظراتها داخل الحدود التركيّة أم لا. لم تخرجها كامل الأحداث من كوخ ذهنها المتين المصنوع من الحنين وحسب، لذلك، اكتفت بالمراقبة وحسب، أدمجت كلّ حدثٍ جديدٍ بسياق صفته الطبيعيّة، هو حدثٌ وحسب. راقبت المخفر الذي بنته الحكومة السوريّة على خطّ الحدود بالقرب من القرية، راقبت الجنود الثلاثة يتناوبون على النظر وتمعّن الحدود طوال النهار واللّيل، كانت تهابهم؛ إذْ سمعت ذات يوم من عمال دَرس الحنطة جملةً حيّرتها وفتحت في عقلها أسئلةً أشغلتها لمدّةٍ: «هؤلاء الجنود لا يتكلّمون اللّغة الكرديّة، هُم عرب»، الأمر الذي دفعها إلى سؤال نفسها: «مَن هُم العرب؟». كانت قد سألت خالها قبل سنواتٍ سؤالاً شبيهاً بإيقاع هذا السؤال؛ إذْ عبرَ بعض الجنود على ظهور الخيول وآخرون في عربات، جاوبها خالها حينها: «هؤلاء هُم جنودٌ فرنسيّون يا سيرانه، هم يحكمون البلاد أسفل الخَطّ الآن». آنذاك، سألت نفسها: «مَن هُم الفرنسيّون؟». وسرعان ما رتّبت تفكيرها واعتقدت أنّ الفرنسيّين إحدى قبائل الكُرد التي تعيش في هذه البلاد، هكذا وعلى هذا النحو رتّبت تفكيرها حول سؤال: «مَن هُم العرب» وقتها، إلى أن عرفت عنهم من لسان عاملات وعمّال حصد ودَرس الحنطة الذين كانت تجلبهم (عَدلك) من القرى المجاورة، ومن مدينة عامودا الواقعة إلى جهة الغرب من قريتها. هؤلاء الذين تعرّفت إلى قصصهم، كانت تعدّ لهم

الطعام وتراقبهم من الفجر إلى ساعات الغروب الأولى، يقبضون على قوائم السنابل، يقصفونها بمناجل يبرق عليها غناء لا ينضب طوال ساعات العمل. كانت (سيرانه) تنتظر موسم الحصاد من كلّ عام، ليس بسبب البهجة التي ترسمها العاملات والعمّال على سهول القرية، إنّما لتوقها إلى الغناء. كانت أغاني العاملات والعمّال أحد أعمدة كوخ ذكرياتها المتين، مضت عبر تلك الأغاني صوب أغاني أمّها، كانت تمشّط شعرها، وهي تدندن لها، تدندن دائماً: لحظة سيرهم في السهول والبيادر، قبل خلودها إلى النوم، لحظة صناعة عجين الخبز. لذلك، كانت أيّام الحصاد من كلّ عامٍ لديها بمنزلة استرجاع ذلك الشعاع المنساب في صوتها البعيد بقاع قلبها، هكذا رَتّبت الأحداث وروّضتها كي تعينها على عدم نسيان أمّها. تستيقظ قبل طلوع الفجر، تخبز أرغفةً يهبها لها رحم التنّور المسجور بالأعواد، والقشّ، وروث البقر، تقتعد الدكّة الصغيرة أمام الباب المطلّ على الفناء، تنصب خياماً بنظراتها على البيادر متحيّنةً تشقّق شعاع الشمس على قامات وأصوات العاملات والعمّال قادمين صوب بيادر أبيها، تخرج إليهم بالماء وخبز التنّور، مطلقةً أذنيها مثل صقرين صوب ألسنتهم المشغولة والمعبّأة بالغناء كأنّها أرانب، تغمض عينيها، تتحيّن الغناء فتقبض عليه وتستودعه عشّاً بعيداً وراء الفجر تنام فيه أمّها، هناك في عالم الموت.

تأمّلت (سيرانه) تلك الطاقة الخفيّة التي لم تهدأ داخل قاع قلوب عاملات وعمّال الحصاد، طاقة الغناء المواظب على تلقين الهواء بحّات تؤنسه في مرمى الحدود الطويلة المنعزلة المعبّأة بالبنادق والألغام، تأمّلت قصصهم، كانوا مؤمنين مثلها بفكرة الوفاء لشيءٍ ما، كانوا وحيدين ووحيدات مثلها، يغنّون لنكران النسيان المتربّص بالذاكرة، كان الغناء

جيشهم الذي يحاربون به النسيان طوال فترة الحصاد. راقبت بريق الشمس المنعكس في مناجلهم المبلّلة بعرقٍ متساقطٍ من أجسادهم، بعضهم يحصد فيما آخرون يصفّفون نبتات العدس المحصودة، يتركونها تجفّ، ومن ثمّ يحزمونها إلى خشبتين تُحمَل على ظهر بغلٍ يمضي بها إلى البيدر؛ حيث يفرشها عمّال آخرون على الأرض في مرمى رجُلٍ يقتعد (النَورَج) وبسوط مصنوعٍ من أذيال الدوابّ يهشّ على بغلٍ يجرّ الآلة ويسيّرها في محيط دائرةٍ ليَدرُسَ نبتات العدس على الأرض. بينما تحمله النساء إلى بيدرٍ آخر يرفعونه بأوعيةٍ خشبيّةٍ في مرمى الريح المواظبة على فرز القشّ والتبن عن حبوب العدس التي كانت تُعبّأ في أكياسٍ تُحمَل على ظهور آخرين صوب بيدر تال يصفّفونها وينتظرون التاجر مع عرباتٍ تجرّها أحصنة، يشتريها ويبيعها في مدينة (عامودا) إلى تجّارٍ آخرين.

كان العمل ذاك بمنزلة سيرة الطعام على تلك البيادر في قرية (سيرانه)، الطعام الذي يسحبه الناس إلى بطونهم كي يبقوا على قيد ما سوف يعيشونه مِن سعادةٍ وبؤس، مِن فرحٍ وكَمَد. كلّ تلك الأعمال كانت تتأمّل فيها (سيرانه) بينما تأسرها الأغنيات المنسابة من حناجر العاملات والعمّال. كانت أيّام الحصاد والعمل بمنزلة كَورَسٍ طويلٍ لا متناهٍ لهذه الأغنيات الطويلة غير المتناهية، وكانت الأغنيات الطويلة وغير المتناهية بدورها كَورَساً طويلاً لأغنيات والدتها المشدودة إلى جذعٍ متينٍ في قلبها. لكنْ سرعان ما كانت تنتهي أيّام الحصاد لتعود (سيرانه) إلى وحدتها المكسوّة بأثر الذكريات، ذكريات سنواتها العشر التي عاشتها في كنف أمّها وبيت خالها، في غرفٍ تجاور بعضها، ينساب ويتسلّل بين جدرانها الطينيّة صوت خالها المجبول بالغناء، هي لم تزل أسيرة صوته، ندائه، الذي يطلقه من قاع

حنجرته ببيعه الكاز في القرى المستلقية على ظهر حدودٍ لانهائيّة تقطع ناس شمال خطّ سكّة قطار (برلين – بغداد) عن جنوبه. تعود (سيرانه) إلى حقلها مجدّداً، تقلّب التراب حول شتلات البندورة، والخيار، والكوسا، والباذنجان والبامية، واليقطين. تقطف الأعشاب الدخيلة على قوت شتلاتها وتراقب البطيخ الذي يخفق نموّه، تتصيّد بعينيها لونه الأصفر، تكسره وتفرغ بذوره، وترمي القشور في مرمى جوع البغل، والخروف، والدجاجات، وتفرش بذورها تحت شمسٍ تتولّى مهمّة تجفيفها، ليباع بعد ذلك لتجّار (عامودا). كان هذا موسماً إضافيّاً أيضاً، لكنّه كان خالياً من أغاني العاملات والعمّال، كان موسم تعزيز صوتها الداخليّ في نفسها. صنعت (سيرانه) كلّ هذا بمفردها، وأطعمت ذاكرتها بتلك الأعمال، وحيدةً بينما ريح غريبة خفيّة تدندن في قرارة قلبها أغاني أمّها، كانت في الحقل كَورَس ذاكرتها المشدودة إلى ما يرسل النحيب لفراشها ساعات اللّيل الأولى داخل غرفتها المعبّأة بأثر بكائها الأوّل، بكاء خروجها من رحم أمّها، ومن ثمّ الذهاب بها محمولةً إلى أبيها الموضوع في مرمى الموت. قصّت عليها والدتها كامل تلك التفاصيل، حكت لها سيرة الموجودات كأنّها تمتمات المؤمنين، تمتمت (سيرانه) كلّ تلك الأحداث في فراشها واستودعت نفسها النحيب الأخير.

راقبت رجال المخفر، يُنزلون علم البلد ذا النجوم الحمراء الثلاثة في فضاءٍ مستطيلٍ أبيض يتوسّط آخرين، أخضر في الأعلى، وأسفله أسْود، ثمّ رفعوا علماً آخرَ على ساريةٍ موضوعةٍ أعلى سقف المخفر الصغير، قال القرويّون فيما بعد بأنّه علم الوحدة بين سوريا ومصر، حينها سأل قرويٌّ يافعٌ آخر:

– أين هي مصر؟

– هي بعيدةٌ جدّاً، وراء البحار، كأنْ تذهب مشياً من قرية (شورِك) إلى مدينة (عامودا) ذهاباً وإياباً، حتّى تبلغ الخمسين من العمر، تقريباً هذه هي المسافة بين قريتنا ومصر.

فشهق السائل وزفرَ قرب ياقة ثوبه؛ إذْ همَّ بتخيّل المسافة. كذلك فعلت (سيرانه) عندما سمعت فيما بعد بمقياس المسافات ذاك، لم يكن أحدٌ وقتها ملمّاً بغير وحدات القياس تلك، كان المجازُ وحدة القياس المُثلى. طوال تلك الأيّام راقبت (سيرانه) التغيّرات في المخفر الصغير على تخوم قريتها، أمعنت النظر في حركات الجنود الجُدد، تأمّلتهم، كانوا نافذتها على العالم.

رجُلٌ يرتدي ثياباً إفرنجيّةً يرافقه جنديٌّ وشابٌّ يرتدي ثياباً محليّةً تخصّ السكّان في هذه المنطقة، ترجّلوا عن عربةٍ يجرّها حصانٌ بُنيّ اللّون، ساروا نحو باب بيت (سيرانه) مقتعدة الأرض تنقّي التراب والحصى عن قمحٍ موضوعٍ في إناء فخّارٍ بحضنها. سرعان ما وضعت الإناء على الأرض ونهضت وأصلحت موضع شالها على رأسها وصارت تدفع بأناملها بقايا شعرها تحت طرفه وتخبّئه؛ إذْ تحدّث إليها الرجُل ذو الثياب الإفرنجيّة بالعربيّة. لم تكن (سيرانه) تعلم أصل تلك اللّغة واسمها، ولم يحدث أن سمعت أحدهم يتكلّم بغير اللّغة الكرديّة؛ لذلك، التفتت يميناً ويساراً كأنّها ترسل عينيها في سبيل أحد القرويّين ليعينها على فهم كلام الرجُل المتأبّط دفتراً كبيراً تعرّق جلد غلافه الرمادي. هزّت رأسها بدون أن تدرك السبب، سرعان ما تحدّث إليها بالكرديّة الرجُل ذو الثياب المحليّة:

– الموظف الأفندي من دائرة الإحصاء في الجمهوريّة العربيّة المتّحدة، هذا اسمٌ جديدٌ لسوريا بعد الوحدة مع مصر، أمرت سُلطات الرئيس جمال

عبد الناصر بجرد وإحصاء عدد الناس في البلد، سأترجم لكِ كلام الأفندي يا خانم، يبدو أنكِ أنتِ أيضاً لا تجيدين التكلّم باللّغة العربيّة.

هزّت (سيرانه) رأسها، لكنْ على نحوٍ أسرع كأنّها لم تفهم شيئاً واحداً مما قاله المترجم.

سألها المترجم الكرديّ بعد أن تحدّث إلى الموظف ذي الثياب الإفرنجيّة:

- ما اسمك؟

- سيرانه.

أجابته، وهي تعيد تصحيح موضع شالها على شعرها، وتدفع بضع شعرات تحته؛ إذْ عدّلتْ موضع إناء الفخّار على الأرض.

- ما اسم والدك؟

- شكري.

- اسم والدتك؟

- غَزالة.

- ما اسم جدك؟

- فرحان.

- ما عدد أعمامك وعماتك؟

- لا عمات وأعمام لي يا أفندي.

- ما صلة القربى بينك وبين السيدة (عَدلك)؟

- السيدة (عَدلك) هي أرملة جدّي.

- ما اسم قرية السيدة (عَدلك)؟

- لا أعلم، هي من (فوق الخط).

استغرب الموظف حينما سمع كلمتي «فوق الخط» من المترجم، وسأله:

- هل (فوق الخط) اسم مدينة أم قرية؟

سرعان ما أظهرَ ابتسامةً مَطَّت شاربيه حينما قال له المترجم:

- يا أفندي، الأكراد لا يعترفون بالحدود بين تركيا وسوريا، وكلمتي (فوق الخط) تعني الأراضي التي تقع شمال خطّ قطار (برلين - بغداد) الذي يمر الآن فوق حدود سوريا الشماليّة من جهة تركيا، فالحدود كانت غير موجودة قبل اتفاقية (سايكس - بيكو)، وكانت كلّ المدن والقرى مفتوحة على بعضها، مثلاً: كل هذه المناطق كانوا يطلقون عليها اسم: (سهل ماردين). وبعد أن صنع الألمان والعثمانيّون خطّ القطار هذا، استخدمه الكُردُ ووظّفوا مكانه لأنفسهم فصاروا يطلقون على الأراضي التي تقع في تركيا (أراضي فوق الخط) والأراضي الواقعة في سوريا (أراضي تحت الخط).

امتدّت علامات الاستغراب والدهشة على ملامح الموظف ذي الثياب الإفرنجيّة، وصار يدوّن ملحوظاتٍ قصيرةً على صفحات الدفتر الكبير، فيما أخرج الجندي قارورةً معدنيّةً من حقيبةٍ جلديّةٍ معلّقةٍ إلى خصره وصار يشرب منها الماء ويجفّف شاربيه بكمّ سترته العسكريّة.

- هذا غريب يا خانم، فوالدك مات منذ تسعة عشر عاماً، ولم تنجب زوجته (غَزالة) أولاداً؛ أي: إنّك غير مسجّلة على اسمه.

هبّ في ذهن (سيرانه) صوت أمّها قادماً من عالم الموت كأنّه شبيه أغاني عاملات وعمّال الحصاد. زفرت بقرب شالها المورّد وقالت:

- ماذا يعني تسجيل وأوراق وعلى اسم والدي وكل هذه الأمور؟

- هل تملكين بطاقة شخصيّة، يعني (بطاقة هويّة) من الدولة؟

- لا أعلم، ربّما تكون مع السيّدة (عَدلك).

- وهل السيّدة (عَدلك) موجودة بالبيت الآن؟ يريد الموظّف التحدث إليها.

- لا، هي غير موجودة، ذهبت منذ الصباح إلى مدينة عامودا.

- ومتى ستعود؟

- قبل غروب الشمس ربما.

اقترب المترجم من (سيرانه):

- يا (سيرانه) خانم، هل لك أقرباء من جهة أمّك؟

- لي خال فقط يعيش مع زوجته وأطفاله في قريتهم.

- ما اسم قريتهم؟

- اسمها (توكي) يا أفندي.

- اذهبي إليه وقولي له: إنّكِ غير مسجّلة في دائرة النفوس باسم والدك شكري، لا تنسي، اسمها: دائرة النفوس، أو الأحوال الشخصيّة، إن نسيتِ اسمَي: (دائرة النفوس)، و(الأحوال الشخصيّة)، قولي له: إنّكِ غير مسجّلة عند الحكومة باسم والدك المرحوم (شكري)، فكما هو مسجّل بدفتر الموظف يا خانم، والدك يملك أراضيَ كثيرةً، ولن ترثيه إن لم تكوني مسجّلةً في خانته، أعرف أنّ ما تقولينه صحيح يا خانم، اطلبي من خالكِ أن يتأكّد.

هزّت (سيرانه) رأسها في إشارةٍ تفضي إلى الشكر والامتنان للمترجم

وأزاحت وجهه عن مرمى عينيها؛ إذْ غيّرت جهة نظراتها حيث آنية الفخّار الممتلئة قمحاً. الرجال الثلاثة ودّعوها ومضوا إلى بيتٍ آخر في قرية (شورِك) بينما اقتعدت (سيرانه) الأرض على عتبة باب الحوش وصارت تفكّر بما جرى، صارت تتوسّل أذنيها أن تسمعاها صوت خالها قادماً مع عربة «الطُنبر» يجرّه بغل وينادي: «كاااااز كاااااز»، لكنْ متى سيأتي خالها إلى القرية مجدّداً؟ سألت (سيرانه) نفسها فيما تغرس أصابعها في حبوب القمح كأنّها تتلو دعاءً ينجيها ممّا تخبّئه لها السيّدة (عَدلك). أغمضت عينيها واستدرجت صوب ذهنها كامل التفاصيل المُرّة التي عاشتها في بيت أبيها، استدرجت بطش وظلم (عَدلك)، استدرجت الشرّ في عينيها وتمتمت في قرارة نفسها: «إلهي أعنّي، واسترني، واحمِني من طغيان هذه السيّدة، وافتح لي أبواب النجاة من شرورها»، وَزَفَرَت بقوّة كأنّها قطعت سيراً على الأقدام المسافة بين قريتها ودولة مصر البعيدة.

طوال اللّيل والفجر، فكّرت (سيرانه) بكلّ ما حدث وقيل على لسان الموظّف والمترجم، حتّى إنّها من شدّة الغرابة لم تستطع ممارسة طقس النحيب في فراشها ساعات اللّيل الأولى. اختلط كلّ شيءٍ داخل ذهنها، فاهتدت إلى قرار مصارحة (عَدلك) بكلّ شيء، والاستفسار منها، لم تأخذ نصائح المترجم لها على محمل الأهميّة، حتّى إنّها تمتمت في قرارة نفسها: «كلام الأفندي لا يُنجيني، ليس لديّ ما أخسره بعد ذلك».

فجر اليوم التالي، اقتعدت التراب بجانب شجرة التين؛ إذْ أخرجت البغل والدجاجات من الحظيرة وحرّرت الخروف كي يمضي إلى الراعي. تحيّنت خروج (عَدلك) من غرفتها. ولتحذف أثر الانتظار في ذهنها، صارت تفتّت بأصابعها قشور البطيخ وترميها في مرمى جوع البغل الموثوق

إلى الجذع المتين، اختلطت زفراتها بشحيج البغل وتقابلت نظراتها مع نظراته. استدرجت صوب ذهنها كامل ممارسات (عَدلك) وأصبحت تعيد ترتيبها وربطها إلى غاياتٍ جديدةٍ بعدما كانت قد سوّغت كامل الأحداث واستودعتها الطمأنينة الخالدة المواطنة في قلبها. وفكّرت بما ستفعله في حال اعترفت لها (عَدلك) بكلّ شيء، هل ستسامح؟ إن لم تسامح فماذا تفعل؟ لم تشأ الذهاب إلى خالها ومصارحته بما جرى قبل التأكّد منها هي، هل لأنّها لا تجيد المكائد وأفعال رجالات الحكومة؟

خرجَ البغل من مرمى نظرات (سيرانه) وفرّت دجاجة كانت تنقر بالقرب من باب الغرفة؛ إذْ فتحته (عَدلك) وخرجت إلى فناء البيت بسؤالٍ رمته صوب (سيرانه) الشاردة:

– لن يفيدك الجلوس عندما تتزوّجين، هل فَنَت الأفعال يا فتاة؟ لماذا لا تصنعين شيئاً مفيداً؟

لملمت (سيرانه) شهيقاً واسعاً من حوش البيت واستدرجته صوب صدرها، كأنّها مُقدِمةٌ على نطق كامل كلمات الوجود دفعةً واحدةً، إلّا أنّها سرعان ما بدَّدت الهواء في صدرها بزفرةٍ طويلةٍ دفعت (عَدلك) إلى سؤالها مجدّداً وبنَظْم أسرع:

– قومي يا فتاة، ما حالك؟

– جاء البارحة موظّفٌ من الحكومة.

– وماذا يريد؟

– كان يسجّل أسماء القرويّين، لا أعلم لماذا.

– وما علاقة ذلك بوجهك البائس الذي يقطع الرزق هذا الصباح يا ابنة شكري؟

أعادت (سيرانه) تلاوة سيرة الشهيق الذي بدّدته بزفرةٍ واحدةٍ قبل لحظات:

- عندما سألني عن اسم أبي، أجبته: شكري، لكنّه قال: لا يوجد لشكري أولاد، وهذا مسجّل في دفتر الحكومة.

استولى الارتباك على السيّدة (عَدلك) وأرادت إضماره، فلا ينكشف أمر ما، تقدّمت نحو (سيرانه) ولكمت براحة يدها كتفها دافعة إيّاها إلى النهوض:

- انهضي قبل أن أقدّم لحمك المُرّ وليمةً لكلاب الحدود الشاردة.

- لا أستبعد أن تفعلي ذلك.

- ماذا جرى لكِ يا فتاة؟ اذهبي إلى الأرض، اقلعي الأعشاب الضارّة، وإن لم تجدي اقلعي نفسكِ وهَبيني الراحة منك.

- أين هى بطاقتى الشخصيّة من الحكومة؟

هاجت (عَدلك) وصارت تضرب بباطن قدمها اليمنى الأرض، فرّت الدجاجات وهاج بعضها ببعض، أصدر الثور شحيجاً مرتفعاً واستدار نحو موضع آخر.

- أنا فقط استفسرت منك بشأن كلام موظّف الحكومة، حقيقةً ما من مسوّغ لكلّ ما تفعلينه الآن، لمَ كلّ هذا الهياج والغضب، ثمّ ألا تكفّين عن شتم أبي في كلّ مناسبة؟ ماذا تخبّئين عنّي؟ لماذا تضمرين كلّ هذا الحقد لأبي؟

قالت (سيرانه)؛ إذْ نهضت واضعةً راحة يدها على موضع اللكمة في كتفها، مواظبةً على استدراج شهقاتٍ طويلةٍ تنفقها في سبيل البكاء الذي لم يكن في مستطاعها صدّه؛ إذْ ولج صدرها. اقتربت نحوها (عَدلك)،

قبضت كلتا ذراعيها بيديها الغايظتين الطويلتين وأخذت تهزّ بدن (سيرانه) النحيل:

- أجل، أنا أكرهكم جميعاً، أكره جدّكِ، ذلك الذي تزوّجني في الوقت الذي لم تكن لي حيلة للعيش مثلك الآن، على أرض أجدادك، لو كان أبي ثريّاً لتزوّجت بأحد شبّان القرية، ولم ألحق بجدّك، أجل، أكره أباكِ شكري، وأكرهك.

- لماذا تكرهيننا، كنتُ أعيش في هناء في بيت خالي، لماذا أتيتِ بي مجدّداً إلى قرية أبي بعد موت أمّي؟ ماذا تخبّئين بالله عليكِ، لماذا تلقين عليّ كلّ هذا الأذى؟

- هل تدفعينني إلى البوح يا ابنة شكري؟ ستموتين ولن تعرفي غايتي، سيُدفَنُ سؤالك هذا من دون جواب، مع جثّتك الوحيدة في قبرٍ بمكانٍ ما، أجل، أنت لستِ مسجّلةً في خانة والدكِ، وهل كنتِ تنتظرين منّي أن أترك لك ولزوجكِ المستقبليّ هذه الأرض التي فنيت شبابي لأجلها؟ أجل، أنت لستِ مسجّلةً في خانة والدكِ، هل ارتحتِ، ارتاحي أكثر، وأريني ما ستفعلينه.

لم تكن كلمات (عَدلك) جديدةً بالنسبة إلى (سيرانه)؛ فكثيراً ما ارتابت من تصرّفاتها، من إهاناتها المتكرّرة لجدّها ووالدها، من كلماتها الاعتباطيّة القاسية التي كانت تدفعها صوبها، بَدَت كأنّها تعرف كلّ شيء، اقتعدت الأرض حيث تقف، ارتجفت قدماها كسمكةٍ تحتضر؛ إذْ أفلتت بدنها من يدي (عَدلك)، وبصوتٍ يقصقصه النحيب قالت:

- سأخبر خالي بكلّ شيء.

- هل تظنّينني خائفةً من خالك؟ لديّ مَن يقلع لسانه من سقف حلقه،

مَن يقطع يديه وساقيه ويطعمها للكلاب الشاردة، سأتزوّج، يا ابنة شكري، إن مضيتِ إلى قرية خالك بائع الكاز لا تعودي، أو، لمَ لا؟ إن زرتِ خالكِ لن تعودي مجدّداً، هيّا أريني ما تفعلين.

رفعت (سيرانه) رأسها، برقَ الضوء الوافد من السماء خلال عينيها، تمتمت، كأنّها استنجدت بأمّها.

دخلت (عَدلك) غرفتها، وأوصدت الباب وراءها بإحكام، وسرعان ما عادت الدجاجات للنقر على العتبة مجدّداً، بينما (سيرانه) مغمورة بالنحيب، تقبض على رأسها براحتَي يديها، تشهر الموجودات في ذهنها سيوفاً بوجهها.

ما أن مرّت لحظاتٌ قليلةٌ على نقر الدجاجات المسالم، حتّى خرجت (عَدلك) من مخدعها مجدّداً مرتديةً فستاناً ورديّ اللّون، أقفلت باب الغرفة بالمفتاح الموثوق إلى زنّارٍ ملفوفٍ حول خصرها، وتقدّمت نحو (سيرانه):

– هيّا انهضي يا ابنة شكري، سأذهب إلى عامودا ولن أعود حتّى مغيب الشمس، هيّا انهضي واذهبي إلى العمل في الأرض، لن تدخلي البيت حتّى أعود، وإن نال منكِ الجوع، فالتهمي أيّ شيءٍ في الحقل، هيّا انهضي!

أخرجت (سيرانه) من الحوش، وأقفلت باب البيت الخارجيّ، ومضت إلى (عامودا) تاركةً (سيرانه) تواجه أَثَرَ ظلمها وحيدةً.

فكّرت (سيرانه) عميقاً والتفتت صوب الكَرمِ المفتوح في مرمى الخلاء، المطلّ تماماً على الحدود التي تفصل سوريا عن تركيا، أرسلت عينيها في سبيل الطمأنينة والنجاة، تذكّرت كلام راعي القرية: «الحدود من جهة تركيا ممتلئة بالألغام المضادّة للبشر والدوابّ». لم تمتلك الجسارة

لاستكشاف الأمر بنفسها آنَ اقتعدت التراب الخمريّ حول شجيرات العنب في كرم أبيها، أو ربّما توجّست بوسيلة نجاةٍ أُخرى تخلّصها من طغيان (عَدلك)، وضعت مباشرةً عينيها في عين الشمس، وهي تميل وتهبط بسرعةٍ نحو خطّ الأفق، تأمّلت في شعاعها المنعكس على حبّات العنب غير مكتملة النضوج، وتلمّست الغروب في اللّون البرتقاليّ المائل إلى الحُمرة على شالها المبلّل إثر الدموع. قبل ذلك، أرسلت عينيها صوب بيوت القرويّين القليلة، سرعان ما أعادت إلى عقلها فكرة اللّجوء إليهم، والنوم عندهم حتّى بزوغ فجر اليوم التالي، خشية أن تُتَّهم بأحد شبّانها.

فقدت كلّ السبل التي تعينها على ما هي عليه، استسلمت، محنيّة الظهر، أنفاسها كخَرانِق الأرانب في مرمى نظرات مريض، سلكت الدرب ومهرت ترابه بختمي قدميها، جُبِل الغبار مع قطرات دموعها، وكلأت الريح في شالها المورّد، فخفق كرايةٍ بيضاء يرفعها الناجون في وجه الغزاة، امتطت ظلّها على درب قرية (توكي) حيث بيت خالها. تحوّل الزمن في بكائها، كانت أسيرة صراعين في اللحظة ذاتها؛ تبكي آنَ تتذكّر كلّ تلك الأحداث التي نالت منها، وتتوقّف عن البكاء آنَ يستولي عليها الخوف وتتوجّس بالخلاء الشاسع. مرتعشةً مشت، كأنّها شوكةٌ صغيرةٌ مدفونةٌ في جسد نفسها. كانت الوحدة قرينها. كلّ تلك القصص استرجعتها (سيرانه) في ذهنها كي تستقوي بها على وحشة الدرب، تتأثّر وتتعذّب، فتشتاق إلى أمّها كي تبكي وتنسى الخوف، كان نسيان الخوف همّها، بالتَذكّر، بالإصغاء إلى أثر الأغنيات داخل قلبها وذهنها، على الدرب المنصوب في مرمى الغروب، في الفضاء الخاوي الفسيح، احتمت بأمّها الميّتة.

كانت (سيرانه) تتذكّر هذه الأغنية بصوت أمّها، عندما سلكت الدرب في ذلك الغروب.

Ez Xelefim

Kurdish Folk

III

عَلَقُ الطين

أ

– من فمها يا (أَسْبيد)، من لون لثتها تعرف ما إن كانت مريضةً أم لا، اللّثة ذات اللّون الورديّ علامة الصحّة، والحمراء فدلالة نقص السوائل في بدنها، والصفراء منها تفضي إلى كبدٍ عليلٍ؛ أمّا الشاحبة، فإشارة علّةٍ داخل قلبها.

من ثمّ أولج أصابعك داخل فمها، كما تولج الأمّ حلمتها في فم مولودها، تماماً من وراء قواطعها، حيث لا أسنان، واقبض على لسانها واسحبه خارجاً من طرف الفم الأيسر، أو الأيمن؛ سيدفعها ذلك إلى الإفراج عن فمها، قواطعها تُفحص بالعين، حيث يمكن مشاهدة ما إن كانت سليمةً أم لا، وعلى الأرجح ينبغي لك الإمعان في أضراسها، راقب النتوءات عليها كما تُراقبُ أثر شعلةٍ على رقبة فتاةٍ، النتوءات الشبيهة بأشواك الصبّار علامة الكسل في شهيّتها للطعام، كذلك يمكن ملاحظة الأمر في أثناء الأكل: إن آثَرَت (العلّيق) على (الرَودَس)، فاكشط أضراسها بالمبرَد.

من خلال شكل الفكّ، والأخاديد على الأسنان، والتجاويف السوداء بدواخلها يُعرَفُ عمرها، بطريقةٍ أُخرى مثلاً يا (أَسْبيد): كلّما كانت

القواطع محدّبةَ إلى الخارج كان عمرها أكبر. وبعد ذلك، تراقب صوت تنفّسها، كما تراقب تنفّس فتاةٍ تضاجعها. وافحص عينها، مرّر يدك على سياج ناظريها سريعاً وترقَّب ردّ فعلها. وبالتصفيق قرب أذنيها تُفحَص قدرتها على السمع. من ثمّ تفتح العين، واسعَ في سبيل بياضٍ بداخلها، ثمّ تنتقل إلى ظهرها، حيث تضغط بإصبعي: السبّابة، والإبهام على عمودها الفقري، وعبر كلتا اليدين تتفحّص أكتافها كأنّك عشيقها، يجب أن تكون الأكتاف رشيقةً، وجميلةً، ومنسابةً كساقَي امرأةٍ تُضاجعها أمام مرآة. هل ضاجعت إحداهنّ أمام مرآةٍ يا (أَسْبيد)؟

التفتَ (نايف) متمعّناً في خطوط نملٍ غير مرئيّة أنهضت الدم على وجه (أسيبد) الفتيّ، ثم أكمَلَ:

– والأوتار بالطريقة ذاتها، وعليك الانتباه يا (أَسْبيد)، فالأوتار أكثر مناطق الإصابات لديها، الوتر السليم يكون مستقيماً ومشدوداً؛ أمّا المتوعّك فمنتفخ ومقوّس. وتتصيّد علل المفاصل بثني أطرافها والضغط عليها، هكذا، راقب جيّداً، ها قد انتهينا الآن، فلقد تأخّرنا عليهم. أخرِجها يا (أَسْبيد).

قال (نايف)، وهو يفرك راحتي يديه بعضها ببعض، ينفخ عليهما ويتفحّص أثر شعر الفرس بسرب النور الوافد من فناء البيت عبر النافذة الوسيعة المفتوحة في صدر جدار الغرفة الطينيّ.

قبضَ (أَسْبيد) على اللّجام بيده الناعمة مثل أثر الضوء في ثياب الراحلين، وسّع بين خطواته فلا تطأ قدماه الروث الطريّ المنساب على أرضيّة الغرفة الترابيّة، وصار يصفّر للفرس كإشارةٍ تدفعها إلى المشي.

– تكلّم معها بالعربيّة يا (أَسْبيد).

قال (نايف)، وهو يضرب ظهر الفرس براحة يده اليمنى الممشّطة النظيفة من أثر بدنها، وعاد مجدّداً إلى النفخ عليها.

قهقه (أَسْبيد) وجرّ الفرس المسرّجة وراءه، عَبَرَ بها الباب الواطئ والتفت إلى (نايف) المنهمك بتفحّص الروث الطريّ، وقد تعلّق بأسفل حذائه، من ثمّ أوقفَ سيرها؛ إذْ حمحمت بالقرب من صاحبها المتربّص في الحوش.

- الفرسُ سليمةٌ يا حاج (عبد الرحمن)، بإمكانك شراؤها وبضميرٍ مرتاح.

قال (نايفَ)، ومن ثمّ أدار رأسه جهة صاحب الفرس الواقف بجانب المشتري المشغول بفرك أسنانه بـ(السِواك)، وأردف:

- لكنْ لا تُحرِج الحاج (عبد الرحمن) بثمنٍ باهظٍ يا أبا علي.

قال (نايف)، وهو محنيّ الظهر يتفحّص بأصابعه لحيته الطويلة خلال المرآة المعلّقة إلى غصن التينة.

لحظات الظهيرة العميقة، حيث تبخّرت الظلال في مِهاد عيون المتحيّنين، وافترَش شعاع الشمس الحامية النظرات على دربٍ ترابيٍّ آمَنَ الغبار عليه بالطاعة، فغفى على آثار خطوات المشّائين. في لحظات الظهيرة تلك، النداءات والأصوات انحسرت إلى صدور الباعة المقتعدين كراسيَ خشبيّةً على عتبات الدكاكين، بعضهم كان يسبّح بسبْحةٍ بين يديه ويتمتم، وبعضهم الآخر يتناول طعاماً جلبه معه من البيت، وآخرون مستسلمون لغفوة شهرت أسراراً في وجوههم المظلّلة بمظلّاتٍ مصنوعةٍ من أغصان الأشجار، موضوعةٍ أعلى أبواب الدكاكين الخارجيّة.

على عتبة دكّان السيّد (كالوش) الخارجيّة، اقتعد (نايف) الأرض بجانب كرسيٍّ ممهورٍ بجسد (أَسْبيد) المنهمك بقضم أظافره وقصّها مستخدماً أسنانه الصغيرة واليافعة. بعد شرودٍ طويلٍ في نقطةٍ معيّنةٍ على الدرب، وبدون أن يدير رأسه صوب بدن (نايف) المتّكئ على صخرةٍ وُضِعَتْ عليها جرّةٌ ملفوفةٌ بقماشةٍ مبلّلةٍ تحفظ برودة الماء داخلها، يشرب منها الزبائن وأحياناً العابرون، وبنبرةٍ ممزوجةٍ مع صوت انكسار الأظافر بين قواطعه قال (أَسْبيد):

– لماذا وافقت على طلب أبي وقرّرت تعليمي فحص الدوابّ للناس قبل بيعها؟ أخبرتُ أبي قبل أيّامٍ ألّا يطلب منك ذلك، خفتُ أن يجرحه رفضك.

بدون تفكير، بنبرةٍ لم تصنعها التفاتة الرأس قطّ، قال (نايف):

– لماذا عليك معرفة السبب يا (أَسْبيد)؟ المهم لك هو التعلّم وحسب يا صاح.

– لماذا عليَّ..؟

قال (أَسْبيد)؛ إذْ أخرج إصبعه من فمه، والتفت إلى (نايف) وقهقه بصوتٍ منخفض.

– أجل، فلديّ نظرةٌ في الناس أيضاً يا صاح، وكذلك أسبابي، ربّما لأنّني لم أشاهدك تبكي قطّ.

قال (نايف)، وهو يعدّل من جلوسه، ويضرب راحتي يديه بعضها ببعض، فتحلّق ذرّات الغبار الخفيفة وتندفع صوب الضوء المنثور في الأنحاء كأنّها كانت مسجونةً داخل ظلامٍ أزليّ.

– وما علاقة البكاء بهذا؟

قال (أَسْبيد) بالالتفاتة ذاتها، وهو يمسح أثر لعابه عن أصابعه بطرف سترته.

- أنا أعرف والدك منذ سنواتٍ عديدةٍ، أتحدّث عن فترةٍ سبقت حتّى ولادتك، المهم.. والدك يا (أَسْبيد) لا يشبه الجميع، هو يعمل لأنّه يحب العمل، لا لجني النقود، كنتُ أراقبه دوماً، أراقب تعامله مع هذه التوابل، يطحنها في الهاون النحاسيّ المطرّز بالزخارف المنقورة، هذا الهاون الجميل، هل فكّرت لماذا اختاره؟ يخلط التوابل فيه بعضها ببعض، يخزّنها في جِرارٍ مسجّلة عليها أسماء التوابل، على الرغم من معرفته بأنّ معظم الزبائن لا يجيدون القراءة والكتابة، يبيع التوابل وحسب، ولا يخلط بيعها بأشياء أُخرى، إن جاء بها وعَرَضها في دكّانه لكسب أموالاً كثيرةً، هو وفيٌّ لعمله، ولا أخفي عليك يا (أَسْبيد)، كنت واثقاً من أنّك ستسألني هذا السؤال، طوال ليلة أمس فكّرت في سبب موافقتي على تعليمك فحص الدوابّ، ولا أعرف حتّى إن كان جوابي هذا وافياً أم لا، إن كان هو ما فكّرت به في نفسي أم لا، لكنْ، هكذا يا صديقي، لا تفكّر كثيراً، أعرفُ جيّداً، حبّ والدك لمهنتي هو ما دفعه إلى أن يطلب منّي تعليمها لابنه، وليس غرض جني المال والدخول في صراعٍ معي ومع لقمة عيشي. أتَعلَم؟ النصيحة الوحيدة التي نصحني بها أبي قبل موته لن أنساها ما حييت، قال في عصر اليوم ذاته الذي لفظ فيه أنفاسه الأخيرة: «لا تكشف نفسك لمتربّصٍ بك، لا تدفعه إلى محاربتك بلقمة عيشك». أجل، هكذا قال، لذلك لا أعلّم أحداً ما علّمني إيّاه أبي، ما أكسب قوتي به.

بعد لحظات صمتٍ، أعاد فيها (أَسْبيد) نظراته صوب نقطةٍ معيّنةٍ في الشارع؛ إذْ أدار رأسه وأخرج (نايف) من مرمى نظراته، كأنّه احتاجَ إلى

مدّةٍ طويلةٍ لفهم كلماته، الجالس بجانب (أَسْبيد) المتكسّر والمحذوف بعضه إثر أشعّةٍ تهبط على جسده، وافدةٍ من تشقّقات الأغصان التي تظلّل واجهة دكّان أبيه، سرعان ما قطع شرود (أَسْبيد) صوت وقْع خطوات والده الممزوجة بصوته يقول؛ إذْ تنهد أمام عتبة الدكّان:

- اذهب وتناول طعام الغداء يا (أَسْبيد)، وعُد بعد ساعتين.

نهض (أَسْبيد) قبل أن يكمل والده كلامه، ونظر إلى (نايف) مبتسماً، فقال:

- تفضّل معي يا (نايف) نتناول الطعام معاً في البيت.

كان (نايف) قد نهض من تُكأته؛ إذْ انزاح ظلُّ (أَسْبيد) عن بدنه.

- شكراً لك يا (أَسْبيد)، لستُ جائعاً.

قال (نايف)، وهو يصافح السيّد (كالوش).

- إذاً، لن أذهب أنا أيضاً يا أبي، لستُ جائعاً، سأبقى معكما.

قال (أَسْبيد)، وولج الدكّان.

جلس والد (أَسْبيد) على كرسيّه، فيما عاد (نايف) يقتعد الركن الممهور ترابه بختم سرواله، واتّكأ على الصخرة الصغيرة، وعدّل موضع الجرّة عليها فلا تسقط عنها.

- هل جرت الأمور على ما يرام يا (نايف)؟

قال السيّد (كالوش)؛ إذْ طلب من ابنه (أَسْبيد) تنظيف الرفوف داخل الدكّان.

- لن يُنفَق الكثير من الوقت في سبيل تعلّمه، فهو شابٌّ ذكيٌّ، وطموحٌ، ومطيعٌ يا سيد (كالوش).

قال (نايف)، وولج في شرودٍ طويلٍ كانت ملاحظته صعبةً على السيّد (كالوش) الذي تركه سارحاً مثل قطيعٍ على السهول المعبّأة بكنوز الربيع. استرسل (نايف) في شروده كأنّه نجا من (أَسْبيد) الشغوف بالنفخ في الأسئلة، كأنّه نال الفوز بالسَكينة إثر عودة السيّد (كالوش) المتكلّم القابض على أطراف خيوط الأحاديث عادةً، كأنّ الكلام جزءٌ من عمليّة بيع وخلط وطحن التوابل. بقي الشرود على حاله إلى أن قُطِع بسكّينٍ مجلّخةٍ خفيّةٍ خرجت مع كلمات السيّد (كالوش) الذي نهضَ وانحنى على بدن (نايف) وقرَّبَ فمه من موطن أذنيه:

– لم أخطّط أن أصطحب معي (أَسْبيد) إلى السوق، وأعلّمه شؤون العطارة وهو في هذه السنّ، قلبي يرتجف لحاله هنا في السوق، فأنا أخاف عليه حتّى من حسك الأسماك لحظة تناولها، لطالما رسمتُ له مستقبلاً آخر، كنّا، أمّه وأنا؛ قد اتّفقنا على أن يكمل تعليمه، ومن ثمّ نرسله إلى دولةٍ أوروبيّةٍ ليعود محامياً، لكنّ الرب قدّر لنا عكس ذلك، موت شقيقه (ليفون) هزّ كياني كما تعلم، فقد كان سَنَدي وبِكري.

ظنَّ (نايف) طوال المدّة الماضية أنّ السيّد (كالوش) قد استسلم لنسيان ابنه (ليفون)، بعد مرور عامٍ وبضعة أشهر على غَرقه، فقد كان مواظباً على العمل ومتحدّثاً لا تظهر عليه علامات الحزن والتوجّس بالفقد، لذلك تعجّب وانفتحت جفونه عن آخرها واستدرجته ذاكرته صوب تفاصيل حادثة الغرق تلك، آنَ سمع همس السيّد (كالوش) المعبّأ بالأسى. لم يسبق أن استفسر أحدهم من (نايف) عن هجره لفكرة السباحة في الجداول والبرك العميقة التي صنعتها الينابيع المتقدة والوفيرة حول مدينة (رأس العين) وبداخلها. بدوره، (نايف)، لم يسبق أن أفشى لأحدهم

سرّ هَلَعه المفاجئ من السباحة، لم يتحدّث عن الأحلام التي كانت ولا تزال تراوده بين الفينة والأُخرى، وحيداً داخل براثن ليلٍ عميقٍ وداكنٍ يُرمى من مُرتَفَعٍ لا مرئيّ في بركةٍ عميقةٍ، تقبض جذور نبات (النيلوفر) على ساقه، من ثمّ تلتفّ مثل أفعى عظيمة حول كامل جسده وتسحبه نحو القاع غير النهائيّ، تتسارع دقّات قلبه ويُقرَع صدره مثل طبلة الفرمانات، يفتح فمه ويبتلع الماء البارد، ثمّ يستيقظ، وقد تبلّل القطن بداخل فراشه من شدّة العرق. كان الحلم ذاك غير نهائيٍّ، يتكرّر بالتفاصيل ذاتها كأنّه إشارةٌ تقرأ له طالعه وطريقة موته، أنفق (نايف) كامل السُبل لدحر الحلم هذا، حتّى إنّه رمى بنفسه على عباءة الصوفيّ (عبدي) وأخذ يقبّلها؛ إذْ زاره ذات يومٍ ببيته في مدينة (القامشلي) كي يجد له سبيلاً ينجيه؛ إذْ سمع من أحدهم بأنّه من مريدي أحد شيوخ النقشبنديّة الكُرد في جنوب شرق تركيا. هشَّ الصوفيّ (عبدي) على جسده بعكّازه، وحجز رقبته داخل تكويرها، وسحبه نحو بَدَنهِ المقتعد حصيرة القشّ، وقبض على يده اليمنى وقال له بصوتٍ جهوري: «يجب أن تتوب الآن، كرّر ورائي ما سأقوله لك». لم يفكّر (نايف) لحظةً واحدةً بكلام العجوز الصوفيّ، ولم ينتَبْهُ الخوف داخل الغرفة المظلمة، ظنّ لحظتها بأنّه ما من شيءٍ في الدنيا يبعث على الخوف سوى هذا الحلم، لذلك استسلم للعجوز ودفع بجسده صوب جسده تحت نور فانوسٍ يرتجف فتيله كشفاه المتمتمين داخل الظلام التام، وحرّك رأسه في إشارة الطاعة، وبَعَثَ أذنيه في سبيل كلام الصوفيّ يقول: «إن شاء الله سأصلّي كامل الفروض». كرّر (نايف) بنبرةٍ صاخبةٍ كأنّه يهشّ بصوته على وحش الحلم في قرارة نفسه ويُرْديه. كرّرَ كلام الصوفيّ ثلاثَ مرّاتٍ، من ثمّ صرخ من قاع صدره؛ إذْ نال لكمةً شديدةً من قبضة الصوفيّ

على ظهره، ظنّ (نايف) لحظتها أنّ ذلك الوحش الخفيّ قد غادر جسده إثر ذلك الصراخ، فتلمَّس الطمأنينة، وآمن بأنّ المريد طبيبٌ روحيٌّ كما أشيع عنه. صوفيٌّ وهب الطمأنينة للكثير من أطفال مدينة (القامشلي)؛ إذْ كان يسير في شوارعها ويرمي عكّازه صوب الأطفال، يتصيّد بتكويرها رقابهم، من ثمّ يدفعهم إلى التوبة ونطق الوعد بالصلاة. إلّا أنّه سرعان ما عاد إلى إيمانه السابق بعدم الجدوى من هذه الأشياء، في الليلة ذاتها التي عاد فيها من مدينة (القامشلي) إلى بيته، تمدّد في فراشه واستسلم للنوم، ومن ثمّ لجذور نباتات (النيلوفر) تقبض على ساقه وتلتفّ حول جسده مثل سؤالِ يتيمٍ عن عمل والديه، وتسحبه نحو قاع البحيرة حول نبع (بانوص) حيث لفظ (ليفون) أنفاسه الأخيرة تحت مائها الزلال البارد. لم يغادر (نايف) الريبة من الينابيع لأشهر عديدة، تجنّب المرور بها كمَن يتجنّب الالتفات إلى باب بيت امرأةٍ هجرتهُ، حتّى إنّ الماء في السواقي المنتشرة في شوارع (رأس العين) كانت تسحبه نحو ذاكرته وتدير ذهنه صوب حادثة الغرق تلك، فكانت تلتمع كأنّها خنجرٌ مصنوعٌ من الفضّة، مغروسٌ في ركنٍ سريٍّ بداخله، لذلك هَجَرَ فكرة الذهاب إلى رأس النبع لجلب ماء الشرب، واضطرّ إلى الاتّفاق مع أحد الشبّان الذين يعملون لجلبه من العيون إلى الناس بالمدينة مقابل شيءٍ ما، بيضة على سبيل المثال. لم يذهب (نايف) إلى الينابيع منذ غرق (ليفون)، وكأنّ يداً خفيّةً لكمته وغيّرت موضع الموجودات في مرمى ناظريه. كلّ ما كان يدفعه إلى الذهاب حيث عيون الماء صار بمنزلة ذئبٍ يتحيّن حتّى نيّته، صارت النيّة إحدى أدوات صناعة القلق في ذهنه، هجر التفاصيل المرتبطة بالينابيع كافّةً، هجر عادة قراءة كتاب الشاعر الكردي (ملايي جزيري) مقتعداً صخرةً هناك، ومن حوله

النساء والفتيات يخلقن مهرجان الغسيل الجماعي: غسل أثاث البيوت، والسجّادات، واللّحف، والثياب، والصوف. أخذته طقوس سيرة الصوف التي كانت تبدأ من جزّها إلى وضعها داخل الفرش والمخدّات في البيوت، حتّى إنّه نظَم قصيدةً عن سيرة الصوف على نحو قصائد (ملايي جزيري) بمفردات ثلاث لغات داخل البيت الشعري الواحد. أخذه مشهد قدوم أغنام عرب قبيلة (العدوان) صيفاً إلى بيادر (رأس العين)، راقبها، حليقة تتنقّل وتلوك ظلالها الغامقة لتعود بداية الشتاء إلى صحراء الجزيرة السوريّة، تاركةً أصوافها المجزوزة حديثاً تنتقل بيعاً من أيادي البدو معبّأةً بأكياس «الشوال» و«الشلول» إلى أيادي نساء السريان، والكُرد، والعرب، والأرمن، والشيشان، والآشوريّين، والشركس في مدينة (رأس العين). على صخورٍ بجانب الينابيع يُفرَدُ بأصابع النساء، تُزال عنه الأشواك، والأعشاب، والقشّ، وروث الماشية، من ثمَّ ينقعنه بالماء، يفركنه بالأيادي الموشومة المكتظّة بمحابسَ، وخواتمَ، وأساور الذهب والفضّة، يخرجنه ويعاودن وضعه داخل الماء مرّاتٍ عديدة، يحملنه إلى صخورٍ نقيّةٍ مثل عيون التائهين المستسلمين، يفردنه، ويضربنه بخشبةٍ طويلةٍ متينةٍ، قبضتها موازيةٌ لحجم راحة يدٍ مغلقةٍ، ويتوسّع عرضها مثل مجذافٍ صغيرٍ، أطلقوا عليه اسم: «الخابوط». من ثمّ يعاودن نقعه داخل الماء، يفركنه لينشرنه على الصخور، ويستودعنه العشّ الكبير المغزول من خيوط أشعّة الشمس الصيفيّة المتينة. يتقاذفن القهقهات والأغاني فيما بينهنّ إلى أن يهشّ الغروب على الموجودات، ظلالهنّ الطويلة تستدرج أجسادهنّ المنحنية تحت أكياس الصوف صوب البيوت المبنيّة من الحجارة والإسمنت المسلّح بالطمأنينة. يستسلمن للنوم ويعاودن ظهيرة اليوم التالي يفرشن

الصوف المغسول على أرض أفنية البيوت، يضربنه بعصيّ الخيزران الرفيعة مثل حواجب العرائس إلى أن توازي خفّته خفّة الزفير الوافدة من صدورهنّ المسالمة. نظَم (نايف) تلك السيرة برمّتها وألقاها في مجلس (الملا أمين)، هجر كامل تلك التفاصيل كي ينجو بنفسه من مخالب حلم الغرق هذا المصوّب على نومه. لم يسبق له أن نال الخوف منه على هذا النحو، لم تحرّكه قصص القتل الكثيرة على الينابيع في مدينة (رأس العين)، لم يسبق له أن شاهد في الحلم رجُلاً شيشانيّاً يُقتَل على ينبوعٍ، من ثمّ تُسرق ثيابه الموسومة بإكسسوارات الفضّة، لم يسبق أن فكّر عميقاً بحادثة موتٍ كما يفكّر بغرق (ليفون) صديقه المُقرّب الذي يُعاد مجدّداً الآن إلى ذهنه إثر همس السيّد (كالوش)، وقد انحنى على بدنه وقال له: «لم أخطّط أن أصطحب معي (أَسْبيد) إلى السوق وأعلّمه شؤون العطارة، وهو في هذه السنّ، قلبي يرتجف لحاله هنا في السوق، فأنا أخاف عليه حتّى من حسك الأسماك لحظة تناولها، لطالما رسمتُ له مستقبلاً آخرَ، كنّا، أمّه وأنا؛ قد اتّفقنا على أن يكمل تعليمه، ومن ثمّ نرسله إلى دولةٍ أوروبيّةٍ ليعود محامياً، لكنّ الربّ قدّر لنا عكس ذلك، غرقُ شقيقه (ليفون) هزّ كياني كما تعلم، فقد كان سندي وبِكري.. هيّا ندخل ونجلس بالداخل يا (نايف)، عندي ما أقوله لك».

عاد (نايف) مثل مسافرٍ عجوزٍ من شروده، انفضَّ الهدوء في ظلّه إذْ نهضَ، أمسك المغرفة وأخرج بها ماءً من الفخّارة على الصخرة بجانب عتبة الدكّان، بَسَطَ شفتيه، رشفَ بعضه ورَشَّ بعضه الآخر على وجهه.

رتّبوا الكراسي المصنوعة من قصب الزلّ على هيئة مثلّثٍ وسط الدكّان، اقتعدها الثلاثة. اختار السيّد (كالوش) الركن الذي يتيح له رؤية

الزبائن وتحيّن دخولهم المتوقّع. بعد لحظاتٍ أنفقها السيّد (كالوش) في سبيل تفحّص حركة الأقدام على الشارع خارج الدكّان عبر أذنيه المنتصبتين مثل أذني هرّةٍ تدثّر بدنها بهريراتها المبلّلات بدم ولادتها، وبعد أن بلع ريقه مراراً كأنّه يطرد التردّد من ذهنه، قرّب شُباك فمه من شباك أذن (نايف) وهمس:

- لقد أمّموا شركة أصفر ونجّار، واستولوا على كامل ممتلكاتهم.

من ثمّ أعاد رأسه إلى ركنه بين كتفيه، وعاود تأمّل الشارع متفحّصاً الجلبة عليه؛ إذْ غَرَف عينيه فيه، سارحاً في خطاب الشمس التي هدأ سجورها فتمدّدت الظلال في مجلسها شيئاً فشيئاً واستراحت على الموجودات كأفراسٍ تغفو مطمئنة.

- مَا هي شركة أصفر ونجار؟

بعينين جاحظتين سأل (أَسْبيد)؛ إذْ قرّب بدوره رأسه أيضاً لتفحّص ما يهمس به والده بالقرب من أذني (نايف)، وصار يوزّع نظراته بينهما مترقّباً الجواب عن سؤاله المندفع صوب بدن السيّد (كالوش) النحيل والقصير.

- كان كلّ شيءٍ واضحاً منذ بداية انقلاب البعث في البلد يا سيّد (كالوش)، تحدّثنا عن هذا الحزب في مجلس (الملّا أمين) قبل نحو شهر، لم يفاجئني الخبر، فالأحزاب كافّةً لصوص، ثمّ إنّك ماذا تنتظر من الاشتراكيّين البعثيّين؟ عُد إلى الأصل، سترى أنّ الاشتراكيّة هي بالأصل تشريعٌ للّصوصيّة.

قال (نايف) بنبرةٍ هادئةٍ خفيفةٍ بدون أن ينفق الطمأنينة داخل صوته، بدون أن يرفع رأسه، بدون أن يزيح نظراته المنصبّة على راحتي يديه مواظباً على فركهما بعضهما ببعض كأنّه فحص دابّةً لتوّه.

– وما هو البعث؟

قال (أَسْبيد) المنهمك بتوزيع نظراته بين والده و(نايف)، متحيّناَ جواب سؤاله عن (شركة أصفر ونجار). سرعان ما نال لكمةً من يد السيّد (كالوش) على صابونة ركبته الناتئة تحت الجلد في مقدّمة الكرسيّ الواطئ.

– أخفض صوتك يا بُني، إن لم تتكلّم بهدوء أرسلتك إلى البيت، أوِ، هيّا هيّا انهض واغلِ بعض الماء، سنشرب الملّيسة.

همسَ السيّد (كالوش) بالقرب من رأس (أَسْبيد)، فيما لم تزل يده على ركبته كأنّه يكمّم حنجرته المنتصبة المسجورة لمعرفة ما يجري، كأنّه كمّمَ صوته عبر صابونة ركبته.

نهض (أَسْبيد)؛ إذْ نفخَ طويلاً واتّجه إلى الغرفة الصغيرة في مؤخّرة الدكّان.

تنهّد السيّد (كالوش) من بقايا زفرة (أَسْبيد) الطويلة، وتمتم بالقرب من ياقة قمصيه الأزرق السماويّ النظيف:

– وكأنّ قدر المسيحيّ في هذه البلاد أن يبقى في كنف الفَقد الأبديّ، مرّة على يد العثمانيّين بحجّة الدين، والآن على يد العروبيّين البعثيّين بحجّة الاشتراكيّة، يا إله السموات، أسألك الرحمة بحالنا!

– اهدأ يا سيّد (كالوش)! أرى أن نؤجّل الحديث حتّى يهدأ السوق، لا عليك، فأنا أيضاً مثل (أَسْبيد) تتملّكني رغبة معرفة ما يدور بخاطرك واستكشاف جعبتك، اهدأ الآن وحسب، سنتسامر في بيتي إن رغبت.

مطبطباً على ركبته النحيلة البارزة همس (نايف) بالقرب من رأس السيّد (كالوش) المستمرّ في إنفاق شهقته كأنّه ادّخرها لكلامٍ غير متناهٍ.

- لا عليك يا (نايف)، لا حَرَج، فالسوق هادئٌ، وما من زبائن كما ترى، لكن، حقيقةً، ليس بمقدوري القبض على السَكينة، فمُذ سمعت الخبر من القَسّ (أباي) و(جرجس ميناس) العطّار السريانيّ، تعرفه بالتأكيد، وحالي حال دجاجةٍ فُصِل رأسها عن بدنها، كيف لهم فعل ذلك، هذا نَهبٌ، بالله عليك، ما الفرق الآن بين الاشتراكيّة واللصوصيّة؟ هكذا بكلّ بساطةٍ يستحوذون على أراضي الناس، ومعاملهم، ومصانعهم، وبنوكهم؟ وشركة أصفر ونجّار، أصفر ونجّار يا رجُل، هذه العائلة التي فعلت ما لم يفعله أحد على هذه الأرض منذ أيّام سيّدنا آدم، كيف ذلك.. لا أعلم؟

أُنفِقَ الشهيق عبر صوت السيّد (كالوش) الممزوج مع صوت بابور زيت الكاز الوافد من الغرفة الصغيرة بنهاية الدكّان، وكأنّه طلب شراب الملّيسة كي يكون صوت البابور خلفيّة صوته، فلا يسمع المتلصّصون كلامه.

نظر (نايف) إلى (أَسْبيد) المنهمك باستخراج صوت والده من بين صوت البابور كما ينقّي حبّات العدس من الحصى الصغيرة في صحنٍ على ركبته النحيلة عادةً. واقفاً أمام باب الغرفة الصغيرة في مؤخّرة الدكّان يُفرّق نظراته على (نايف) ووالده، كأنّه يطالبهما بدَينٍ له في حوزتهما. أكمل السيّد (كالوش) بعد أن شهق مجدّداً من أثر الهواء في كلامه قبل لحظات، فيما عيناه مصوّبتان على باب الدكّان تتحيّنان زبوناً يمزّق قماشة حديثه، نزع عن رأسه طربوشه القرمزيّ، وأطبق تجويفه على ركبته النحيلة البارزة:

- لا، لن يهدأ الناس يا (نايف)، يا رجُل، هل تعرف كلّ شيء عن عائلة (أصفر ونجّار)؟ هل تعرف ماذا صنعت؟

قال السيّد (كالوش) همساً؛ إذْ انطفأ البابور وعاد (أَسْبيد) مع كؤوس ثلاث رفقة الإبريق المعبّأ ماءً مغليّاً ممزوجاً بأوراق وزهور الملّيسة، وضعها على طاولةٍ خشبيّةٍ صغيرةٍ وسط مثلّث قعودهم. فيما صبَّ (أَسْبيد) النقيع ذا الرائحة الزكيّة في الكؤوس، لم يرسل سؤالاً جديداً صوب والده و(نايف) خوفاً من أن يُطرَد هذه المرّة إلى البيت، وآثرَ الجلوس والاستماع اعتباطيّاً بدون أسئلةٍ على الطرد وفقدان متعة الجلسة.

نفخ الثلاثة في الكؤوس بين أياديهم، وتناثر البخار وفُقِئت خيالات وجوههم المنعكسة خلال النقيع ذي اللّون العسلي الفاتح.

- أعرف عنها ما يعرفه الجميع يا سيّد (كالوش): هي عائلةٌ سريانيّةٌ ثريّةٌ هربت من (ديار بكر) عندما نفّذ الجيش العثمانيّ مجازرَ ومذابحَ بحقّ السريان، والأرمن، والإيزيديّين، وقتلت منهم مئات الآلاف، واستقرّت في مدينة (القامشلي)، ومن ثمّ جاؤوا إلى مدينة (رأس العين)، وفتحوا مشاريع كبيرة، وهكذا.

ماسحاً براحة يده اليمنى على لحيته كأنّه مالَ من الشرود إلى اليقين، قال (نايف) ردّاً على سؤال أخّر قدوم (أَسْبيد) مع الكؤوس والإبريق الإجابة عنه.

رشف السيّد (كالوش) طويلاً من الكأس، ارتفعت وهبطت مراراً حنجرته الناتئة من رقبته النحيفة، وتأمّل كأنّه يفرز المآسي في ذاكرته ويستجمع مفردات اللّغة العربيّة كي يكمل الحديث بها:

- أجل، فبعد استقرارهم بمدينة (القامشلي) مع أموالهم الطائلة التي هرّبوها من الأتراك، وشرائهم الأراضي لزراعة الأرزّ، لجأوا إلى مدينة (رأس العين)؛ إذْ غيّر الأتراك مجرى نهر (جغجغ) وسيطر الجفاف على

الأراضي هناك. هنا حيث عيون الماء الكثيرة، ونهر (الخابور)، أتاحت لهم إمكانيّة العمل في زراعة الأرزّ، تخيّل واحصِ معي أفعال هذه العائلة.

قال السيّد (كالوش)، وهو يصبّ المزيد من نقيع الملّيسة في كأسه، فيما هيّأ (أَسْبيد) أصابعه كأنّه يجهّز نفسه لعدّ أفعال عائلة (أصفر ونجّار).

انهمك السيّد (كالوش) بالحديث عن (شركة أصفر ونجّار) التي استولى عليها حزب البعث العربي الاشتراكيّ، بينما غاب (نايف) في سردابٍ عميقٍ وطويلٍ داخل ذهنه؛ إذْ خفقت قماشةٌ معلّقةٌ إلى مسمارٍ قرب باب الدكّان. لم تستولِ عليه كلمات السيّد (كالوش)، كأنّه محصّنٌ بوحدته، كأنّه يعرف كلّ شيء، كأنّه يسمع احتراماً له وليس لاهتمامه بما حدث وبما يحدث، تتالت الكلمات والجُمل، وقُطِعت أحياناً إثر دخول الزبائن إلى الدكّان، ومن ثمّ عادت الجُمل واسترسلت مجدّداً على لسان السيّد (كالوش) إلى أن مَهَرَ الغروبُ الموجودات بختمه البرتقاليّ، وأوشكت الشمس أن تفنى في حدقات العيون. صامتاً هادئاً نهض (نايف) واستأذن للذهاب إلى البيت وطوى الدروب القصيرة الترابيّة بخطواته؛ إذْ مهرها بباطن قدميه الشاردتين اللّتين تحملان ذهنه الثقيل مثل فرسٍ تعود بجريحٍ إلى موطنه. تماماً، في الزاوية التي تفصل دكّان السمّان (بدران) عن صيدليّة (سربوهي) تلك التي ينتهي السوق بها ليبدأ الزقاق المفضي إلى الأحياء السكنيّة غربه. تناهى إلى أذنيه وقع عصا تُنقَر على جدار الطوب والإسمنت، التفتَ فصبَت نظراته إلى بدن (عَبود)، اقترب منه وأدّى له التحيّة، من ثمّ سأله عن الوقت. رفعَ (عَبود) الثلاثينيّ رأسه، فتأرجح شعره الطويل المسبل على كتفيه مثل ثوبٍ على حبل غسيل، وحفَّ أسفل لحيته بياقة ثوبه وقال:

- الساعة الآن السادسة وخمس وعشرون دقيقة.

لم يرفع (نايف) ذراعه ليتأكّد من الوقت عبر الساعة في معصمه، التي وهبهُ إيّاها والده قبل موته بثلاثة أسابيع آنَ حدّثه عن نَسَب أجداده (الديرسميّين). أخرج قطعة نقدٍ ورقيّةً من جيبه وحجرها في يد (عَبود) وأغلق أصابعه عليها، ابتسم وقال له:

- هل تجيد معرفة واستكشاف المستقبل أيضاً يا (عَبود)؟

وتركه مغموراً بقهقهةٍ مديدةٍ، ومضى والجاً الزقاق المفضي إلى سلسلة البيوت المتلاصقة بعضها ببعضٍ مثل أبدان السجناء. على غير عادته، لم يتوجّس بوقع خطواته على الأرض لحظة المشي، استدرجه الشرود بذلك السحر المريب الذي يدفع بشابٍّ (مكفوف) إلى معرفة الوقت بدقّةٍ لا نظير لها، كأنّه يخبّئ ساعةً سحريّةً في عينيه الفارغتين من الضوء، ما من تفسير! طوال الطريق أخذه الشرود، وهشّ بعصاه الخفيّة على بدنه وساقه كدابّةٍ بين الأزقّة، سارحاً بـ(عَبود) وشقيقه (سالم): الأوّل يعرف التوقيت بدقّة، والثاني ما إن وُضِعَت قدماه على دربٍ عرف عدد الأمتار التي تفصله عن الهدف، أيّ هدف، لا يهمّ، حتّى هدف جديد. اختبره سكّان (رأس العين) مرّات لا تُحصى؛ أمسكوا بيده وساروا بجانبه، وما أن حدّدوا له وجهتهم، قال لهم على وجه السرعة عدد الأمتار التي تفصلهم عن هدفهم. لم يكن أحدٌ من سكّان المدينة على معرفةٍ بطاقة الشقيقين المكفوفين السحريّة، إلى أن رحلَ والداهما صوب عالم الموت؛ إذْ تكهّفت الأرض تحتهما، ووقعا في حفرةٍ عميقةٍ لحظة العمل مع مهندسٍ جيولوجيٍّ قدِم من ألمانيا الشرقيّة بطلب الحكومة السوريّة للبحث في المدينة، مات الأبوان واستودعاهما شقيقتهما الكبيرة البصيرة التي آثرت البقاء إلى جانبهما على الزواج،

وهبت الشقيقة زمنها لهما، يعيشون على هِبات الناس. حتّى إنّ (نايف) سأله عن وقتٍ، لا ليختبره، إنّما ليعطيه قطعة نقدٍ لا يريد إعطاءها له من دون ذلك السؤال. هكذا ينتاب (عَبود) شعورٌ آخر، شعور العامل الذي يستطلع للناس الوقت في سبيل لقمة عيشه، هو وشقيقه يجوبان الشوارع من الصباح إلى المساء للعمل، لا أحد يعطيهم مالاً من دون سؤالهما عن الوقت والمسافة، فيعيشان كعاملين لا كمتسوّلين، هذا عُرفٌ غير مدوّنٍ ساد بين الناس.

تعرّى (نايف) في فناء بيته وصبّ على جسده دلواً من ماء البئر البارد. انحنى، شَعَرَ بوجهه عبر مرآةٍ معلّقةٍ إلى غصن التينة، لمحَ أثر الزمن الذي خطف الضوء من عينيه كثعلبٍ يغادر كوخ الدجاج، ودخل ركن نومه، تمدّد في فراشه الممتلئ بقطن سهول الجزيرة، وأخذ يتتبّع ماضيه كأنّه يبحث فيه عن حدثٍ ينجيه من حاضره. عاد مجدّداً يسترجع صورة موت والده، الصورة القديمة الحديثة المرافقة له مثل ربيبٍ وفيٍّ طوال الوقت، يلجأ إلى ذاكرته فلا يضطرّ إلى كشف خبايا نفسه للآخرين بأحاديث هنا وهناك، يؤمن بالذاكرة كأنّها صديقه الوحيد، حتّى إنّه قال للسيّد (كالوش) ذات يوم:

- الصفة الحسنة والعظمى لذاكرة المرء أنّها لا تفشي الأسرار مثل البشر.

لم يسأل أحداً سوى (الملّا أمين)، لم يسأل أمّه: أين تقع مدينة (نصيبين). مثلما غرس ريبةً في قاع نفسه عندما أطلق هذا السؤال المحيّر الذي لن ينساه، وقتها، جاوبه والده: «أجدادك من منطقة (ديرسم) وراء هذه الحدود، يا بُني». إذْ استودعه هو وأمّه الأمان المنصوب أمامهما مثل

فخٍّ في بيتٍ اشتراه من العجوز الأرمني (آروش)، دلّه عليه صديقه (الملّا أمين) في (رأس العين). قال كي يهدّئ خفقات جناحي الطير التي في قلبه: «لا تنسَ أرض ولادتك، لا تنسَ مَن ماتوا في سبيلها يا بني!». وحاول عبور الحدود الفتيّة بين سوريا وتركيا كي يعود مجدّداً؛ إذْ تحيّن ركناً لا تطاله رقابة الجنود الفرنسيّين على طوله، لكنّه أخفق فاستقرّ في مدينة (رأس العين).

ما كان ليعرف شيئاً عن كلّ ما حدث بعد ذلك، لولا أنّ والده أخبره في ليلةٍ ماطرةٍ ببيتهم في (رأس العين):

- لقد انكسر الكرد، الجيش الإيرانيّ أعدم (القاضي محمد) في (مهاباد)، لقد سقطت جمهوريّة (مهاباد) الكرديّة، ليتني ذهبت إلى هناك.

فكّر ليلتها وسأل نفسه:

- هل يدفع المطر المرء إلى الولوج في ذاكرته؟

بعد سنوات؛ إذْ هدأت مناقير البكاء في عيني والده، سأله:

- مَن هو القاضي محمد يا أبي؟ وأين تقع (مهاباد)؟

عاد إلى كلمات والده؛ إذْ ودّع أنفاسه الأخيرة بعد سنوات: «لا تنسَ أرض ولادتك، لا تنسَ مَن ماتوا في سبيلها». سريعاً عاد، كأنّه تأخّر عن شيءٍ ما، تعلّم القراءة والكتابة، وهجر الأبجديّة الكرديّة القديمة؛ إذْ علّمه (الملّا أمين) القراءة والكتابة بالأحرف الكرديّة اللاتينيّة التي كتب بها ووضع قواعدها في مدينة (دمشق) الأمير (جلادت بَدرخان) سليل (البَدرخانيّين) المنفيّين من تركيا القديمة / الحديثة، مع السياسيّ الإنجليزيّ (ميجر نوئيل)، وصار يتوسّد كتاب أشعار (ملايي جزيري) عوضاً عن مخدّةٍ معبّأةٍ بقطن حقول الجزيرة السوريّة. قبض على كلمات

والده؛ إذْ ذهب إلى قبره القريب من (تل حلف) في (رأس العين). وتمتم لأثر جسده الممزوج مع ترابٍ حقيقيٍّ وحيٍّ، تمتم ما لم يكن في مقدوره تمتمته قرب أذنيه قبل أن يسدّ الموت سبيل صوته إليهما. لذلك، لم يسأل أمّه: أين تقع مدينة (نصيبين)، كان وقتها قد هجر الأسئلة، وآمن بلا جدوى الأجوبة، تأمّل في الحدود ذاتها مجدّداً، تلك التي عبروها إذْ فرّوا من جنود أتاتورك في (ديرسم) إلى (رأس العين)، تأمّل الحدود مجدّداً؛ إذْ عبرتها أمّه رفقة ذويها الذين جاؤوا لأخذها ليزوّجوها برجُلٍ في مدينة (نصيبين) التركيّة بعد موت والده، لم يحضّر جواباً لسؤال أمّه الذي لم يُسأله. أحايين كثيرة، كان يعيد ترتيب حوارٍ لم يجرِ بينه وبين أمّه بعد رحيلها، حوار تمرّن عليه واتّخذه عوناً له يستقيم عبره ويهشّ به على ذئاب لا مرئيّة تهبُّ في قاع نومه:

- هل ستأتي معي يا بُني؟ هل ستعيش معي في بيت زوجي بمدينة نصيبين؟

- نعم يا أمّي.

كان يعيد هذا الحوار الذي صنعه كيلا يكره أمّه، الحوار الذي لم يولد قطّ، فكلاهما استسلم للقواعد التي تحكم المرأة، أنفق سنواتٍ عديدةً في سبيل الاحتفاظ بصورة أمّه الجميلة في قاع قلبه، كان يتحارب مع حوارٍ آخر لم يجرِ أيضاً، لم يولد:

- خُذيني معكِ يا أمّي، لا أريد العيش وحيداً في (رأس العين)، خُذيني معكِ إلى بيت زوجك.

- لا أستطيع يا بني، فالرجال لا يتقبّلون أطفال الأرامل والمطلّقات، هم يريدون الأرملة وحسب، ودخول أولادها بيوتهم بمنزلة عارٍ لهم.

على دفَّتي حوارين مفترضين متناقضين بينه وبين أمّه، تقلّب ليالِيَ بأكملها في فراشه، هجر الأسئلة، فكّر لحظاتٍ طويلةً بالزواج من أرامل ومطلّقات ليكون عوناً لأطفالهنّ، هل كان على عتبة انتفاضةٍ نفسيّةٍ؟ على هذا النحو يتعامل مع فكرة الصداقة، يستمع ولا يتحدّث، هكذا أنفق سنواتٍ عديدةً عاشها وحيداً بعد زواج أمّه برجُلٍ كرديٍّ يعيش في مدينة (نصيبين) وراء الحدود السوريّة / التركيّة. تتداخل خطوط الذاكرة في ذهنه، كما يحدث طوال الوقت، ينهض يرتدي ثيابه، من ثمّ يحمل كتاب أشعار (ملايي جزيري)، ويقتعد دكّة باب غرفة نومه ليقرأ فيه حتّى يفقد قدرة تمييز الخيط الأبيض من الخيط الأسْود، من ثمّ يتهيّأ للنوم كي يستيقظ لحظات الفجر الأولى ويذهب إلى العمل في سوقِ الدواب. يجلس هناك بين الباعة والدلّالين، يشرب الشاي في فناءٍ صغيرٍ تظلّله أغصان أشجارٍ موضوعة بجانب بعضها، شبيهة بالمظلّات التي تعلو واجهات الدكاكين في سوق المدينة، ينتظر أحدهم الذي طلب منه فحص دابّةٍ قبل شرائها. لا يفحص (نايف) الأحصنة، والأبقار، والجِمال في السوق، خبرته الكبيرة في معرفة الدوابّ وثقة الناس برأيه الدقيق تنجيه من التنمّرِ عليه، لا سيّما أنّ فكرة اصطحاب الدوابّ إلى بيته لفحصها داخل غرفةٍ خصّصها لهذا الغرض، تأخذ وقت أناسٍ يأتون إلى السوق من القرى المجاورة وينبغي لهم العودة قبل هطول اللّيل من السماء السابعة، إلّا أنّه متمرّنٌ على فكرة دحْر الوقت. يجمع السائلين ويأتي بهم دفعةً واحدةً مع دوابّهم إلى البيت، يدخلها دابّةً تلو الأُخرى إلى غرفةٍ عمَرها والده بفناء البيت من اللّبنات والطين لتكون مخصّصةً للفحص، يفحصها ليخرج بالنتيجة الدقيقة يتلوها على البائع والمشتري، من ثمّ يقبض ثمن عِلمٍ ورّثه إيّاه أبوه كما تُورَثُ

الأسماء والمخافة. لا يقبض على النوم مجدّداً بعد قراءة أشعار (ملايي جزيري)، يتقلّب في فراشه طويلاً مثل قطرة زيت زيتونٍ على صاجٍ مسجور. بدأ يهرب من حاضره مجدّداً كأنّه يفرُّ من ربيبه غير المرئي الذي يقاسمه جسده، لم يحظَ بالفوز، ذات يوم، انتابته رغبة التحوّل، فنالَ الطمأنينة؛ إذّ قرّر السفر للحصول على موطئ قدمٍ له يوازي ذلك الموطئ الذي يهجس به طوال الوقت. عبرَ سرّاً الحدود بين سوريا وتركيا رفقة مهرّب حفظ خباياها، لم يعلمْ أحدٌ بذلك، حتّى إنّه عندما عاد إلى (رأس العين) بعد نحو عشرة أشهر بحث فيها في مدن عديدة، مثل: (إزمير)، و(إسطنبول)، وبلدة يونانيّة لم يحفظ اسمها. في فناء بيته، ليلة وصوله إلى (رأس العين)، سأل نفسه: «عمّ أبحث، عمّن أبحث؟». لم يحظَ بأجوبةٍ قَطّ، عاش شبابه على هذا النحو، يسأل بغرض السؤال وحسب، حتّى إنّه فقد الإيمان وشكّك بوجود الأجوبة بالأساس، على الأقل، هكذا قال للسيّد (كالوش) ذات يوم: «لقد فقدت الإيمان بالأجوبة يا سيّد (كالوش)»، وفكّرَ لحظتها إذا ما كانت كلماته بمنزلة جواب لسؤال السيّد (كالوش) أم لا، فكّر كيف ينبغي له الردّ على سؤاله:

- أين كنتَ طوال هذه الفترة يا (نايف)؟

- كنتُ أعملُ في حفر الآبار بمدينتَي: القامشلي، وعامودا.

اعتقد أنّ ردّه هذا لا يدخل في سياق الأجوبة، لم يفكّر فيما لو اقتنع السيّد (كالوش) بجوابه أم لا، عاد كلّ شيءٍ كما لو أنّه لم يحدث بالأساس. دار الحوار هكذا بين (نايف) الكتوم الذي يتّخذ من ذاكرته صديقاً لا يؤمن بسواه، وبين السيّد (كالوش) المنهمك بقراءة أيّ شيءٍ يقع بين يديه، حتّى لو كانت قائمة ديونه التي بحوزة الزبائن والمسجّلة على دفترٍ صغيرٍ

موضوعٍ داخل درْجٍ خشبيٍّ أسفل الطاولة الموضوعة في صدر دكّانه بسوق (رأس العين). يعيد قراءة قائمة الديون ليقرأ وحسب. هكذا دار الحوار الذي لم يغيّر شيئاً في سريرة (نايف) المنهمك بالبحث. فكّر عميقاً بالحجّة التي يسوّغ بها سؤال أحدهم له عن كيفيّة تعلّمه كرة القدم، كان عليه بناء فريق يمارس به تلك اللّعبة التي أحبّها؛ إذْ سقطت عيناه عليها في ساحات (إزمير) و(إسطنبول)، كانت اللّعبة تلك تُمارَس جماعيّاً وليس فرديّاً كالاستمناء على صور فتياتٍ عارياتٍ في قصاصاتٍ ومجلّاتٍ إباحيّةٍ جاء بها من تركيا، لذلك، فكّر مليّاً بالإجابة قبل فتح الحديث عن كرة القدم مع شبّان ورجال حارته: «علّمني إيّاها عالم آثار ألمانيّ في مدينة القامشلي». هكذا جاوبهم، ولم يفكّر ما إن اقتنع الآخرون بإجابته أم لا، الآخرون الذين أخذهم بعيداً سحر الكرة التي صنعها لهم (نايف) من أقمشةٍ لفّها حول مجموعة حصى فتغدو ثقيلة؛ إذْ تُركل وتدور بين الأقدام في الساحة على طرف مدينة (رأس العين). لم يكن (نايف) قد تعلّم قواعد اللّعبة تلك، إنّما أخذته فكرة الحصول على الكرة، وركلها، ووضعها في مرمى مصنوع من صخرتين، رسمتا حدّاً تربّص أحدهم بها، أطلق عليه اسم: حارس المرمى. يوماً بعد يوم، أخذت فكرة ركل الكرة القماشيّة تكبر وتتحوّل وتستولي على أذهان الفتيان والشبّان الذين كانوا يركضون طوال الوقت حتّى التعب بدون معرفتهم بمصطلح «الفريق الخصم»، بدون معرفتهم بفكرة توزيع الكرة إلى اللّاعب الآخر. أخذتهم الكرة القماشيّة تلك جميعهم إلى ذواتهم المستدرجة نحو الفرديّة، نحو رغبة الحصول عليها، وحملها، والركض بها أحياناً إلى المرميَيْن على طرفيّ الساحة، لا يهمّ أيّ مرمى. أخذت كرة القدم ذاك البُعد الذي خلاله التقى كلّ واحد من بين هؤلاء

اللّاعبين الأميّين بقواعدها برغبته، رغبة الحصول على ما يتنافس الآخرون عليه. لكنّ (نايف) تعمّق أكثر، بدا كمراقبٍ داخليٍّ وخارجيٍّ يستكشف بواطن الناس من خلال تعاملهم مع اللّعبة، من خلال تعاملهم مع الكرة، وصار يصنّفهم استناداً إلى حركتهم داخل الملعب ذي الحدود المجهولة. تعرّف إلى صفاتهم المبطّنة، منهم مَن كانوا مُنصبّين على عرقلة الآخرين، ومنهم من كانوا يختارون الركض مع الكرة إلى المرمى الأبعد عن ركن وقوفهم كي تبقى بحوزتهم أطول مدّة، وبعضهم حبّذوا فكرة وضعها في المرمى القريب منهم اختصاراً للوقت وادّخاراً للطاقة التي تُهدَر بالركض، بعضهم فكّروا بعرقلة المستحوذ على الكرة، وبعضهم الآخر كان همّهم أن يعرقلهم الآخرون كي يسقطوههم بأنفسهم أرضاً، ومنهم مَن كان يحمل الكرة ويركض بها كي يلحق به الآخرون، بعضهم وجد في اللّعبة حجّةً للشتائم، والمشاجرة، والملاسنة، وآخرون رأوا فيها وسيلةً يخرجون بها تسامحهم فيوزّعون الكرة لأوّل مَن يطلبها منهم داخل الملعب الاعتباطيّ. وآخرون وجدوا متعتهم في الركض بالكرة من دون وجهةٍ محدّدةٍ كي يتبعهم الراكضون فقط، وآخرون تحيّنوا جلوساً متربّصين قرب المرمى منتظرينَ وصول الكرة إليهم ليسجّلوا هدفاً من دون مجهود، وآخرون همّوا بملاعبة اللاعبين ذوي الأبدان النحيلة، وآخرون وجدوا ضالّتهم في ملاعبة ضخام الأبدان. جميعهم، راقبهم (نايف) بعينين وسيعتين كأنّه يبحث بينهم عمّن يمكن مصادقته. إلّا أنّه على الرغم من المتعة التي كانت ترافقه لحظة اللّعب، امتلكته حالة اغتراب لم يعرفها من قبل، لا سيّما أنّ الناس تعرّوا في ذهنه وظهروا بالصفات الملازمة لهم، تلك التي يمكن أن تُضمَر في جلسة شرب الشاي، أو لقاءٍ عابرٍ، أو سهرةٍ في أحد البيوت،

أخذته معرفة بواطن الأشخاص من خلال الكرة نحو الفرديّة القصوى، قال (نايف) لـ(الملّا أمين) ذات يوم: «فعلت الكرة ما فعلته الزراعة، حوّلت الناس إلى مؤمنين بالفرديّة، عرّتهم من الداخل ووثقتهم بفكرة التواصل عنوةً مع المؤسّسة، الكرة أيضاً شكلٌ من أشكال توثيق البشر بمؤسّسات الدول، يا ملّا أمين».

تعمّق (نايف) أكثر داخل فكرة العيش من دون صديق، صارَ غامقاً، كأنّه حبرٌ على ورقةٍ خطّ عليها عجوزٌ وصيّته، توجّس بالكرة التي أصبحت مفتاح ولوج الناس إلى ذلك العالم السحريّ المرافق لهم، والذي بدأ بفكرة الحصول على الكرة في الملعب ولم تنتهِ بالصراع والتحارب فيما بينهم للحصول على قلب الفتاة ذاتها. بقي الجميع على تلك الحالة، الركض اعتباطيّاً، إلى أن اشترى السيّد (كالوش) تلفازاً كهديّة زواجٍ لعروس ابنه (أَسْبيد) التي جاؤوا بها من لبنان، وقالوا بأنّها قريبتهم وحفيدة أحد الناجين من مجازر الأرمن. أحد هؤلاء ممّن نقلهم الجيش الفرنسيّ من مخيّمات الناجين قرب مدينة (حلب) بالبواخر عبر المتوسط إلى لبنان ودول أُخرى بغرض حمايتهم من جيوش العثمانيّين. أمام ذلك التلفاز تغيّر كلّ شيء فيما بعد، وأخذ ركضهم الاعتباطيّ الفرديّ وراء الكرة القماشيّة يتحوّل ويدخل للمرّة الأولى سياق الجماعة، والتحالفات، والسياسة. إلّا أنَّ (نايف) لم تأخذه فكرة الجماعة على الإطلاق، بقي وحيداً، يذهب صباحاً إلى سوق الدوابّ بمدينة (رأس العين) ليعود في الظهيرة، كان ذلك النَظْم يستولي عليه شهوراً عديدة خلال السنة، لينكسر إيقاعه في موسم حصاد القمح، والشعير، والعدس في أثناء ذهابه في ورش مع رجال وشبّان أطلق عليها اسم: المصلحة: وهي مؤلّفةٌ من مجموعة حمّالين، وسائقي الحصّادات

والتراكتورات، وطبّاخين، وخيّاطي أكياس القمح، والعدس، والشعير لحظة امتلائها، استولت فكرة القيادة على قلبه، فعمل سائقاً للتراكتور الذي تملكه شركة (أصفر ونجّار)، تجوّل بين القرى، حرث الأرض ليلاً ونهاراً، استحوذت على ذهنه قيادة التراكتور ليلاً، راقب الفضاء المظلم الوسيع؛ إذْ امتزج صوته في أثناء دندنة قصائد الشاعر الكردي (ملايي جزيري) مع صوت المحرّك وحيداً مثل فكرةٍ في عقل الناجي، يقود، يتحاور مع طيف الشاعر؛ إذْ يهبه الظلام، يتنقّل بين زمان ذلك الشاعر البعيد، وزمانه القريب. تداخلت الأزمنة لديه كما تتداخل مصائر المتربّصين بالغزاة. على هذا النحو بقي (نايف) رافضاً فكرة الجماعة التي كان الناس في (رأس العين) قد بدأوا شيئاً فشيئاً يتعرّفون عليها، كان ذلك واضحاً في تضامنهم السريّ مع بعضهم، والبحث عن حلولٍ للرقابة المخابراتيّة التي بدأت بزمن الوحدة بين سوريا ومصر ولم تنتهِ مع انتهائها، إنّما صارت أعمق؛ إذْ استولى (حزب البعث العربي الاشتراكي) على الحكم في سوريا. وبدأت الرقابة المخابراتيّة تأخذ أبعاداً داخل قلوب وأذهان الناس، جاءت القضيّة هكذا فجأةً! شبيهة بقوانين كرة القدم التي تعرّفوا عليها من خلال تلفاز زوجة (أَسْبيد) الأرمنيّة، على هذا النحو تعرّف سكّان المدينة على مفهوم ملاحقة الناس نتيجة انتماءاتهم القوميّة والدينيّة داخل سوريا الوليدة حديثاً، قال السيّد (كالوش) لـ(نايف):

- كنت أظنّ أنّ فكرة ملاحقة الناس لأسبابٍ دينيّةٍ قد انتهت مع زوال الدولة العثمانيّة، الآن، بالله عليك، ما الفرق بين العصملّي والبعثيّ؟

بقي مؤمناً بالفرديّة، بالذاكرة التي هي خلاصه الوحيد، حتّى إنّه ذات يوم وعندما سأله السيّد (كالوش): «أنت تعلّمت كلّ شيء، لماذا لا تنضمّ

إلى حزبٍ كرديّ؟». جاوبه بعد رشفةٍ طويلةٍ من الشاي المحلّى بالسكّر الأحمر الموضوع في كأسٍ مصنوعةٍ من (البافون): «فكرة الحزب ولدت بعد فناء فكرة الآغوات والباشوات، الحزب جاء يا سيّد (كالوش) بعد أن فقد الآغوات قدرة السيطرة على المجتمع الذي بدأ يتحوّل ويقرأ الكتب هنا وهناك، بدأت الفكرة وتحوّلت في عقول زعماء العشائر الكرديّة أيضاً أسوةً بالجميع؛ إذْ رأوا أنّ الحزب السياسيّ سيجلب لهم نفوذهم العشائريّ الذي سُلب منهم، أو ذَهَب هكذا نتيجة التغيّرات في العالم، لن أنضمّ إلى أيّ جماعةٍ يا سيّد (كالوش)، بعد عقود، ستؤسّس كلّ عشيرةٍ كرديّةٍ حزباً، وستصبح مالكة حزبها الخاصّ كما العقارات وغيرها».

قالها هكذا بدون أن يفكّر ما إن كانت إجابته مقنعةً أم لا، ما إن كانت تلك إجابة بالأساس أم لا، هكذا يتعمّق لحظة تلو الأُخرى في فكرة الإيمان بعدم وجود جوابٍ لسؤال، لذلك، تماهى أكثر فأكثر مع ذلك القاع الذي يسكن فيه، الذاكرة، الذاكرة وحسب. هذا المخلوق الذي يستولي عليه ويحذف النوم من جسده المغروس في فراشه المعبّأ قطناً، كأنّه عيون الأفاعي الصفراء في حقل القطن ليلاً. لا يهدأ على صفيح فراشه المسجور، يتقلّب ويتقلّب؛ إذْ لم تبرّد قصائد (ملايي جزيري) ذهنه، فتوجّس مجدّداً بصوت الفراغ المتناثر حول النوافذ المقنطرة، المتقافز من غرفةٍ إلى أُخرى عبر الأحجار السوداء الملتصقة بعضها ببعض عبر الإسمنت المتخثّر مثل دم على جروح الناجين. عادت مجدّداً إلى ذهنه كلمات عالم الآثار الألمانيّ له قبل سنوات: كان يوماً حين طرق رجُلٌ باب بيته، وتحدّث (نايف) إليه على العتبة بالفرنسيّة؛ إذْ رأى في تلك اللّغة سبيلاً يعرف خلالها ما يريده رجُلٌ طويل القامة، برونزيّ البشرة، شعره

الأشقر مسدولٌ تحت قبّعةٍ إفرنجيّةٍ مستقرٌّ على كتفيه، تحوم حول رقبته ربطة عنقٍ حمراء في هيئة فراشةٍ تشعّ في بياض قميصه، وابتسم فيما بعد إذْ جاوبه الضيف بالعربيّة مستأذناً إيّاه بدخول البيت، خلال جلسة شرب الشاي المحلّى بالسكّر الأحمر. استفسر الرجُل الأجنبيّ منه عن كيفيّة إتقانه اللّغة الفرنسيّة، وبعد أن أحال (نايف) السبب إلى المدارس الفرنسيّة في فترة الانتداب، سأله عن كيفيّة تعلّمه العربيّة، وهو ألمانيّ. هكذا مضى الحديث، حائماً حول السياسة، والدين، والمجتمع، والحروب، أُنفِقَ في سبيل الحوارات الكثيرة هذه إبريقٌ من الشاي الأسود. بعد رحيل الضيف، لم يندم (نايف) على رفضه بيع بيته لعالِم الآثار الألمانيّ مقابل مبلغٍ كبيرٍ من المال. أراد بكلّ السبل انتقاد العالَم المنشغل بحفر الأرض لاستخراج حجارةٍ من باطنها وتمجيد إمبراطوريّاتٍ فنت بعضها بالحروب والجوع؛ إذْ رأى في الاحتفاء بآثار تلك الإمبراطوريّات القديمة شكلاً من أشكال الاحتفاء بأفكارهم التي كانت تقمع الإنسان، وتصنع الحروب، وتؤمن بالتوسّع، قال لعالم الآثار الألمانيّ: «تحتفون بآثار قديمة، وتنسون بأنّ العبيد والسجناء هم مَن بنوها وصنعوها، إنّما تمجيد تلك الآثار يحمل في باطنه تمجيداً لأفكارهم الرجعيّة، للعبوديّة وغيرها، وأرى بأنّ المعادلة ليست منفصلةً عن بعضها. تقولون بأنّكم تدرسون الحضارات القديمة عبر الآثار، إذاً، لماذا تضعونها داخل المتاحف وتحوّلونها إلى سلع، وتدفعون الناس إلى تمجيد مرحلةٍ زمنيّةٍ كانت العبوديّة والحروب والقمع هي بنيتها الرئيسة؟».

لم تنتَبْهُ فكرة حفر الفناء وأرضيّات الغرف للبحث عن الآثار التي خمّن الألمانيّ وجودها تحت تراب البيت، مستنتجاً ذلك من كلام رجُلٍ

شيشانيٍّ قال له ذات يوم: «ثمّة بيت بقلب مدينة (رأس العين) يطلقون عليه اسم: (بيت الأشباح)». فيما بعد، ربط الألمانيّ حادثة انتحار ابنة (آروش) الأرمني الوحيدة داخل البيت وخوف الشيشان من الآثار وتوجّسهم منها على أنّها تعاويذ تجلب الشرّ. منعوا إثر ذلك البارون الألمانيّ (ماكس فون أوبنهايم) من التنقيب في (تل حلف)، ورفضوا أن يكونوا له عوناً في سبيله، ما دفعه إلى طلب العمّال الفقراء من أحد شيوخ عشيرة (البقارة) بمنطقة (جبل عبد العزيز) جنوب (الحسكة) للحفر. كلّ عناصر تلك المعادلة فكّر بها الألماني؛ إذْ قرأ مذكّرات (ماكس فون أوبنهايم)، فحمل بدنه وجاء لتفقّد البيت بغرض شرائه من (نايف).

أنفق (نايف) أيّاماً ولياليَ عديدةً مع رفيق درب والده (الملّا أمين) ليصل خلالها إلى علاقة كلّ الأحداث تلك بذلك الصوت الخفيّ الذي يسمعه داخل البيت طوال اللّيل. تجاسر بادئ الأمر؛ إذْ تردّد في الإفصاح لـ(الملّا أمين) عمّا يدور بقاع نفسه، وفكّر في أن يخبّئ عنه توجّسه هذا مثلما خبّأ عنه ذهابه إلى (الصوفيّ عبدي) في مدينة (القامشلي) لطلب الشفاء من حلم الغرق عبر التداوي روحيّاً على يديه، حتّى إنّه لم يخرج من البيت ليومين كاملين، قضاهما متمدّداً في فراشه بسرواله، وقميصه، وجوربيه، تحارب خلالها مع الأفكار الاعتباطيّة التي غزت ذهنه. لحظتها انتابه القلق وأصبح يخاف على نفسه من نفسه، لا سيّما أنّه وفي معظم نقاشاته مع (الملّا أمين)، كان يتظاهر بنكران الدين ويعيد كلّ الروحانيّات إلى العقل. بقي سنواتٍ عديدةً مثل جدارٍ منيعٍ، صدّ كلّ محاولات (الملّا أمين) له بالتقرّب إلى اللـه، حتّى وجد صياغةً استقام عبْرها؛ إذْ قرأ قصائد (ملايي جزيري) الصوفيّة، ونَسَج لذهنه ذلك الحبل السحريّ الذي أوثق

به نفسه مع فكرة الإله التي أنفق لياليَ في سبيلها، حتّى إنّه قال لـ(الملّا أمين) ذات يوم:

- هل ينبغي للكائن البشريّ أن يكون مؤمناً حتّى يستطعم السعادة؟ هل أنت سعيدٌ يا ملّا أمين؟

جاءت كلماته هذه ردّاً على كلام الملّا له:

- بإمكانك الصلاة من دون وضوء، السرقة عند الحاجة، ممارسة الجنس عند موافقة المرأة وبدون عقد زواج، الكذب فتنجو بنفسك من العقاب، لا تدافع عن أرضك إن كانت النتيجة هلاك أهل بيتك، لا تحمل سلاحاً، لا تبدأ كلامك في المجالس بأقوال العلماء والمتديّنين، لا تعارض إن كانت النتيجة هلاكك، وليكن الله ملء قلبك، افعل عند الحاجة كلّ ما تراه ضروريّاً، إلّا القتل، فكرة الله العظيمة تكمن في كيف تحافظ على نفسك، على جسدك وأجساد الآخرين، كيف تبقى ناجياً، هذا هو جوهر وسرّ الإيمان يا بني. اسمع هذه الحادثة، زارَ رجل كردي مدينة (حلب)، صلّى يوم الجمعة في (جامع صلاح الدين)، ثم جلس للاستماع إلى الخطيب، فحمل شابٌّ زجاجةً ممتلئةً بالمسك والعنبر وأخذ ينقّط بضع قطراتٍ في راحات أيادي الناس المفتوحة، زمَّ اليأس كفي الرجل الكردي إذْ تخطّاه الشابّ، مرّ به تاركاً يديه فارغتين. لا أخفي عليك، أرجعت السبب إلى لباسه الكرديّ الذي كان يختلف عن لباسهم، لكنّه لم يفعل شيئاً، فقط قال في قرارة نفسه: العلاقة بيني وبين اللـه هي علاقةٌ شخصيّةٌ ما من وسيطٍ بيننا، لذلك ليس بمقدور أحدٍ في الوجود أن يجعلني أعيد التفكير بفكرة إيماني. لم يعد بمقدوري الآن حتّى التفكير، تعلّمتُ فنّ العبادة هذا من شيخٍ كرديٍّ في منطقة (ديرسم)، قتله جنود أتاتورك، قبل أشهر من فراري إلى (رأس العين)، قبل وصول والدك بعامين.

كلّ تلك التفاصيل الصغيرة استرجعها (نايف) في ذهنه إلى أن آمن بفكرة التحدّث إلى (الملّا أمين) بخصوص الصوت الذي يتناهى إلى أذنيه في بعض اللّيالي، الصوت الذي بعد غرق (ليفون) صار أكثر سجوراً، كأنّه يُخلق داخل أذنيه. في فراشه، ليلة عودته من دكّان السيّد (كالوش) صار يسترجع كلّ شيءٍ كأنّه يبحث داخل كلّ التفاصيل عن فوهةٍ صغيرةٍ يخرج عبْرها إلى أرض الطمأنينة ويستسلم للنوم. نهض مجدّداً، أشعل كلّ إنارة البيت واقتعد كرسيّاً في الفناء يتحيّن وصول رسل الشمس حاملين مكاتيب الفجر إلى الموجودات.

IV

بَرَقت الدمعة
على
خاتمها الذهب

أ

- لا عليكِ يا أختي، سنعود إلى البيت قريباً، قال الطبيب: إنّه يجب عليكِ قضاء بعض الوقت وحيدةً حتّى تتماثلي إلى الشفاء التام، أنت شفيتِ، لكنّ الأمر متعلّقٌ بالقليل القليل من الوقت يا أختي الغالية.

متلعثماً، جاوبها شقيقها وخرج، تركها وحيدةً تغزل الأيّام، والأسابيع، والشهور بنولين سريّين في عينيها.

خفيفةً مثل غزالةٍ تنهض(سَلمى) عن خاتم الذهب، فيما بنصرها الأيمن متعلّقٌ برقبتها كأنّه طفلها، سرعان ما يزفر الضوء الوافد من النافذة الخشبيّة ويكلأ حول الخاتم. تستقوي بأثر صوت (فَخري) المحمول إليها عبر أفراس وهبتها الريح لها، لعزلتها ووحدتها داخل الكوخ المعمور قرب القرية، مرتفعاً عن الأرض مترين فلا تختلط أنفاسها بأنفاس المارّين بها. تضع يدها -موطن خاتمها- على إطار النافذة الخشبيّ، تبرق المسامير حديديّة اللّون وقد انعكس ضياء الخاتم عليها كما تنعكس أسنان الذهب خلال ماء النبع في فم عاشقةٍ متبسّمةٍ، ما من أفعال أُخرى تبذلها في كوخها - ركن حَجرها، سوى النهوض والاستلقاء، وتناول طعامٍ وشرابٍ يُجلَبُ لها محمولاً في سلالٍ معلّقةٍ على أذرع إخوتها، والتفكير بـ(فخري). ما

من أفعال أُخرى، شوقها إلى حبيبها تحوّل من حالةٍ وجدانيّةٍ إلى فعلٍ تبذله في وحدتها فتنتصر على كلّ شيء. تحاربت في سبيل بقاء ذلك الفعل الذي ينفخ في رئتيها ما يدفعها إلى البقاء، البقاء على ما هي عليه، لا يهمّ أين هي الآن، كلّ ما يشغلها هو إعادة كلّ تلك الأحداث والكلمات التي دفعها (فَخري) صوب أذنيها كأنّها ختم الفاني على ظهر الباقي. لكن، مَن فنيَ ومَن بقي؟ لم تعد (سَلمى) تتحيّن كلّ تلك الأسئلة، لم تعد تتوسّل العافية أن تهبها سِمتها فتنجو من المرض وتعود حرّةً قويّةً مثل الضوء على حبّة زيتونٍ خضراء داكنةٍ كنار شعلة المستسلم. أدمَنت وحسب على تلك النفحات المجبولة مع الريح الخفيفة المعبّأة بأثر صوت (فَخري) القادم نحوها، حتّى إنّها لم تعد تفكّر بـ(فَخري) الحاليّ، وما يفعله الآن، ومكان وجوده الآن، هجرت أرض تلك الأسئلة واهتدت إلى مكان (فَخري) الأبدي. اهتدت إلى ذاكرتها، إلى ذهنها المشغول به هو وحْده، آمنت بفكرة أنّ ذاكرة المرء مكان لا تطاله أيدي البشر. لا تطؤها أقدام الغرباء، ولا تتغيّر كما يتغيّر كلّ شيءٍ في قلوب البشر. لذلك احتفظت بما عاشته من لحظاتٍ خاطفةٍ مع (فَخري) على ظهر القرية الممتدّة بين تلالٍ مغموسةٍ بأشجار الزيتون والرمّان. ترفع يدها عن إطار النافذة الخشبيّ، فينحسر الضوء في المسامير مجدّداً، ويعود كلّه إلى موطنه حيث خاتم الذهب حول بنصرها. تستلقي مجدّداً؛ إذْ عبّأت عينيها من الدرب الفارغ، وشكل بيوت قريتها على مرمى النظرات. تمدّدت وتكوّرت على خاتمها وحوله، واحتضنت بنصرها الممشوق، كأنّها وريقات زهرةٍ تنغلق على نحلةٍ ترضع من ميسمها، ترضع (سَلمى) من بقايا فتات الضوء على صفرة النهار المحمول إلى الغروب. ستشعل بعد لحظاتٍ فانوسها، ستتحيّن الريح كي تسأل

فيها أثر صوت (فَخري): «مَن هو الحبّ يا عزيز قلبي، يا حبيبي؟». ها هي تُتَمتم مجدّداً، قابضةً بطرف لسانها على طرف لسان الريح في الكوخ، تدفع إليها سؤالها:

– اغمرني بالحب يا (فَخري)، قل لي يا عزيزي، مَن هو الحبّ؟

تحمحم الأفراس وتصهل؛ إذْ تنثر صوت (فَخري) داخل الكوخ مثل حبّات الملح على جسد جريح، مَن الملح، مَن الجريح؟

– الحب هو جَلَدُ الراحلين، وجَزَع الباقين، هو جَزَع الباقين، وجَلَد الراحلين، هو ذاك اللّون السريّ الذي يُنسَج من تماهي الفجر مع الغروب، هو البقاء والرحيل في آنٍ واحد، هو الباقي والراحل في مرمى عيون المستضعفين، هو العين، والفجر، والغروب.

– مَن هو الحبّ يا عزيز قلبي؟

– الحبّ هو العَدوّ بأقدامٍ تهبها الطمأنينة للشكّ، والشكّ للطمأنينة، هو الأرض الفانية تحت خطواتٍ يظهرها الغياب، ويضمرها الحضور، هو حضور المرء وغيابه في آن، هو أثر الأقدام في ذهن ماء عين الراحل القادم.

مستلقيةً متكوّرةً حول خاتمها الذهبيّ، تبرق الأشعّة الوافدة من فانوسها الموضوع وسط الكوخ، تخفق النار داخل زجاجه كأنّها قلب مريضٍ يتلو وصاياه على مسامع رُسلٍ يحملون مكتوب الموت إلى الآدميّين. أثرُ الشعلة الحمراء يحوم حول شَعرها، والسجّادة، والفراش، والجدران المطليّة بالكلس والملح، ويرقص ويرتجف كأنّه تلاميذ المتصوّفة المنهمكون بالقراءة والتلاوات. تتداخل شعيرات النور مع خيوط شعرها الأسْود المتحجّر على خدّها وياقة فستانها إثر الدموع المتيبّسة. تهشُّ بأصابعها على النوم داخل عينيها كي تبقى متيقّظةً، ويبقى أثر صوت (فَخري) حائماً

حول ذهنها كفساتين المريدين. مريدة عشقها هي، تقتصد بكل ما يشرّدها عن أثر صوت حبيبها، تقتصد في النوم، الطعام، في تذكّر أهلها، قريتها، في التفكير بمرضها، وفي الموت، تجد كلّ الأشياء تلك أموراً دنيويّةً تشغلها عن التفكير بحبيبها، كأنّها لامست النجاة من وحش عزلتها داخل كوخها بالحبّ، الحبّ وحده دواؤها الخالد.

ترتجف الآن داخل لسعات النور الوافد من الفانوس، يهبّ صوبها صوته قادماً إليها عبر السهول، والتلال، وأشجار الزيتون، وهذا اللّيل الغامق مثل وشمٍ أخضر على جبهة امرأةٍ ناجيةٍ تتلو، يلج صوت (فَخري) ذهنها، فتخفق في فراشها كأنّ جسدها صار قلباً كبيراً، كأنّ الحبّ يحوّل الجسد إلى قلب وحسب:

– مَن هو الحبّ يا (سَلمى)، يا عشقي الخالد، يا حبيبة قلبي؟

مغمضة العينين ترتجف شفاه (سَلمى)، وتُتَمتم كأنّها تتلو نشيد المريدات الوحيدات المنعزلات المتيّمات للمريدات الوحيدات المنعزلات المتيّمات:

– بَدني متداخل مع أغصان شجرة الزيتون، طوال نهارٍ كاملٍ تحوم أصابعي حول حبّة الزيتون، ولأنّني شاردةٌ بكَ، لا أجني أيّة حبّة. لحظات الغروب أعود مع ذَويّ إلى بيتنا بدون أن أفصل حبّة زيتونٍ واحدةً عن الشجرة، أرغب في العمل، إلّا أنّني لا أستطيع، ليس بمقدوري القيام بأيّ فعلٍ حين يَهبُّ طيفك في ذهني، أتحجّر، أمّي تقول بأنّني كسولةٌ لا فائدة منّي، هل يجعل الحبّ مريديه كُسالى؟ يراودني تفسيرٌ آخر يا عزيز قلبي، هل الحبّ عملٌ؟

– مَن هو الحبّ يا عزيزة قلبي، يا (سَلمى)؟

- تُمشّط أمّي شَعري، فأجمّع البقايا المتساقطة حول المشط وأحتفظ بها، وفي اللّيل، أدخل خيوط شَعري في خرم الإبرة، وأطرّز بها على قماشةٍ بيضاء أشكالاً لمخلوقات اللـه، هل تحتفظ بها؟ احتفظ بها كلّها، لا تهملها، إن فعلت ذلك سأغضب منك، لكنْ سأظلّ أحبّك، يا عزيز قلبي.

- مَن هو الحبّ يا حبيبتي؟

- أتعرّق في فراشي؛ إذْ أحلم بك، أستيقظ مرتجفةً من شدّة الخوف والقلق عليك، وأبقى متيقّظةً طوال اللّيل، أفكّر بك، لا أشعل الفانوس كي لا تعرف أمّي بأنّني ساهرة، لا أريد الكذب عليها، هل أكذب هكذا؟ لا.. لا.. لا أكذب هكذا، أنا عاشقةٌ ومتيّمةٌ بك، وهذا كلّ شيء، أفكّر دائماً بتلك اللّحظات الخاطفة التي نلتقي بها، أعطيك منديلاً صغيراً، وتعطيني حبّة زيتون، أفكّر: لم نتحدّث إلى بعضنا كثيراً؟ لكنّني أعرف عنك كلّ شيء، من يوم ولادتك إلى هذا اليوم، لم يخبرني أحدٌ بذلك، ولن أخبرك بالأمر، لن تعرف كيف أعرف عنك كلّ شيء، لا تغضب منّي، لن أخبرك، فهذا سرّ، يا حبيبي، كانت جدتي تقول: الحبّ وطنٌ لا يسكنه أحد سوى الأسرار.

- مَن هو الحبّ يا حبيبتي (سَلمى)؟

- على الدرب بين القرية وحقل الزيتون، أردّد اسمك، الجميع منشغلٌ بموسم الجَنْي، يثرثرون، يتحدّثون ويسردون قصصاً غريبةً، كنتُ مثلهم قبل أن أُتَيّم بك، أستيقظ لحظات الفجر، وأخرج معهم إلى الحقل، أسمع قصصهم وأسرد قصصاً؛ أمّا الآن، نسيتُ كلّ تلك القصص يا حبيبي، هل هذا فأل سيّئ؟ لا، لم أنسَ كلّ شيء، إنّما نسيت كلّ القصص التي لا علاقة لك بها، تتحوّل القصص من هامشيّةٍ إلى مركزيّةٍ ما إن يمرّ اسمك

بها، أصيخ السمع إليها، وأسير مغمضة العينين على الدرب، أردّد اسمك في سرّي إذْ أسرد قصصاً وأتحادث مع أهلي، فقط لتغدو تلك القصص والأحاديث مهمّةً، لتغدو جميلةً، وشائقةً، وغير مملّةٍ، أردّد اسمك في سرّي لحظات التعب، لحظات العمل، المشي، تناول الطعام، التهيّؤ للنوم، أردّد، فتغدو كلّ الأفعال جميلةً، اسمكَ يحوّل الحزن إلى فرح، التعب إلى راحة، الجوع إلى شبع، الخمول إلى نشاط، نشيطة بك وحسب، هل تحبّني بالقوّة ذاتها التي أحبّك بها يا حبيبي العزيز والسريّ؟

- مَن هو الحبّ يا عزيزة قلبي؟

- التفكير يأكلني يا عزيزي، أشعر بأنيابه تضرس عقلي، تمضغهُ وتلتهمه، لا ينتهي منّي أبداً، أفكّر أحايين كثيرة بالزمن الذي سيُنفَقُ بدونك، بالزمن الذي ينبغي لي إنفاقه في محجري هذا، هل سيطول؟ آمل ألّا يكون مديداً يا عزيزي. كنتُ في التاسعة من عمري..

كأنّ (سَلمى) تفقد القدرة على المكوث في زمنها الآنيّ، تؤخَذ عنوةً إلى قاع الماضي، اعتادت ما عاشته، توقّف الزمن بداخلها، متوقّفٌ في لحظتها الآنيّة. كانت في التاسعة من عمرها، مقتعدةً شال جدّتها في فناء البيت بينما الظلّ المتساقط من الضوء على الأغصان اليافعة المزهرة ينخل جسدها، تمتمت لها الجدّة، ومن ثمّ قبضت على يدها وألصقتها بالأرض؛ إذْ قالت لها: «(سَلمى) يا ابنتي، ردّدي ورائي ما سأقوله الآن». لم تشعر (سَلمى) بالهزّة الأرضيّة التي دفعت العصافير إلى النهوض عن ظلالها بين الأغصان، وأخذتها صوب الاستنفار، فخفقت أجنحتها بعضها ببعض، وحدها الجدّة شعرت بارتجاج الأرض خفيفاً تحت بدنها النحيل على الشال المبسوط مثل حصيرة المنفيّين، سبق للجدّة أن دعت إلى اللـه لحظة

الزلزال. ردّدت (سَلمى): «إلهي اجعل من يدي دواءً». ردّدت بدون تأتأةٍ، كأنّها مستسلمةٌ لأفراس الطمأنينة الوافدة إليها محمولة بحبّها لجدّتها، قادمةً من قاع قلب جدّتها التي سرعان ما مرّرت راحة يدها اليسرى على رأس (سَلمى) وهمست في أذنها البيضاء المنعكس على حلمتها شعاع النور الوافد من قرط الذهب:

– الآن يا ابنتي، وهبك اللـه إمكانيّة معالجة ما وهبني به وجدّتي من قبلي.

لم تكن بعض الأيّام قد مرّت عندما أدركت (سَلمى) بأنّ في إمكانها معالجة المتسمّمين إثر تناول الأطعمة الفاسدة، أو تلك التي تعرّضت كثيراً لأشعّة الشمس وغيرها. سرعان ما رتّبت الجدّة لها ما يجعل منها مقصداً لأناس يقدمون إلى بيتها للعلاج من التسمّم والتهاب اللّوزتين، أصبح بإمكانها مداواة الناس هكذا عبْر دعاءٍ لحظة الزلزال. لم تعرف كيف حدث ذلك، وكذلك الناس الذين كانوا يتعالجون خلال ساعاتٍ قليلة، لم يفكّر أحدٌ منهم بالتفسيرات العلميّة والمنطقيّة حول كلّ ما حدث ويحدث. استسلموا ليدها كما استسلموا من قبلها ليد جدّتها التي صارت تداوي حتّى الأطباء، هؤلاء الذين تسمّموا من طعامٍ، أو التهبت لوزهم. رُتِّبَ كلّ شيء لـ(سَلمى)، صارت تُجلس المريض قبالتها، تمسح رأس المريض، وصدره، وظهره بقطعة خبزٍ يابسٍ، وتُتَمتِم في سرّها ما علّمته إيّاها جدّتها، هكذا بتلك السهولة حدث ما حدث، على الرغم من أنّها توجّست بادئ الأمر من علاج حالات التهاب اللّوزتين لدى الناس، قلقت، لكنّها أصاخت السمع إلى كلام جدّتها. ذات يوم قالت لها كي تسدّ باب التردّد

قبالتها وتدفعها إلى فعل ما وهبها اللـه، لذلك، هجرت التوجّس وصارت تفتح فم المريض الجالس قبالتها، ومن ثمّ تولج إبهامها في فمه وتدفعه نحو حلقه، تضغط عنق اللّسان مرّاتٍ عديدة إلى أن يتقيّأ المريض، فتخرج يدها وتجعله يتمضمض بماءٍ دافئٍ، ثمّ يبلع القليل من السكّر، ليعود إلى بيته معافى تماماً. فكّرت (سَلمى) في الكوخ المبنيّ خارج القرية ليكون ركن حجرها وعزلتها عن الناس، فكّرت عميقاً بعدم قدرتها على علاج نفسها، حتى إنّها دعت مرّات عديدة كي تهتزّ الأرض فتعيد الكَرّة وتضغط عليها بيدها وتطلب من الله أن يجعل من يدها علاجاً لمرضها. فكّرت بذلك كي تعود قادرةً على رؤية (فَخري)، ليس خوفها من المرض والموت ما دفعها للتفكير بالعلاج، إنّما شوقها إلى حبيبها، الشوق الذي كان ينافس المرض على التهام جسدها، كأنّها أسيرة مرضين في اللّحظة ذاتها، هكذا تمتمت مراراً قبالة النافذة في كوخها:

– لن ينال منّي المرض يا عزيز قلبي يا (فَخري)، إنّما الشوق إليك، حبّك هو ما سيطر عليّ وأنهك قواي، هل أدعو اللـه كي أشفى منك وأرتاح؟ أم أدعوه كي يُسَعِّر حبّك داخل قلبي أكثر كالنار في قلب التنّور إلى أن أُحرَق بك كما تحترق الفراشات على حدود النار؟

تتدافع الساعات، والأيّام، والأشهر، سريعةً تمرُّ آنَ تسترجع (سَلمى) بحّة صوتها المعلَّقة بأثر صوت (فَخري)، كتميمة أعلى باب غرفة المختفي، وبطيئةً آنَ تسترجع بحة صوتها المعلّقة بأثر صوته، كتميمةٍ أعلى باب الناجي. ما من زمنٍ واضحٍ ومرتّب الخطى في لحظاتها، كلّ ما هو موجود يعيش على مرمى ذهنها بزمنين في اللّحظة ذاتها: زمن الغياب وزمن الحضور، زمن الحزن وزمن الفرح. تعيد التمتمة طوال النهار،

والأسابيع، والأشهر في الريح الممتلئة بأثر صوته، جملتها: «ما سيقتلني ليس المرض، إنّما التوق إليك يا عزيزي». هذه الجملة أوّل ما تتمتم به مطلع فجر يومٍ جديدٍ، وآخر ما تتمتم به قبل الخلود إلى النوم وحيدةً منعزلةً في كوخٍ بعيدٍ منعزلٍ على سهولٍ وتلالٍ منعزلةٍ متداخلةٍ مع ليلٍ قاتمٍ وعميقٍ كنظرات الصُمّ في العتمة.

– الحبّ هو كلّ النظرات المنفقة في سبيل استكشاف الفراغ، ثمّة نجوم في الفراغ يا عزيزي لا يراها أحدٌ سواي، هكذا، كلّي ثقةٌ بأنّ ما من أحدٍ رأى تلك النجوم سواي، أتفحّصها طوال الوقت، أستقيم بها كأنّها عكّازٌ ممشوقة مصنوعة من النور، أسترجع بها خطواتي المهدورة على الدروب المنسيّة في ذهن قدميّ، تُرى، هل نسيتُ المشي؟ هل نسيت الدروب؟

هل نسيتْ (سَلمى) طريق العودة إلى البيت؟ تتأمّل الدرب من وراء النافذة الخشبيّة المطلّة على سهولٍ موشومةٍ بأشجار زيتونٍ تفصل كوخها عن القرية، تضع خطواتها على ترابها بالتخيّل، تتعثّر كأنّها طفلةٌ تتعلّم المشي على خطٍّ بين أبويها، على خطٍّ بين الكوخ والقرية، تَرى في أثر خطواتها المنسيّة كأنّها تنظر إلى كائنٍ لا تعرفه، تجهش بالبكاء، تتمتم: «كيف سأمشي إليك فيما بعد يا عزيزي؟». هكذا، كأنّها تبحث في كلّ التفاصيل وتهيّئها لذلك اليوم البعيد القريب، عندما تستردّ عافيتها، وتغادر الكوخ، وتمضي إلى الأماكن الممتلئة بـ(فَخري)، كعروسٍ تتمرّن على المشي، الرقص، الابتسام، المصافحة، تسترجع كلّ شيء، تتمرّن عليها من جديدٍ في سبيل لحظةٍ سريعةٍ تلتقي فيها عيناها بعينيه، وكأنّ كلّ الأفعال وكلّ حواسها، ذاكرتها وحاضرها، تفضي إلى ذلك الكائن الذي لا تعرف

عنه شيئاً منذ ثلاث سنوات وأكثر، ثلاث سنوات أنفقتها وحيدةً تصارع آلام المرض، وآلام الحبّ، مرميّةً بين هذين الألمين كخشبةٍ في البحر، كقشّةٍ في زوبعة، وكاسمٍ ميّتٍ على لسان حبيبته.

الأغنية التي كانت تدندنها (سَلمى) داخل الكوخ.

Delal

V

نَمَشُ الجبل

أ

وراء الغيوم الملبّدة فنيَ النور وهبط ظلّه رفقة قطرات الأمطار، شُذِّبَت المرئيّات، وقُصقصت في نظرات الخيول والجنود، تمتم الدليل في مقدّمة الخيّالة، ما دعا القائد إلى رفع إشارة التوقّف على مشارف قرية (جدالة) بجبال (سنجار). غرست الأحصنة حوافرها في أثر السيوف والبنادق المشعّة خلال فقاعات الماء على الأرض. أشار القائد بسوطٍ في يمناه، ووجَّهه إلى ضابطٍ يحرّضه على مباشرة الكلام. ارتجّت الفرس تحت بدن الضابط؛ إذْ سَجَنَ حركتها ساحباً العنان صوبه، هبَّ البخار من منخريها، فرفعت رأسها عالياً كي تفكّ شدّة اللّجام بين شدقيها، نَخَرَت إذْ باشر متلقّي إشارة القائد بالكلام:

- يا جنود الله، يا جنود مولانا السلطان الغازي وأمير المؤمنين، عبد الحميد الثاني..

بسم الله الرحمن الرحيم،

قال الله في محكم تنزيله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾. صدق الله العظيم.

يا جنود مولانا السلطان، قد عَهَدَ مولانا في (قصر يلدز)، إلى

القائد الصنديد، خادم مولانا السلطان القائد (أيوب بك)، مهامّ إرضاخ (الإيزيديّين) ونشر دعوة الإسلام بينهم، يسْلم من يسْلم منهم، ويفنى منهم الرافضون، نصليهم ناراً حامية، تُقطَع رقابهم، وتُبقَر بطون حواملهم، هذا أمر مولانا السلطان، ستنتشرون في المجموعات المعهودة إليكم بين القرى إلى أن نصل حيث معبدهم (لالَش) فنقيم فيه صلاة النصر، بإذن اللـه.

تسارعت حركات رؤوس الأحصنة تحت سُرُجها، وارتفع صوت الصهيل الممزوج مع النخر، سار قادة الفرق كلٌّ إلى جهةٍ على مقدّمات مجموعات الجند، إلى أن توسّعت المساحات الخالية حول (أيوب بك) وفرقته المقاتلة، فساروا صوب قرية (جدالة) على أصوات طبول «المهتران» وبحات الجنود المبلّلة يردّدون نشيدهم:

«يا خير جيش.. يا خير عسكر
أنت الشجاع.. في البحر فاظفر
في اليد درع.. في اليد خنجر
سر نحو الأعادي.. يا خير عسكر
لو كان كل شيء.. في البحر يُنصَر
فنحن ننادي.. الله أكبر
الله أكبر.. الله أكبر
وليكن جيشنا.. دومًا مُظَفَّر».

كانت تنتهي جملة النشيد الأخيرة، فتُربَط مجدّداً بجملته الأولى، إلى

أن هدأت خيالات الأحصنة في برك الماء التي صنعتها الأمطار وسط ساحة القرية. تماماً على مرمى نظرات القائد (أيوب بك) نصبَ الشيخ (تمر) قامته بينما حدقات عيون النساء، والأطفال، والرجال، تبرق كأسماء الموتى على ألسنة الناجين خلال شقوق الأبواب الخشبيّة أمام الغرف الطينيّة. ألقى (أيوب بك) خطاب السلطان (عبد الحميد الثاني) مثل حجارة البراكين المسجورة على مسامع شيخ القرية (تمر) الذي همَّ بلسانه كي يدفع جوابه إلى القائد العثماني:

- وهل حظيتَ بولاء أجدادي من قبلي يا أيّها القائد؟ قد رضينا بالموت كما رضيَ أجدادنا من قبلنا، كما يقول كتابكم الكريم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

بالكاد انسابت كلمة الشيخ الأخيرة مع الهواء المزمّل بالمطر، بالكاد أنهى المترجم نقل الكلام إلى التركيّة، حتّى ضرب (أيوب بك) بقدمه على بطن حصانه، فهبَّ وانتفض منطلقاً، ووقف على قائمتيه الخلفيّتين؛ إذْ تدحرجَ رأس الشيخ على الأرض إثر ضربة السيف بيد (أيوب بك). خرجت صرخات القرويّين من أعشاش صدورهم داخل البيوت. ترجّل الجنود وتناثروا مثل أجزاء حبّة قمحٍ بين حجريّ الرحى، ولَجوا الغرف الطينيّة فيما تسبقهم نداءات التكبير: «الله أكبر، الله أكبر»، ساقوا من بالداخل نحو الساحة، أجثوهم على ركبهم، خلت البيوت وتُركَت أبوابها الخشبيّة في أرجوحة النظرات تهزّها الرياح. فصلوا الرجال عن النساء، والفتيات عن المتزوّجات، والأطفال عن الأمّهات، أصبحوا مثل أثر الأعشاش على أغصان شجرة، في الساحة المعبّأة بالخيالات المنكسرة المنعكسة خلال مائها.

بدون إشارةٍ، كأنّ الجنود قد تدرّبوا مراراً وتكراراً على ذلك العَرض،

فصلوا رؤوس الرجال المتقدّمين في السنّ عن أبدانهم، وركلوها إلى أن تجمّعت وسط مجموعات (الإيزيديّين) المفروزة حسب أعمارهم، وجنسهم، وحالتهم الاجتماعيّة. تقدّم (أيوب بك) نحو الفتيات المكوّمات على بعضهنّ، كانت كلّ فتاةٍ تحمي نفسها بأُخرى مكوّمة عليها. شدّ فتاةً من شعرها؛ إذْ رمى بشالها في مهبِّ الريح فسقط أرضاً تحت أحمال قطرات المطر، أنهضها وجرّها صوب منتصف الساحة، وشوش في أذنها:

- ما اسمك؟

لم تفهم بادئ الأمر، سرعان ما أجابت؛ إذْ تقدّم صوبها مترجم الحملة ونقل عن التركيّة كلام القائد إلى أذنيها اللّتين لم تكونا قد اعتادتا غير الكرديّة:

- اسمي خَنسي.

نطقت، فيما قامتها تتهاوى بين يديّ القائد العثمانيّ المواظب على رفعها عن الأرض.

- ما عمرك يا فتاة؟

منقطعة الأنفاس، في محاولاتٍ متكرّرةٍ، نجحت (خَنسي) وقالت:

- لا أعلم.

- لن أؤذيك يا فتاة، فقط أطلب منك أن تراقبي ما سيحدث الآن، راقبي واتّعظي كي تُطيعيني يا فتاة.

تهاوى ذهن (خَنسي) في مرمى زفرات القائد الحارّة، المنسابة على وجهها المبلّل، وبحّة صوت المترجم الوافدة صوبها.

بعد أمرٍ قذفه (أيوب بك) باللّغة التركيّة صوب عسكرهِ، انهالوا مثل

سرب الغربان على موضع كومة النساء، جاؤوا إلى وسط الساحة بامرأةٍ تحضن بين ذراعيها رضيعها، مزّقوا ثوبها المتمرّغ بالوحل وأثر الماء والبكاء والصلوات، ووضعوا ثديها بين شفتيّ طفلها، شقّ السيف انسياب المطر؛ إذْ همّ به الجنديّ على بدن المرأة، قطع ثديها، تناثر الدم الممزوج مع الحليب على وجه الرضيع الذي حُمِلَ، وفي فمه محجورة ومحجوزة حلمة ثدي أمّه، ورُفِعَ كسارية علمٍ؛ إذْ أمروا الجميع أن يتمعّنوا فيه. انهارت (خَنسي) بين ذراعي (أيوب بك) الذي أمر بقطع رؤوس الأطفال ممّن تجاوز طولهم الخمسة أشبار، وحجز البقيّة مع النساء والفتيات داخل حظيرةٍ لنقلهم صباح اليوم التالي إلى معبد (لالَش)، بينما تُركت المرأة مغمى عليها، مرتميةً في ظلّ جسدها الخافت على أرض ساحة القرية وسط الرؤوس المقطوعة، إذْ صبّوا في موضع ثديها المقطوع كمشة من الجير الساخن.

في غرفة أحد القرويّين، اقتعدت (خَنسي) الحصيرة مفترشة الأرض، ارتعش ضوء الفانوس الأحمر على وجهها وشعرها؛ إذْ دخل عليها (أيوب بك) وأوصد الباب وراءه. فكّرت (خَنسي) بكلّ ما يمكن حدوثه، تباطأت أنفاسها كأنّها استسلمت للموت، موثوقة اليدين والساقين. مثل سمكةٍ أُخرِجَت من الماء، خفق جسدها داخل الضوء الأحمر المشاغب على الجدران المطيّنة بالطين والتبن. انحنى عليها القائد وهمس في أذنيها بالتركيّة، لم تفهم (خَنسي)، تحرّكت شفاهها كأنّها تمتمت بدعواتٍ تنجيها ممّا يتربّص بها؛ إذْ واظب القائد على الكلام حول محور أذنها، مسترسلاً بجملٍ متتاليةٍ تقطع إيقاعها رشفاته الطويلة من كأس الخمر في يده. امتلأت الغرفة بالكلمات التركيّة، وبدأ الضوء في فتيل الفانوس ينكسر

ويتكاسل، سرعان ما أفني كأنّه ارتاب من صراخٍ أطلقه القائد من صدره نحو الفانوس، دثّر الظلام جسد (خَنسي)، وأنار فجأةً صرخاتها وتوسّلاتها الممزوجة بصوت ثياب القائد وتأوّهاته.

صباح اليوم التالي، ظهرت الموجودات واضحةً خلال أشعّة الشمس في سماءٍ زرقاء تقطع غيومٌ صغيرةٌ انسيابَها. حُمِلَت (خَنسي) ووُضِعَت على عربةٍ خشبيّةٍ موثوقة ببَدن حصانٍ رماديٍّ، وسرعان ما تحرّك؛ إذْ انهال على ظهره السوط في يد حوذيٍّ أخذ إشارة التحرّك من جنديٍّ آخر، رافعاً عَلَماً يشير إلى مواصلة المسير. ويتقدّم الفرقة العسكريّة والأسرى (الإيزيديين) الموثوقين بعضهم ببعض عبر حبالٍ طويلةٍ، متدثّرين بالدماء المخثّرة على أبدانهم. التفتت رؤوس الأسرى المترجّلين صوب الرؤوس المقطوعة المتكوّمة في ساحة القرية، صوب جثث الأطفال والعجائز، صوب بيوتهم المنهوبة، صوب الأبواب المتأرجحة داخل أرجوحة الزمن، صامتين كأنّهم هجروا قاع البكاء داخل قلوبهم. سارت القافلة على دروبٍ جبليّةٍ منفتحةٍ في جبال (سنجار) مثل جروحٍ على جسدٍ آدميٍّ، هي ذاتها الدروب التي كان الناس ينتقلون عبرها بين القرى مشياً وعلى ظهور دوابهم. أدار (أيوب بك) رأس حصانه السيّار بجانب عربة (خَنسي) صوب الحشد البشريّ وراءه، أمرَ ضابطه الذي أمرَ بدوره الجنود في مؤخّرة القافلة أن يطلقوا النار على كلاب القرية؛ إذْ نبحت وخرجت في أثر القرويّين المكبّلين المنجّرين مصائرهم. تصيّد الجنودُ الكلابَ واحداً تلو الآخر إلى أن خمد النباح، وهاجَ إثر ذلك في ذهن (خَنسي) المكبّلة المعبّأة بأثر الأصوات على صفيحٍ خشبيٍّ تعلوه عجلاتٌ حديديّةٌ يجرّها

حصانٌ مسجورٌ تحت سوط الحوذيّ، كان الجنود يطلقون عليها اسم: (العربة)، استدرج (أيوب بك) الطمأنينة إلى وجهه؛ إذْ شاهد الدجاجات، والصيصان، والبيوض في أقفاصٍ خشبيّةٍ جيء بها مع الحملة محمّلةً على عرباتٍ تسير خلفها قطعان أغنام، وماعز، وأبقار (الإيزيديّين) في مرمى سير القافلة السيّارة وراءه.

على السهول، خارج جسد الجبال، التقت قافلة (أيوب بك) مع قوافل أُخرى، تسوق الأسرى (الإيزيديّين)، قوافل رسم ملامحها النساء، والرجال، والأطفال، والأموال، والدوابّ، وأثاث البيوت المنهوبة، قوافل مَن لم يخضع لطاعة السلطان العثماني. كانت تكبر القوافل كلّما تقدّمت صوب معبد (لالَش) على السهول التي تُرِكَ عليها مَن مات إثر مشقّة الطريق، والضرب، والاغتصاب، والبرد، والجوع، بدت الجثث المتناثرة هنا وهناك كأنّها وشومٌ أبديّةٌ حُفِرت على جسد الأرض. كلّ تلك المرئيّات، تأمّلت فيها (خَنسي) التي كانت تؤخَذ ليلاً إلى خيمة (أيوب بك) وتُحمَل نهاراً على دثارٍ فاقدةً إمكانيّة المشي، الأمر الوحيد الذي كان بمستطاعها القيام به هو الالتفات والتأمّل في حشود بني قومها المُكبّلة، كانت تبحث عن أسرتها بينهم، وتستقوي بالتأمّل في ملامح المعذّبين، وتُتَمتم لنفسها:

- لستُ وحيدة.

معظم أسئلة الوجود المتاحة، كانت في ذهنها، كأنّها تترقب سؤالاً عظيماً ليس بمقدور أحدهم استنتاجه، سؤالاً يتسلّق جسدها الممهور بدمها المتخثّر، وبأثر لكمات وعضّات (أيوب بك). سارت كلّ الأسئلة رفقة (خَنسي) قرابة أسبوع، في لياليه يتسلّى الجنود بمجموعة إيزيديّين، يتلون عليهم «الشهادتين»، قليلون من الأسرى كانوا يكرّرون لفظ «الشهادتين»

وراء الجنود العثمانيّين خوفاً، فيما كثيرون آثروا الموت والإخضاع لبطش آلة القتل العثمانيّة على تغيير دينهم، طوال قرابة أسبوع، تأمّلت (خَنسي) السهول والهضاب الفسيحة المعبّأة بنفحات بداية الربيع. على الضفة الغربيّة لنهر (دجلة) الذي يفصل جبال (سنجار) عن منطقة معبد (لالَش). أُجبِرت النساء على النظر إلى الجنود، وهُم يستحمّون عراةً، من بقايا دماء ذويهم. تأمّلت (خَنسي) في مجموعة نساءٍ موثوقات إلى بعضهنّ بحبالٍ متينةٍ، ألقين بأنفسهنّ في النهر؛ إذْ عبر الجنود بهنّ الجسر الخشبيّ الذي ترفعه قوارب كبيرة مصفوفة إلى جانب بعضها، وموثوقة بسلاسل حديديّة كي لا تنهبها تيّارات الماء القويّة، فتحت (خَنسي) عينيها على وسعهما، وابتسمت بالدم المتخثّر على وجهها، وتمتمت، تلت الدعوات في وداعهنّ، غارت منهنّ، تأمّلت أجسادهنّ الموثوقة إلى بعضها، يجرّها تيّار النهر العريض.

فكّرت (خَنسي) بالسبب الذي دفع (أيوب بك) إلى الاحتفاظ بها لشخصه بعد وصولهم إلى معبد (لالَش)، لم تحظَ بجوابٍ يهدّئ سرب النحيب في ذهنها المعبّأ بأثر الراحلين، محجور عليها داخل بيتٍ كبيرٍ اتّخذه (أيوب بك) لنفسه مقرّاً ينام فيه، ويعقد بداخل إحدى صالاته اجتماعاته مع الضباط والجنود.

- هل أنت إيزيديّة؟

ولج السؤال هذا أذني (خَنسي) بقوّةٍ ليس من الممكن منازلتها وتوظيفها، فالتفت إلى تلك البحّة التي أطلقت الكلام صوبها بلغتها الأمّ، بدون ريبة، على وجه السرعة، دفعت جوابها صوب الشابّ اليافع الذي

دخل غرفتها حيث تعيش في مبنى استولى عليه (أيوب بك) في منطقة (لالَش):

– أجل أنا إيزيديّة، ماذا تفعل هنا؟

– اختار القائد العثمانيّ بعضاً منّا لخدمة مسكن (أيوب بك)، أنا واحدٌ منهم.

– ماذا تفعلون؟

دفعت (خَنسي) صوب الفتى اليافع سؤالها بالقوّة ذاتها التي نظرت بها إلى النساء الأسيرات اللّواتي ألقين بأنفسهنّ إلى نهر دجلة قبل أكثر من شهر.

– ننظّف غرف الجنود في فناء المبنى، ونطعم الخيول، ونجمع روثها في الحظيرة.

– وأين بقيّة (الإيزيديّين)؟

سألت، وهي تفكّ عقدة شالها حول إبهامها.

– قتلوا الكثيرين منهم، واقتادوا الكثير من الشبّان وجنّدوهم في الجيش العثمانيّ؛ أمّا النساء، فقد وزّعوهنّ كهدايا على الجنود.

لم تبكِ (خنسي)، أرادت ألّا تفقد اللّحظة بالوقت الذي ستنفقه على البكاء، واصلت الاستماع إلى الفتى اليافع، واظبت على التحدّث إليه بقوّةٍ لا متناهية شبيهة بقوّة غزلان الصحاري لحظة التفاتتها إلى مصادر الماء، كأنّ الحديث معه طعامٌ لذيذٌ سينفق فجأةً!

– هل أنتَ من سنجار؟

– كلّا، أنا من منطقة (ماردين)، جاؤوا بنا إلى هنا قبل قرابة عام.

صمت الفتى اليافع فجأةً! كأنّه تحسّس شوكةً في حنجرته، وصار يتفقّدها ببحّة صوته المرتبكة الممزوجة بهواءٍ يتقدّم بكاء المعذّبين، سرعان ما طلبت منه (خَنسي) مواصلة الكلام، تقدّمت خطوةً نحوه وتوسّلت إليه ألّا يبكي ويواصل التحدّث إليها. فرتّب الفتى صوته مجدّداً؛ إذْ خلّصه من قبضة بكاء كاد أن ينال منه.

- ما اسمك؟

- شيخو.

- هل بإمكانك الوصول إلى النساء الأُخريات؟

- لا، فبعد فرزنا لخدمة (أيوب بك) منعونا من الخروج خارج أسوار المبنى هذا.

- كم عددكم؟

- أربعة فتيان وأنا خامسهم.

تقدّمت (خَنسي) نحو الفتى، بلعت ريقها، فأصدرَ صوتاً يشبه ذاك المنجلي من احتكاك السيف بحجر التجليخ:

- أحتاج إلى سكّين.

دارت عينا الفتى حول المكان مراراً.

- لماذا؟

تلعثمت (خَنسي) بالكلام قليلاً كأنّها تبحث عن الجملة المناسبة فتنطقها على مسامع الفتى ذي القامة القصيرة.

- لا عليك، هل تستطيع إحضار واحدةٍ لي؟

- لكن كيف؟ فنحن ممنوعون من دخول المطبخ.

- لا أريد سكاكين المطبخ، اسرق واحدةً من أحد الجنود.

– هذا مستحيل يا، يا.. ما اسمك؟

تنهّدت بالنَظْم ذاته الذي يتنهّد به المبتسمون المطمئنون عادةً.

– اسمي (خنسي)، اسمع ما سأقوله لك.

كَمَن يلقي وصاياه، ساعيةً في الحصول على خبرٍ يخصّ أسرتها، أفرغت (خَنسي) بأمانةٍ كلّ ما حدث في أذنَي (شيخو) المواظب على تأمّل معصميها حيث آثار الحبال حولهما بدت كأساور زرقاء وحمراء محفورة في جلدها الأشقر مثل سنابل متربّصة.

بنَظْم سريع قاطع (شيخو) كلماتها:

– هل تهربين معنا؟ أخطّط للهرب من هنا، سأعود إلى قريتي. قبل إحضاري إلى هذا المبنى، اتّفقتْ مجموعةٌ من الشبّان (الإيزيديّين) مع بعض المجنّدين الكُرد في الجيش العثماني.

– «لا تثق بهم يا شيخو، فهُم قتلةٌ أيضاً». قاطعته (خَنسي).

– لكنّهم أكرادٌ مثلنا.

تقدّمت (خَنسي) أكثر نحوه.

– ونحن أيضاً أكرادٌ يا (شيخو)، إلّا أنّهم انحازوا إلى العثمانيّين لأنّهم مسلمون.

– لكنّ الناس في القرية كانوا يقولون عكس هذا الكلام، كانوا يقولون بأنّهم مجبرون على الامتثال إلى أوامر ضبّاط الجيش العثمانيّ.

– مهما يكن، هذا ليس مهمّاً الآن، ستفهم فيما بعد، ألم تسمع أنّ بعض العشائر الكرديّة المسلمة أيضاً تسير على خطى الجيش العثمانيّ وتقتل (الإيزيديّين)؟

- لا، لم أسمع.. في قريتنا كان الرجال يتحدّثون غير هذا الكلام يا أختاه، سأخرج الآن، فأنا خائف.

- هل ستعود مرّةً أُخرى إلى هنا يا (شيخو)؟

- نعم.. نعم، سآتي، فأنا أخدم بجوارك هناك.

أشار (شيخو) بيده نحو جهة وراء جدران غرفة (خَنسي) التي انحنت بقامتها الطويلة على قامة (شيخو)، قبّلت خدّه، فهرع مسرعاً تاركاً (خَنسي) بين جدران غرفتها المعبأة بأثر صوته.

احتفظَ (شيخو) بقامة (خَنسي) الممشوقة، بشعرها الأصفر الطويل، بأثر قبلتها على خدّه، احتفظ بكلّ الكلمات التي دارت بينهما في غرفتها، خزّنها في ذهنه كما تُخَزَّن الكنوز في أمكنةٍ بعيدةٍ وسريّة. احتفظ بخيال قامتها مذبوحةً محمولةً بين أيادي جنودٍ رموها في بئرٍ خارج أسوار مسكن (أيوب بك) إثر محاولتها قتله عبر آنية فخّارٍ همّت بها على رأسه من الخلف. شاهد (شيخو) خلسةً جثّتها وسمع ما أشيع عن الحادثة في أنحاء المبنى. تشبّث بكلّ الصور في ذهنه كأنّها حبل نجاةٍ، لم ينسَ قطّ. احتفظ بكلّ التفاصيل حتّى وصوله إلى قريته خلف جبال (ماردين) المحصّنة بالدعوات والتلاوات السريّة، إثر هروبه رفقة مجموعةٍ من الشبّان (الإيزيديّين) بمساعدة جنودٍ أكرادٍ مجنّدين في جيش السلطان العثمانيّ، الجنود الذين فرّوا إلى العشائر الكرديّة المتحصّنة في الجبال. كأنّ (شيخو) قد وفى بوعدٍ سريٍّ قطعه على نفسه السريّة في ذلك اليوم الذي وقعت فيه عيناه على (خنسي). شكر كل شيء، شكر صديقه الذي كان موته بالسلّ داخل أسوار مبنى (أيوب بك) سبباً لهروبه؛ إذْ طُرِدوا من المبنى إلى معسكرٍ قريبٍ لقتلهم هناك إذا ما ثبتتْ إصابتهم بالسلّ.

احتفظ (شيخو) بكلّ التفاصيل كأنّه سيُسأل عنها عند موته، هكذا كان يقول على طريق الهرب، هكذا قال لمجموعة إيزيديّين التقى بهم في أحد المخابئ التي تحصّنوا فيها بين الجبال، وكانت ترافق رجُلاً إنجليزيّاً، قالوا بأنّه جاء من بلاد مصر ليبحث عن الآثار هنا. شاهده (شيخو)، وهو يدوّنُ على دفتره الصغير شهادات الناجين، بعد أن يترجم له رجُلٌ كرديٌّ جاء معه من مصر، فحفظ اسم الرجُل الإنجليزيّ ذاك، وردّد اسمه طوال الوقت مع ما يردّده في قرارة نفسه: «السيّد واليس بودج، واليس بودج، واليس بودج». ردّد اسمه إلى جانب أسماء تعرّف إلى أصحابها، ردّد اسم (خَنسي) التي لم يسرق لها سكّيناً، قال على طريق هروبه: «أقسم بأنّني فكّرت في سرقة سكّينٍ لها، هل تأخّرتُ؟».

في قريته، بين جبال (ماردين)، قال (شيخو) كل ما رآه، فأُخِذت شهادته وشهادات آخرين ممّن نجوا غرباً عبر الجبال، والسهول، والوديان، أُخِذت كلمات (شيخو) مخزّنة في ذهن أحد المقاتلين إلى قصر الزعيم الإيزيديّ (حسين قنجو).

- ما رأيته أثقل من هذه الجبال.

كانت هذه عبارته الأخيرة التي نطقها (شيخو) قبل أن يرمي بنفسه من شاهقٍ على جبال (ماردين) ليسقط ثقيلاً مثل حكايات المنسيّين، وتستقرّ جثّته في بطن الوادي السحيق كخيالات وجوه الأسرى داخل برك الماء.

حُمِلت روايات الناجين، ووصلت إلى يد القائد (قاسو) عضو مجلس الزعيم (حسين قنجو)، زعيم عشيرة (دنا) في قرية (الهليلية) بمنطقة (سروجه)، فتحيّن بدوره اللّحظة المناسبة لعرضها؛ إذْ نظر إلى الحاجب الذي نقل إليه خبر وصول المراسل من جبال (ماردين)، وأومأ له غمزاً

للخروج والانتظار ريثما يخرج مراسل السلطان، الذي بدوره رشفَ من كأس اللّبن بيده اليُسرى، وبَلع ريقهُ بقوّةٍ حتّى بدا الصوت المنجلي من حلقهِ كأنّه خطوة السجين الأولى داخل قبو قلعةٍ عظيمة. مسح مثلّث شفتيه بالسبّابة والابهام، وسَفَنَ عن جبينه بقبضته الهزيلة قطرات العرق الممزوجة بحبّات الضوء المتدفّق من نوافذ القصر، كلأ شهقةً واسعةً، من ثمّ أكمل قراءة الخطاب، بينما تهيّأ المترجمُ، مال برأسه نحو كتف وأذن الزعيم (حسين قَنجو):

- وكما تُدركون، فقد آنَ أوان نصرة الله والسلطان، ودفع الروس والمسيحيّين عن دولتنا العتيدة، وعليهِ، فأدعوكم مجدّداً إلى اعتناق دين الإسلام، والتأهّب وحزم أمتعة الحرب ضدّ الروس الكفّار وتحيّن النفير، وقد عُدَّ خطابنا الكريم هذا بمنزلة الأمر. التوقيع.. أمير المؤمنين، وخليفة المسلمين، والخاقان الكبير: السلطان عبد الحميد الثاني.

عدّل المُترجم من وقوفه إلى أن استقام ظلّه المنبسط على السجّادة المطرّزة، بينما أعاد المُراسل لفّ الرسالة ودفعها نحو يدي أحد المعنيّين بأرشفة الخطابات. تمتم الزعيم (حسين قَنجو) بالكرديّة لمترجم القصر، فأرشد بيده اليمنى المفروشة والمنحنية مُراسل السلطان العثماني إلى خارج الصالة نحو ركن استراحته ريثما يؤوب إلى الأستانة.

بذلَ (حسين قَنجو) خطواتٍ قصيرةً، شقَّ بها انسياب شعاع الشمس المفروش في الأنحاء، مدَّ رقبته خارج النافذة، وقبضَ بشهقةٍ عميقةٍ على الهواء الممزوج برائحة القرنفل ومراعي (ويرانشهر)، استجمعَ النور داخل عينيه؛ إذْ فتح جفونه على وسعها، شهق بقرب لحيته، وتحدّث في هيئة زفرةٍ خفيفةٍ مثل نهوض الغزال، بالكاد سُمِعَ صوته آن طلب من رجال مجلسه الذهاب إلى غرفة الاجتماعات داخل القصر.

حول صفرةٍ خشبيّةٍ مكسوّةٍ بحبّات التين والمشمش، خيالات الوجوه متراقصة داخل أكواب الشاي الفخاريّة في مرمى الأصابع، اقتعد الخمسة وسائد محشوّةً بصوف الأغنام، منثورةً بانتظامٍ على أرض الغرفة في الطابق الثاني، بينما نفحات الهواء الوافد من النافذة تضرب لفافة خطاب السلطان على الطاولة وتهزّها كأنّها لسان مريضٍ يطلق السكرات.

أسبل (حسين قَنجو) نظرته لحظات قليلة، وزفرَ مثل طفلٍ يُنَوَّمُ على ساقي أمّه؛ إذْ قال:

- لا نملك الكثير من الوقت، ربّما ينبغي لنا البحث في كلّ القرارات.

- وعواقب القرارات أيضاً.

قالها (قهرمان)، وهو يكرُّ خيطاً أسْودَ من كُمّ سترته.

- وعواقب القرارات أيضاً.

كَرَّرَ (حسين قَنجو) جملة (قهرمان) بنَظْمٍ أبطأ، وطمأنينةٍ أبلغ، رشفَ من الشاي، فقأ خيال وجهه داخل كأس الفخّار؛ إذْ أكملَ:

- قد لمحتُ أثر الحطب في خطاب السلطان، فإمّا أن نجعل من ذلك الحطب وقوداً ينيرنا ويعيننا على شدّة الظلام، وإمّا أنّه سيكون وقود نارٍ ستلتهمنا. طلب خمسين ليرة ذهب على كلّ إيزيديٍّ لا يلتحق بالجيش العثمانيّ، هذا مالٌ كثير، كما أنّنا إن أرسلنا شبابنا إليه فإنّنا سنفنى في غضون عامٍ واحد، وهذا هو مراد السلطان؛ لذلك، ما سنقرّره اليوم يُحال إليه مصير القبيلة برمّتها، وإلى الأبد، أرجو منكم أن تسترسلوا في الخيارات لمناقشتها.

أنهى (حسين قَنجو) كلامه، ولملم حبّات السكّر المتناثرة قُبالته على الطاولة، ضغطَ بإبهامه عليها، وأفرغها برأفةٍ في كأسه.

لم يترك (قهرمان) الهدوء هانئاً في الغرفة؛ إذْ فضَّ الصمت بنَظْمٍ بطيءٍ، وهو يلفّ طرف شاله الأبيض القطنيّ حول إبهامه بعد أن قطع الخيط الأسْود من كُمّ سترته، وكوّره برؤوس أصابعه، ووضعه تحت لسانه، وقال:

- أرى أنْ نتجاهل خطاب السلطان، وننتهز انشغال الجيش العثمانيّ بحروبه مع الروس وغيرهم، بذلك لن يكون في مقدوره القتال على جبهتين، واحدة هناك، وأُخرى هنا.

- أجل، ولكنْ مَن يضمن ألّا تتكرّر سنوات السلطان (محمود الثاني) وتعود منطقتنا والقبائل الكرديّة إلى جحيم المحرقة والتجويع؟

أردَفَ (طاهر) بعد رشفةٍ سريعةٍ أخذها للشاي في كأس الفخّار بين راحتي يديه متأمّلاً بخاره المتصاعد.

- ولكنْ وقتها انكسر حليفنا (إبراهيم محمد علي باشا)، ولم يفلح العثمانيّون إلّا بعد عودة الجيش المصريّ إلى أرض مصر، ولم تكن الدولة العثمانيّة في حربٍ مع الروس؛ لذلك استفرد العثمانيّون بنا؛ أمّا الآن، فلن ينهزم الروس وحلفاؤهم.

قال (قهرمان) بالنَظْم ذاته الذي نطقَ به مقترحه الأوّل، وهو يعقد طرف الشال حول إبهامه أكثر.

- أنت تعوّل كثيراً على مواقف الدول الخارجيّة، تتحدّث كأنّ الدول من حولنا ملائكة تتحيّن ضعف العثمانيّين للانقضاض عليهم، وهل تضمن ألّا يتحالف الروس مع العثمانيّين ضدّنا إن تمرّدنا على قرارات السلطان؟ ووقتها أيضاً، دافع الإنجليز والنمساويّون عن الدولة العثمانيّة، وتركت

الجيش العثماني ينهشنا، ولم تحمِنا من عشائر شمّر، بعد رحيل الجيش المصري عن هنا.

قال (طاهر)، وهو يقرع خفيفاً الطاولة الخشبيّة بباطن كأسه، وبنبرةٍ أشدّ تخلّلها سعالٌ خفيفٌ صحّح به موضع صوته في حنجرته.

– يمكننا التشاور مع قبيلة (الملان) في جنوب (ماردين)، فهُم حلفاء لنا، وكذلك عشائر (الكوجر) على ضفاف نهر دجلة، فعلاقتهم بعشائر شمّر وطيدة، كما أنّهم تدخّلوا للصلح بين الشمّر والعشائر الكرديّة وقتها بعد أن استنجد الشمّر بهم.

– أرى أنّك تفكر في بحث توحيد القبائل الكرديّة يا قهرمان، وهل نسيت تهديدات (تمر بك) وبعض العشائر الكرديّة الأُخرى، أليست هي عشائر كرديّة؟ كن أكثر تعقّلاً، ولا تنظر إلى ما يحدث من منظورٍ كرديٍّ، فكثيراً ما كانت تحالفات القبائل هنا متداخلةً ومعقّدةً، تارةً تتحالف قبيلة كرديّة مع أُخرى عربيّةٍ وتهاجم (الإيزيديّين)، وتارةً تتحالف قبيلة كرديّة مع قبيلةٍ كرديّةٍ أُخرى فتدفع عنها هجمات قبيلة شمّر، وتارةً تتحالف قبيلة كرديّة مع قبيلة شمّر، وذاك يتحالف مع العثمانيّين ضدّ مَن كانوا حلفاء، و...، القائمة تطول يا شيخ (قهرمان). الصراع في الشرق قبليٌّ يحوم حول السيطرة على المراعي والأراضي فقط، لا دوافع قوميّة، ولا دينيّة، ولا مبادئ، علينا ألّا نثق بالمطلق، القبائل أدواتٌ بيد العثمانيّين، والروس، والإنجليز. تسكت إذا ما رُزِقت بصفة الباشويّة من السلطان العثماني، وتتمرّد إذا ما فقدت منزلتها في الدولة العثمانيّة؛ أمّا العثمانيّون، فهُم دولة، دولةٌ قائمةٌ على أساسٍ دينيٍّ، وترى وجودها من صلب فكرة إرضاخ غير المسلمين؛ أي: إنّنا نحن –الإيزيديّ، والأرمنيّ، والسريانيّ– المستهدفون

التاريخيّون في السياسة العثمانيّة، ومن هذا المنظور ينبغي لنا النظر بعينٍ ثاقبةٍ وصارمةٍ في القبائل الكرديّة المتحالفة مع العثمانيّين من منظورٍ دينيٍّ لا قوميّ، إن تمرّدنا على السلطان، فعلينا أن نفكّر عميقاً أيضاً بفنائنا، وهذا احتمالٌ حكيم.

أنهى (طاهر) كلامه بأنفاسٍ متعبةٍ، فيما يمرّر شاله الأبيض القطنيّ على جبينه رافعاً عمامته المطرّزة قليلاً بأنامل أصابع يده اليسرى.

- ليس بذلك البُعد، يا شيخ (طاهر)، لكنْ إن تجمّع قرارنا وتكاتفنا على الأقلّ فإنّنا بذلك نستولي على حجّة العثمانيّين، وربّما نعود إلى ما كنّا عليه، زمن (محمود الثاني)، وسنكون خارج سيطرة الدولة العثمانيّة الفعليّة.

قاطع القائد (قاسو) كلام (قهرمان)، بنبرةٍ هادئةٍ؛ إذْ التفت إلى (حسين قنجو) المنهمك في قراءة استنتاجات وكلمات الرجال في المجلس، وقال:

- يا أيّها القائد، عادَ مَن أرسلناه إلى منطقة (ماردين) لاستقصاء أحوال القرى الإيزيديّة في منطقة (سنجار)، أرى أن نسمع ما حمله لنا، فربّما يدفعنا كلامه ورواياته إلى جهةٍ أُخرى خارج ما نتناقش فيه الآن، هو بالخارج ينتظر، أخبرني الحاجب بقدومه عندما كان مراسل السلطان (عبد الحميد الثاني) يقرأ رسالته عليكم، ما رأيكم إن أذنّا له بالدخول؟

- عساه يكون خيراً يا سادة، دعهم يأخذونه إلى الصالة، سنذهب إليه الآن. جاوبه (حسين قنجو)، وتنهّد عميقاً كأنّه أنفق حيرةً في سبيل نطق كلماته تلك.

على صخرةٍ حول نبعٍ بين سهل (سروجه) حيث قصر الزعيم (حسين قنجو) ومنطقة (ماردين)، افترش القائد (قاسو) عباءته، واقتعد الأرض؛ إذْ هدأت حمحمات فرسه عندما نزع السرج عن ظهرها، وأفلتها من عقالها حتّى ترعى حرّةً في الأنحاء الحشائش المتكسّرة حول الخشخاش تحت حرارة شمس الظهيرة. نزع حزام الذخيرة المصنوع من جلدٍ مجهولٍ عن خصره، ووضع بندقيّته على غمد سيفه كي يثبّتها فلا تنزلق على الصخور الصغيرة الملساء، ثمّ رفع سرواله الفضفاض ذا اللّون البنيّ حتّى الركبتين، ورفع كُمَّي سترته وصار يصبّ الماء على ساقيه وزنديه. اختلط خياله مع خيالات مرافقيه داخل الماء الصافي، كما اختلطت أقدارهم ومصائرهم. بعد لحظات تأمّلٍ طويلة، تمدّد خلالها مرافقوه كلٌّ إلى جانب بندقيّته، التفت وزفرَ خفيفاً وتمتم في محور أذنَيْ مرافقه (قَدري) المنهمك بتفحّص موضع إبرة النيشان في بندقيّته الإنجليزيّة، ابتاعها من أحد تجّار الأقمشة في مدينة (ويرانشهر)، إذْ باعه القديمة:

- ليس بمقدوري نسيان ما قاله المراسل في مجلس الزعيم (حسين قنجو)، يبدو أنّ حملة العثمانيّين هذه المرّة أيضاً لا هوادة فيها، لا أحد يحمينا يا (قَدري)، وحدها السماء بمقدورها سماع ابتهالاتنا، ما حدث في (سنجار) لا يمكن تخيّله.

- وعلى ماذا اعتمدتم في المجلس يا سيّدي؟

قال (قَدري)؛ إذْ وضع بندقيّته على ساقيه المتمدّدتين الموضوعتين داخل الماء.

- قصص الناجين من مذابح الجيش العثمانيّ، غيّرتْ محور نقاشنا الذي كان يدور حول رسالة (عبد الحميد الثاني) الموجّهة إلى (الإيزيديّين).

شهقةٌ عميقةٌ أنهت كلام القائد (قاسو)، ما دفع بالمرافق (قَدري) إلى طرح سؤالٍ آخر بعد لحظة صمتٍ تريّث عبْرها لعلَّ قائده يتحدّث مجدّداً:

- وهل أرسل (عبد الحميد الثاني) رسالةَ إليكم؟

متأمّلاً الماء في النبع، قال القائد (قاسو):

- هذا أمرٌ آخر يستحوذ أيضاً على ذهني الآن يا (قَدري)، نعم، أرسل رسالةً، لكنّ الأعظم هو ما أخبرنا عنه مراسلنا بخصوص مجازر (أيوب بك) في منطقة (سنجار) بحق (الإيزيديّين). لا يمكن تصوّرها يا (قَدري)، اقتاد شبابنا وجندهم في الجيش العثمانيّ، ذبح الشيوخ والأطفال، ووزّع النساء والفتيات كسبايا بين جنوده، وأرسل الكثيرات الكثيرات إلى الموصل، حوّل معبد (لالَش) إلى مركزٍ دينيٍّ، ودوّنوا على جدرانه شعاراتهم الإسلاميّة، لا رحمة في قلوب الأتراك يا (قَدري).

مجدّداً شهقة عميقة قصّت كلمات القائد (قاسو)، فقطع نظراته المنسابة في الماء؛ إذْ التفت إلى تنهّداتٍ خرجت من صدر مرافقه (قَدري). وتأمّل في قطرات الدموع على موقَيه، واسترق السمع إليه يقول بنبرةٍ ممزوجةٍ مع بكاءٍ مكتوم:

- وماذا سنفعل يا سيّدي؟

أعاد القائد (قاسو) نظراته وصبّها في النبع مجدّداً، وبعد لحظاتٍ طويلةٍ من التأمّل، بعد أن كرّر مرافقه سؤاله عليه، قال:

- أمرَنا القائد (حسين قنجو) بالعودة إلى قُرانا، وتحيّن هجمات العثمانيّين، والتهيّؤ للدفاع عن ناسنا.

أفرغَ الغروب شيئاً فشيئاً لونه في ماء النبع، أعاد القائد (قاسو) فرسه

من حيث تكلأ، شخرت قرب كتفه، وهو يسرّجها، وتمتم بدعاء السفر قرب لحيته المخضّبة:

- بإذن اللـه، اخترتُ طريق الحق.

أرفع مناجاتي إلى اللـه والملاك الواقف بجانب كرسيّه

طريق الحقّ سِراجٌ مليءٌ بالخير والبركة والنور

أرفع مناجاتي إلى اللـه والملك المغفور

طريق الحقّ بعهدة حامي الطرق

إذا كان جبلاً أم صحراء

التماسنا ورجاؤنا هو الشيخ (آدي) والملك الشيخ (حسن الأدياني).

أن نذهب بالسلامة من هذه الأماكن، لتلك الأماكن

ونأتي بالسلامة من تلك الأماكن إلى هذه الأماكن

مناجاتي للشيخ (شمس التتري)

في حضرته سبعون ألفاً من الصالحين الأخيار

أن يجعل من سفري وسفر أصدقائي خيراً دائماً وأبداً

- سنسير طوال اللّيل، يجب علينا أن نصل إلى (ماردين) فجراً.

وكخيط الغروب انحنى القائد (قاسو) على الأرض، ولملم فتات الخبز الذي تناثر على الصخرة؛ إذْ رفع عباءته المعبّأة بأثر الأحاديث والقلق، جمّعها فتظهر واضحةً في مرمى نظرات الطيور العابرة، وولجوا بأفراسهم قاع الغروب المتآكل والمستسلم للعتمة.

في القرية، لم تكن قد مرَّت بضعة أيّامٍ بلياليها على وصول القائد (قاسو) مع مرافقيه، قادمين من منطقة (سروجه) حيث قصر القائد (حسين قنجو)، تناثرت في أذنيه كلمات مراسلهم مثل حبّات البَرَد.

- سيّدي، لقد أعلن أئمّة مساجد المقاطعة نبأ اعتناق القائد (حسين قنجو) الإسلام.

عينا القائد (قاسو) انفتحتا على وسعهما كأنّ نور الشمس في فناء قصره انحسر فجأةً! بعد تمتماتٍ عديدةٍ وتأتأةٍ وفّق في النطق:

- هذا محض افتراء! هذه هي سياسة العثمانيّين يا إخوة، منذ سنوات وسنوات يحرقون مَن لا ينصاع لأوامرهم بهذه الإشاعة، حتّى إنّ الزعيم (حسين قنجو) كان قد تهيّأ لمثل تلك الإشاعة، هدّئوا الناس ولا تدعوا الريبة تدخل قلوبهم، وماذا حدث؟

بنبرةٍ عاليةٍ ونَظمٍ سريعٍ وجّه سؤاله نحو المراسل:

- قالوا: إنّ الجيش العثمانيّ اعتقل الزعيم (حسين قنجو) في مدينة (ويرانشهر)، فدبّ الرعب في نفوس (الإيزيديّين) بسروجه، و.. و..

تأتأ المراسل.

- وماذا؟ لماذا لا تكمل؟

سأله القائد (قاسو)؛ إذْ اقترب منه، فرفع المراسل نظراته عن الأرض ووضعها في مرمى وجه القائد، وقال:

- لقد رَمَت ابنة الزعيم (حسين قنجو) بنفسها عن سطح القصر وانتحرت يا سيّدي؛ خشية السَبي.

اقتعد القائد (قاسو) كرسيه المصنوع من الخيزران والقصب، كأنّه

ضُرِبَ بلكمةٍ لا مرئيّة هدمت قواه. بعد لحظات صمتٍ طويلةٍ، نهض مجدّداً وقال:

– هيّئوا أنفسكم للدفاع عن القرى في منطقة (ماردين)، وأرسلوا مَن ينقل كلامي إلى شيوخنا في جميع المقاطعة.

– أوعز السلطان (عبد الحميد الثاني) إلى أئمّة المساجد في الولاية أن ينادوا بخبر اعتناق الزعيم (حسين قنجو) الإسلام. هذه الإشاعة كفيلة بتحوير خطاب العشائر الإيزيديّة وسوقها إلى فكرة اقتلاعها بالوسائل كافّةً، جميع عشائرنا يا (سلتي).

– الملك طاووس سيحمينا يا أخي، اهدأ قليلاً.

قالت (سلتي)، بينما طبطبت براحة يدها اليمنى على كتف القائد (قاسو).

– لقد تحدّثت إلى (كالو) وحضّرت معه كلّ شيءٍ يا أختي، سيرافقك أنت و(عَيشانه) إلى سهول (ماردين)، هو يعرف كلّ شيء، لنا أرض هناك بالقرب من قرية (كَوندِك). ثقوا بالسيّد (جومَرد) هناك، ستهربون اللّيلة، لا تتردّدي، كنّا قد تناقشنا أنا وأنت حول هذا الاحتمال يا أختاه، سأبقى هنا لقتال العثمانيّين وصدّ هجماتهم عن منطقتنا، كي أكون حُرّاً ارحلوا اللّيلة، فبقاؤكم سيضعفني.

كلّ التفاصيل، استرجعتها (سلتي) داخل ظلام الكهف، كلّ شيء، تُكرّر ما حدث في ذهنها، فلا ينال منها وحش النسيان، قالت ذات يومٍ لـ(عَيشانه): «يا عزيزة قلب عمّتك، النسيان وحش، إن نال من المرء أفناه، لا يرحل المرء بالموت يا عزيزة قلبي، النسيان هو مَن يفني المرء، مَن يقتلع

جذور وجوده، كثيرون لم يموتوا، لكنّ النسيان استولى عليهم». تعيد كلّ التفاصيل بينما تسترق السمع إلى (كالو) المنشغل بأكل حبّات تينٍ أخذها من راحة يدها المنبسطة الممدودة مثل فخٍّ على أثر صوته؛ إذْ رمى حبل قلبه في قاع الظلام وتسلّق أثر بحّة صوت سيّدته، وهي تقول له: «هاك تيناً يا (كالو)». وتناثر خلال الأصداء الممسوسة بالخوف في الكهف العميق صدى صوت (سلتي) تُتمتم بدعاء العقرب والأفعى:

«العقرب عقرب لادغ

العقرب والحيّة مؤذيان

قوموا بلجمهم وأطلقوهم للصحاري والقفار

بإذن الشيخ (مَند) باشا و(البير جروان)

لا يصدر منهما ضرر

لا لنا ولا لجيراننا

أيها الشيخ (شمس التتري)، أغلق فم الحيّة

وأبطل مفعول لدغة العقرب

إلى أن يطلع الفجر».

VI

كحلُ الحجر

أ

لا ينال منها ذاك الدافع المبطّن الذي ليس ممكناً استدراكه، لذلك لا تُستَدرَج صوب صوت المُحاضِر إذْ يقرأ بالألمانيّة والإنجليزيّة عن تفاصيل وتواريخ وأهميّة القطع الأثريّة لزوّار قسم (تل حلف) في متحف (بيرغامون) بمدينة (برلين). كأنّها هي الأُخرى متحجّرةٌ، جاحظة العينين ترى في عيني تمثال (فينوس الجميلة) المصنوع من البازلت، جديلتيها الشقراوين معبّأتين بأثر صابون زيت الغار، منسابتين مثل جناحي طائرٍ مطمئنٍّ على كتفيها، تُحمَلُ نظراتها البشريّة على عرباتٍ خشبيّةٍ لا مرئيّة صوب قطع الأحجار الصغيرة النافرة والمتكسّرة مثل شاماتٍ على كلّ التمثال. تتحجّر بدورها كأنّها استُخرِجت هي أيضاً من باطن أرض قرية (تل حلف) القريبة من مدينة (رأس العين)، في شمال شرق سوريا، وعبرَ بها الألماني (ماكس فون أوبنهايم) -بعد الحرب العالميّة الأولى- البحارَ، واستودعها متحفاً خصّصه لعشرات القطع الأثريّة التي جلبها من هناك بعد الاتّفاق مع حكومة الانتداب الفرنسيّ في سوريا وقتها. وأطلق اسم (تل حلف) على المتحف الذي لم يكن مُسَجّلاً في إحداثيّات وملفّات قوّات الحلفاء إبّان الحرب العالميّة الثانية، وقُصف إثر ذلك ودُمّرت كلّ

القطع الأثريّة فيه، وتحوّلت الى أكثر من 27 ألف قطعة. قبل أشهر قرأت ما دفعها إلى زيارة المتحف، عبر مقالةٍ في جريدةٍ ألمانيّةٍ كُتب فيها بخصوص الانتهاء من ترميم قطع كثيرة من آثار (تل حلف) ولصقها بعضها ببعض. كان الخبر هذا شبيهاً بصورةٍ خفيّةٍ بما في داخلها، لذلك ما من أحد قادر الآن على فكّ زفراتها المتحجّرة؛ إذْ تخرج من صدرها المتحجّر وتُنثَر على قطع الآثار الصغيرة. قرأت انكسارات لا مرئيّة على الأحجار المتكسّرة، التي جُمعت ونُظِّفت من رائحة بارودٍ التهمها قبل أكثر من ثمانين عاماً. لكنّ رائحة البارود لم تزل ممهورةً في صدرها، لم تنل رتبة النسيان التي حظيت بها (فينوس الجميلة) البازلتيّة المستخرجة من تحت تراب مدينةٍ انقلب على والدها؛ إذْ قُصف بيتهم على يد الجماعات السوريّة المتشدّدة المدعومة من تركيا عام 2012. يرافقها البارود مثل بَصمتها، أو بطاقتها الشخصيّة، كما لو أنّه خروج المرء الأوّل إلى الإيمان بعدم النسيان.

ساكنةً، بالتمتمات المتحجّرة توثق جديلتيها المتحجّرتين كأنّهما مريدات الحجر، إلى جديلتي (فينوس) البازلتيّة التي تتوسّط القاعة، قالت في قرارة نفسها الحجريّة:

- أنتِ ماضي وجودي، حاضره ومستقبله، نحن منكِ يا (فينوس)، وأنت أثر الراحلين إلى الفناء، أنت نظراتهم المتحجّرة، أنت ما تبقّى لهم، وأنا بكِ ما تبقّيت من أسرتي. تُرى، لماذا تُلقى صفة الحجر على مَن لا رأفة في قلبه، بينما وفي الوقت ذاته يهمُّ البشر في التحارب من أجل توثيق وجودهم عبر حجارةٍ تُخرج من باطن الأرض؟ هَمُّ البشر الوحيد هو توثيق وجودهم القديم المنسيّ، يتوسّلون الحجر ليشهد لهم، كأنّما هُم في قاعة محكمةٍ أبديّةٍ يتنافس فيها القضاة، والمتّهمون، والمدافعون عن

استبيان الأقدم منّا، لماذا يا (فينوس)، يا أمّ نظراتي المرتمية في أحضان نظراتك المتحجّرة؟ كلُّ عاطفةٍ حجرٌ، كلُّ حجرٍ دليلُ الفانين، ما من نسبٍ آخر يجمع بين العاطفة البشريّة والحجر سواكِ الآن يا (فينوس)، شاهدينا بنظراتك المتحجّرة، تأمّلي في عيون الزوّار المعبّأة رأفةً، ودهشةً، وعاطفةً؛ إذْ ينظرون إليكِ، هُم يشاهدون فيكِ أثر وجودهم الفاني، أنت لعبة البشر الأزليّة، يخرجونكِ من مملكتكِ في باطن التراب كي يقطعوا بك البحار والدول، ويستودعونك متحفاً، يذرفون الدموع في حضرتكِ على ماضيهم المتحجّر المنفيّ، لماذا ليس بمقدور المرء أن يحيا من دون تاريخه، بينما يهرب في اللحظة ذاتها من ذاكرته، يمتطي فرساً مسرّجةً بالألم ويرحل صوب أرض النسيان؟ عليَّ أن أنسى مَن ماتوا هناك كي أبقى بعيدةً عن فخاخ الموت، في اللّحظة ذاتها أراني مرتميةً في أرض ظلّكِ الحجريّ، متحجّرةً أرى فيكِ أثر الأجداد الذين تحوّلوا إلى ترابٍ متحجّرٍ واهتدوا إلى الفناء. ما هو الفناء يا (فينوس)؟ يا خطاب الفانين إلى الراحلين صوب الفناء.

تخرج قطرةٌ متحجّرةٌ مشعّةٌ وصغيرةٌ بحجم الدمعة من عينها المتحجّرة في مرمى نظرات (فينوس) البازلتيّة داخل قاعة (تل حلف) في متحف (بيرغامون) بمدينة برلين البعيدة عن ترابٍ وُضِعَ على جروحها لتلتئم وتُنسى.

لحظات الفجر الأولى، اختلط بريق المَدافع مع شعاع الشمس الأوّل، كانت نائمةً على سطح بيتهم في مدينة (رأس العين)، لم ترَ والدها إذْ استيقظت. كان الخرابُ أسرع من الصوت، لم ترَ الخراب، إنّما أيقظها صوت مدافع دبّابات الغزاة، لم يلتقِ الخراب وصوته قطّ. بأذنين مسدودتين

وعينين معبّأتين دماً ودمعاً هبطت عن سقف البيت. ظنّت أنّها هبطت عبر قدميها، كان الخراب هو مَن هَبَط بها، وهي نائمةٌ على سرير الحديد، إلّا أنّ قدميها مَن أخذتها صوب ما ستحياه إلى الأبد. لم يُعثَر على والدها، كان التراب قد زمّله واستودعه داخله كما أُخرِجَ من باطنه تمثال (فينوس) البازلتي على حدود مدينتها.

قالت في قرارة نفسها المتحجّرة داخل صالة المتحف الحجريّة لـ(فينوس) الحجريّة:

– هل تراب (رأس العين) رحيمٌ رؤوفٌ يا فينوس العزيزة؟

بخطواتٍ متحجّرةٍ تسير داخل قاعة المتحف، يتبعها ظلّها المتحجّر المتنقّل بين أيادي الأضواء الحارّة والخافتة المنتشرة داخل القاعة، تجرُّ وراءها ما يثقل ظهرها لتستودعه النسيان. كلّ خطوةٍ تبذلها هنا هي في سبيل النسيان والتذكّر في آن: نسيان موت أسرتها، وتذكّر خطوات الفانين المتحجّرة على القطع الأثريّة داخل هذا المتحف. تتأمّل صورةً بالأبيض والأسْود لسكّان مدينة (رأس العين) متجمّعين حول البارون الألماني (ماكس فون أوبنهايم) ملصوقة على غلاف كُتَيِّب، تقترب من صحنٍ متحجّرٍ موضوعٍ على طاولةٍ حجريّةٍ تحرسها الأضواء الخافتة، تميل عليها، كمسافرٍ منبسطٍ على البراري يميل على فوهة نبعة. مالت على جدولٍ تزاحمت فيه الجواميس، شاهدت وجهها للمرّة الأولى بعد شهرين قضتهما في الجبال والغابات التركيّة خفيةً رفقة ثلاث نساء، وشابّ، ومُهرّب تركيّ ستّينيّ. مالت على الجدول المخبوء بين الأجمات والقصب في الحدود التركيّة / اليونانيّة، ومزّقت خيال وجهها المنعكس في سطح الماء رماديّ اللّون، أزاحت القشّ عن الماء براحتي يديها، كأنّها

خاطت جروح وجهها، ليظهر خيالها أكثر وضوحاً داخل الماء، قرَّبت رأسها ورشفت بضع قطراتٍ ولجت بطنها سريعاً، شربت الماء من نقطة خيال فمها المنعكس فيه، قبّلت فمها، تداخل خيالها المنسيّ مع وجهها الحقيقيّ الماضي إلى النسيان.

أعادت رأسها إلى موطنهِ، لم يكن بمستطاعها تأمّل الصحن الحجريّ داخل المتحف أكثر من ذلك؛ إذْ تداخلت الأقدار والأزمنة، إلى أن تمتمت في نفسها:

- صحنٌ حجريٌّ موضوعٌ في متحفٍ بمدينة (برلين)، قادمٌ من باطن تراب مدينتي، يعيدني إليها.

لكنْ في اللحظة ذاتها، لم تسأل الرحمة في الأجوبة، هجرت تلك الأرض التي يغرس المطمئنّون في ترابها الريبةَ، أنّها مريدة الفناء، لذلك هشّت مجدّداً على الطير الذي نقر في ذهنها، وأعادت عينيها إلى عشٍّ خفيٍّ ممسوسٍ بقلبها. أرسلت نظراتها في سبيل استدراك أثر الراحلين على القطع الأثرية المنتشرة في أرجاء صالة المتحف. أسندت قامتها الحجريّة إلى الظلال الحجريّة وتوجّست بالغاية التي تدفعها إلى مراقبة وتفحّص التماثيل البازلتيّة برأفةٍ لا هوادة فيها، شاهدت فيها أهلها العائدين من عالم الموت، ذلك العالم الذي أنفقت سنوات من عمرها في سبيل نكرانه والخروج على حقيقته في ألمانيا التي لجأت إليها نهاية عام 2012.

- لماذا هربتُ من مدينتي إذاً؟ لماذا أتلمّس نفسي عبر هذه الحجارة المستخرجة من ترابها؟ أوّاه، هل للنسيان موطنٌ كي أفني ذاتي في ذاته؟ أين هو موطنك يا أيّها النسيانُ؟

سألت نفسها في هيئة تمتماتٍ متحجّرةٍ هبّت من تشقّق شفتيها

المرتعشتين المتحجّرتين المواظبتين على التلقين كأنّها تُردّد صلوات المريدين، مريدة من وماذا هي؟

عادت مجدّداً إلى تمثال (فينوس الجميلة)، وقفت قبالته تماماً، بالأنفاس ذاتها التي وقفت بها على ركام بيتها في مدينة (رأس العين)، وجهها المعبّأ بأثر البارود والدخان، مغيّبٌ في أثر المفقودين، ذاكرتها تجترّ صورها بسرعةٍ فائقةٍ كزمنٍ سيُنفَق بعد لحظات، كان الزمن أقصر من شريط صورها. تُعاد الصور آناء الفَقد إلى الخروج من أوكارها، وتلدغ المرء كيلا يسهو:

– تُرى، هل صُنِعت الصور لتعذيب المرء أمَ لإعانته على النسيان؟

سألت موطن الرجاء في قلبها، توسّلت إليه داخل قاعة المتحف، وسرعان ما عادت مجدّداً حيث تقف على أثر بيتها الذي حذفه القصف كما يُحذف وجود الشعوب من كتب تاريخ يتصفّحها الطغاة والغزاة. في أذنيها المعبّأتين بارود ودخاناً تسعى إلى فرز أصوات الناس، عويلهم وبكائهم، تتحيّن شكل لفظ اسم والدها، تحيّنت صوت والدها وتوسّلت إليه أن يخرج إليها من مكانٍ ما داخل الدمار ويلج أذنيها، تماهت في تمعّن الأصوات الوافدة إلى أذنيها في الشارع الممتلئ بخطوات الدمار، والنار، والغبار، أغمضت عينيها كأنّها ادّخرت طاقتها في سبيل الصوت وحسب: «هل أصوات الراحلين مثل صورهم؟». صارت بزمنين الآن: زمنٌ يسير في عينيها المرفرفتين على أثر الماضين في القطع الأثريّة داخل متحف (بيرغامون) بمدينة (برلين)، وزمن أذنيها المنتصبتين على مرمى بيتها المقصوف تتحيّن عذوبة صوت والدها في مدينة (رأس العين).

لم تكن المرّة الأولى، سبق أنْ تحوّل الزمن لديها على الحدود التركيّة

/ اليونانيّة، آن همّت بولوج القارّة الأوروبيّة برّاً، رفقة ثلاث نساء وشابّ، جميعهم من مدينة (رأس العين). لحظة دخولها إلى الأراضي التركيّة سرّاً، هيّأت نفسها لركوب القارب المطّاطيّ، تصالحت مع فكرة الموت غرقاً في بحر (إيجه) الذي يفصل تركيا عن اليونان، أعدّت في ذهنها كامل الأسئلة ودفنتها تحت شجرة تينٍ مرّت عينها بها سريعاً على الطريق الترابيّ، إلى أن سمعت كلام المهرّب التركيّ يقول لهم بإنجليزيّةٍ ركيكة: «الحدود البحريّة مغلقة الآن، تهريب البشر أيضاً سلاحٌ تستخدمه تركيا، تركيا هي الدولة الوحيدة التي تملك هذا السلاح، نفتح خطّ التهريب البحريّ، وفي المفاوضات مع الاتّحاد الأوروبيّ نأخذ منهم مليارات من عملة اليورو، اليورو وليس الدولار، ومن ثمّ تغلق حكومتنا خطّ التهريب البحريّ، ونفتح خطّ التهريب البريّ، الآن تقتضي السياسة يا رفاق أن ندخل أرض اليونان براً». ثمّ ضحك المهرّب قرب ياقة قميصه، تحت لحيته البيضاء.

بعد كلام المهرّب، تمرّنت على فكرة الموت بين الغابات، أو في البراري. صارت تعيد بناء كلّ أسباب وأدوات ووسائل موت اللاجئ في الغابات على حدود الدول، وسرعان ما دفنت الأسئلة حتّى قبل الوصول إلى أجوبتها، دفنتها تحت شجرة تين أُخرى مرّت نظراتها بها سريعاً. لم يعد الموت يشغلها، على الأقلّ كانت هكذا تقنع نفسَها، وهي واقفةٌ على جدول ماءٍ ملوّثٍ بين القصب والأشجار تتناطح فيه الجواميس؛ إذْ تأمّلت وجهها في الماء الرماديّ، وهي تزيح القشّ عن سطحه، وتقبّل خيال فمها فيهِ. كانت تقول في نفسها: «إن متّ سألتقي بأحبّتي، وإن نجوت، سأواصل حربي مع النسيان والتذكّر في آن، تُرى، هل ينزاح السرّ عن الموت بعد أن يمضي أحبّتنا صوب أرضه؟». إذاً، لم تكن المرّة الأولى التي عاشت

فيها بزمنين مختلفين في آنٍ واحد، اعتادت ذلك، صارت مؤمنةً بأنّه أمرٌ اعتياديٌّ، وبأنّ الذين يفقدون أحبّة وحدهم من يعيشون على نحوٍ طبيعيّ.

رَبَّت موظّف المتحف على كتفها، لم تفزع، ولم تلتفت إليه، فقط دفعت أذنيها صوبه كي تستطلع ما يقوله الموظّف لها بالألمانيّة:

- سيّدتي، أنا أتحدّث إليك منذ دقيقة ولا تجيبين، هل كلّ شيءٍ على ما يرام؟

لم تلتفت إليه، كانت مواظبةً على التمعّن في جديلتي (فينوس الجميلة) البازلتيّين:

- أنا من هناك.

- العفو يا سيّدتي؟

- أنا من هناك.

- من أين يا سيّدتي؟

ربّما ارتاب الموظّف من وقوفها الطويل متحجّرةً أمام التماثيل، فهو مراقب المتربّصين بالتماثيل، لا بعواطف الزوّار، لذلك لم يعر اهتماماً لكلامها، كأنّها حتّى لم تقل شيئاً، ما يهمّه الآن هو معرفة سبب شرودها، وبأنّها لا تضمر فعلاً سيّئاً تجاه التماثيل في قلبها، فمضى؛ إذْ تمتم بهدوء:

- أجل، آه، نعم، أجل، نعم.

القسم الثاني

I

في عيونهن
مرَّ السياجُ

أ

خفيفةً، كأنّها تُركَل بقدم طفلٍ يحجل على البيادر، خرجت الشمس عابرةً خطَّ الأفق الذي يفصل حدود اللّيل عن حدود النهار، والخشية عن الطمأنينة، والهواجس عن البيان. خرجت وتدحرجت على السهول الفسيحة المتدثّرة بالبابونج، والخبّيزة، والحشائش. تأمّل (كالو) راحتي يديه وحرثهما بزفرات مكتظّة بالأسئلة والتوجّسات. وضع عينيه الفارغتين من النوم في عيني العجوز (جومَرد)، وأرسل إليهما عبارةً تشير إلى الرضى، سرعان ما قُرِئت في هيئة خطوطٍ رُسِمَت على ملامحه، في مرمى نظرات العجوز ذي القامة الطويلة المنحنية كأنّ حملاً خفيّاً غير مرئيٍّ ينهك ظهره؛ إذْ عاد العجوز (جومَرد) إلى قرية (كوندك)، همَّ (كالو) بفأسه على بقعةٍ من الأرض حدّدها فتكون موطن بيتهم. تهاوت قطرات العرق من جسده الضخم ممزوجةً بأشعّة شمسٍ قدحت رأسه، وكَوَت نظراته، فبدت البئر المرتمية في ضربات فأسه بهيئة سرابٍ مفتوحٍ ولا نهائي. قال لسيّدته (سلتي)اللّيلة الفائتة: «لا يمكنني تصوّر مستقبلنا مع الأرض من دون بئر، عليّ استخراج الماء أوّلاً كي أبني بيتاً لنا فنبدأ عمرنا الجديد في هذا المكان الفسيح». لذلك كانت كلّ ضربة فأس بمنزلة خطواتٍ معدودةٍ

ومجهولةٍ تقرّبه إلى قراءة مستقبلهم الجمعيّ. يحفر من لحظات الفجر الأولى، ليعود أدراجه يمشي أمتاراً لا تتجاوز الألفين صوب بيت العجوز (جومَرد) في قرية (كوندك)، يمثّل في مضافته الواسعة دور الأصمّ، فيفرّ إثر ذلك من أسئلة القرويّين.

يومان وليلة، ختمهما الزمن في عمره حتّى أنجز حفر البئر. همَّ فجر اليوم التالي بصناعة اللّبنات من ترابٍ أحمر جبله مع التبن، ليبدأ بناء البيت. في كلّ ليلةٍ يعود فيها من ركن عمله إلى بيت العجوز -حافظ سرّهم- يضع رأسه على الوسادة داخل الغرفة التي خُصّصت لهم، يسترق السمع إلى قصص تحكيها (سلتي) لـ(عَيشانه) قبل النوم. لم يكن حبّه للقصص ما يدفعه إلى الاستماع متمدّداً في فراشه بزاوية الغرفة فيما سيّدته و(عَيشانه) متمدّدتان على فراشٍ في الزاوية الثانية. كانوا يقرّبون الفراشين من بعضهما كلّما طرق عليهم أحد باب الغرفة، ويبعدونهما عن بعضهما مجدّداً إذا ما بقوا ثلاثتهم بمفردهم داخلها. لم يكن حبّه للقصص والحكايات ما يدفعه إلى الاستماع، إنّما ليستكشف من نبرات صوتيهما الطمأنينة، ويعرف سبيل السكينة عبر هواجسهما. كان مواظباً على تفقّد كلّ شيء، يتربّص بالخطب قبل وقوعه، ينجز أجوبةً لأسئلةٍ لا متناهية في ذهنه، فيكون متمكّناً من إتمام مهمّته بعنايةٍ لا مثيل لها. هذه المهمّة التي أوكلها إليه قائده (قاسو). يتمدّد كلّ ليلةٍ في فراشه، يسترق السمع إلى صوتي: (سلتي)، و(عَيشانه)، يتفحّص مقياس التعاسة والألم في نبراتهنّ. وفي اللّحظة ذاتها يواظب على تخطيط ما سيفعله صباح اليوم التالي، يرسم مخطّط الغرف في ذهنه، طرق البناء، الأدوات والوسائل، ينجز كلّ شيءٍ لينهض فجر اليوم التالي مجدّداً، يمضي إلى (شورِك) التي سيحوّلها إلى قريةٍ له ولـ(سلتي) و(عَيشانه). كلّ

ليلةٍ يقول في نفسه: سأسأل سيّدتي عن معنى اسم (شورِك) ومن أطلقه على تلك البقعة الخالية من البيوت، إلّا أنّه ينسى ويتذكّر سؤاله في لحظات العمل في بناء بيتهم. صنع تنّوراً وأنهى بناء غرفتين ومرحاضٍ صغيرٍ بعيدٍ عن الغرفتين -حفر جورةً عميقةً فيجتمع داخلها البراز والبول- وسوَّر ما بناه باللّبنات والطين، وصنع باباً من خشبٍ جيء به مع لوازم أُخرى من مدينة (ماردين) محمّلة على عرباتٍ تجرّها بغالٌ بدينةٌ رسنها بأيادي ثلاثة قرويّين أرسلهم (جومَرد) كعونٍ وهبه لـ(كالو) الأصمّ الذي عمَرَ قرية (شورِك) بمفرده. وأكملَ تلاوة الطمأنينة في قرارة نفسه في لحظات اللّيل العميقة كمَن يصادف البكاء في خلاءٍ معتمٍ داخل عينيه. راقب السهول الشاسعة كأنّه يتحيّن قادماً في هيئة نورٍ يرشده إلى موضع الطمأنينة داخل نفسه. اقتعد الصخور الصغيرة التي سيّج بها رقعة أرضٍ واسعة زرع في ترابها الخمريّ أشجار عنبٍ جيء بها بالعربات ذاتها مع الثيران ذاتها والقرويّين الثلاثة من المكان ذاته، عندما طلبت منه (سلتي) زرع كرمٍ يشبه الكرم في قريتهم بـ(ماردين). اقتعد الصخور الصغيرة وسأل نفسه:

- ما طعم البكاء؟ لماذا يبكي البشر؟

ارتاب من عدم قدرته على البكاء، لم يكن قد فكّر بالأمر من قبل؛ كان منهمكاً بعمله في قصر القائد (قاسو)، يعمل من بداية النهار إلى نهايته. إلّا أنّه انفتح على السؤال ذاك فجأةً! هكذا، كَمَن يُغطّس في ماءٍ باردٍ، عندما تأمّل بكاء سيّدته وحيدةً مستغلّةً اللّحظات التي كانت تخلد فيها (عَيشانه) إلى النوم، شاهدها من نافذة غرفته، كيف كانت تخرج من غرفتها ليلاً إلى حوش البيت، تجلس على الأرض بجانب شجرة التين الصغيرة، ومن ثمّ تجهش بالبكاء. تكرّر المشهد ذاك أمام ناظريه. لم يمتلك الجسارة كي

يسألها يوماً عن سبب بكائها، لم يكن بمستطاعه حتّى تخيّل السبب، سأل نفسه كثيراً كي يقبض على ذلك السحر الذي يدفع البشر إلى البكاء، إلّا أنّه لم يحظ بملامسته. مراقبته الطويلة لها دفعته إلى الولوج في زنزانة نفسه المريبة، ارتاب وتحوّر السؤال وتحوّل إلى وحشٍ ينال من ذهنه المعبّأ بالتفكير في البكاء. اكتشف بأنّه لم يبك قطّ. لم يبك عندما قتل العثمانيّون والده، لم يبك عندما حُجر على والدته في كوخها رفقة السلّ، لم يبك عندما ماتت، لم يبك لحظة دفنها، ولم يزر قبرها قطّ. فكّر وهو داخل الكهف على جبال (ماردين)، ما إن كان عليه زيارة قبر والدته أم لا. تنبّه للأمر عندما زارت سيّدته مقبرة العائلة في ليلة هروبهم من قريتهم. فكّر كَمَن يكتشف التفكير من جديد. لم يبك حتّى عندما ترك القصر. لم يبك عندما عانقه القائد (قاسو) قبل هروبهم بلحظات. كلّ تلك الأحداث صار يسترجعها فيفنى سؤال البكاء داخل نفسه كما تُفنى نظرات المنسيّين داخل الظلام. على تلك الصخور سوَّر ظلّه الضخم شتلات العنب الرشيقة مثل التذكّر في لحظات الغروب. يتأمّل ويراقب الشمس المنسابة على الفراغ الواضح مثل طعنةٍ في جسدٍ بريء، ينتظر خبراً من القائد (قاسو)، ينتظر القائد نفسه. كلّ يوم، في لحظات الاستراحة من العمل في البستان الصغير الذي وضعوا شتلاته ليعينهم على البقاء ببطونٍ ليست خاوية، كَمَن ينتظر موته، راقب صوته الذي بدأ يختفي وقعه في أذنيه، مرّات عديدة كان يغنّي بصوتٍ مرتفعٍ كي يتذكّر صوته؛ أخذ أمر سيّدته في أن يتظاهر بالصمم إلى حدود الطاعة القصوى، أصبح قليل الكلام حتّى معهما، على الرغم من أنّهم كانوا ثلاثتهم فقط يسكنون ذلك الفضاء، بقي متظاهراً بعدم قدرته على النطق. لا يعرف كيف حدث وصار هكذا محترفاً، لذلك

توجّس بالصوت، وأخذ يغنّي تلك الأغاني التي تعلّمها من عمّال القصر والفلّاحين بقريتهم البعيدة، يغنّي كأنّه ينادي على تائه. يغنّي تارةً، ويلفظ اسمه تارةً أُخرى، صار يتحدّث إلى نفسه كأنّه انشطر إلى نصفين: نصف يعمل بجدٍّ وأمانةٍ، ويحمي سيّدته وابنة سيّده، والنصف الآخر الذي بدأ يكتشفه؛ إذْ لامست يده يد الوحدة في البستان الصغير وكرم العنب. أنفق الكثير من الوقت في سبيل هجر عادة الإيمان بأنّه ليس أصمَّ، إلّا أنّه أخفق، وسقط عن ظهر فرس ترسله الوحدة للممسوسين بأنفسهم. مَسَّ (كالو) نفسه، هل صار قرين ذاته؟ سأل نفسه ذلك السؤال الذي يجتاح المتربّصين بخيال أجسادهم المنعكسة خلال ماء بئر في أرضٍ غريبة.

غائباً في نفسه المنشطرة، حوّل ذاك الفراغ إلى مسكن تأمّلاته، إلى ركنٍ ينضح بكلّ ما يدفعه إلى الطمأنينة، هل اطمئن؟

ب

كانت (شورِك) قد بدأت شيئاً فشيئاً تأخذ هيئة وملامح قريةٍ صغيرة. ثمانية بيوت عُمِّرَت من اللّبنات والطين الممزوج مع التبن، تلك الخلطة المعماريّة التي تناقلها الناس مثل أسمائهم ووشومهم. بُنيت البيوت الثمانية بأيادي أشخاص هجروا قراهم في الجنوب والشمال، واشتروا الأراضي المجاورة لأرض (عَيشانه)، و(كالو)، و(سلتي)، من أولاد السيّد (جومَرد) صاحب قرية (كوندِك) البعيدة عن (شورِك) أمتاراً لا تتجاوز الألفين. كلٌّ لسببٍ مكتومٍ ومطيَّنٍ بطين الأبد هجر موطن ولادته، حتّى إنّ سؤال أحدهم للآخر عن سبب هجره ناسه وقريته تحوّل إلى سؤالٍ مقدّسٍ لا ينبغي تلويثه عبر لسان السائل. أخذت الفكرة تلك شكل معتقدٍ ساد بين الناس وقتها. لم يُسأَل (كالو) قطّ، السؤال الأخير الذي وُجِّهَ إليه كان من لسان سيّدته (سلتي) داخل ذلك الكهف العميق في جبال (ماردين)، ذاك السؤال عن دينه.

(كالو) لم يكن قد سُئِلَ منذ يوم ولادته غير تلك المرّة التي اعتقد فيها بأنّ الظلام انجلى حول شخصه، وسرعان ما سقط عن فرس خفية خُلِقَت في ذهنه، واختفت آنَ طلبت منه سيّدته (سلتي) أن يمثّل دور

الأصمّ طوال حياته القادمة كي يُدفَن للأبد سرّ هروبهم من قريتهم على تخوم مدينة (ماردين). أطاع سيّدته. كان لزاماً عليه تمثيل دور الزوج أمام الناس والسائلين. صارَ أصمّ، وأبكمَ، وزوجاً وهميّاً. كل شيء، كلّ تلك الأحداث كانت في سبيل حماية سيّدته و(عَيشانه) وحسب. سأل (كالو) نفسه مراراً: «هل (سلتي) بصّارة عظيمة؟»؛ إذ حدث كلّ شيء بالدقة ذاتها التي نطقتها له داخل ذلك الكهف المظلم، ماتت بالسلّ بعد سنواتٍ قليلةٍ من هروبهم، واستودعت (عَيشانه) الأمان الفسيح داخل صدر (كالو) ضخم الجثّة الذي بَأَرَ بئراً في يومين وليلة، وشكَّلَ اللّبنة الأولى على أرضٍ أعطاه قائده (قاسو) ورقة ملكيّتها، وسلّمها له مرسومة الحدود بالصخور والسواتر الترابيّة الصغيرة السيّد (جومَرد) -حافظ سرّهم- والصديق المقرّب من عائلة القائد (قاسو). لم يحزن (كالو) لموته بعد أعوامٍ قليلةٍ من وصولهم إلى المكان، ملكَ الطمأنينة في قرارة نفسه لحظة دفنه في مقبرة قريته (كوندِك)؛ إذْ لسعت نحلةٌ خفيّةٌ راحةً خفيّةً تكوّرت في خاطره، كأنّه يدفن سرّهم مع جثته، كأنّ شاهد نسبهم الوحيد قد مات.

ت

استسلمت (عَيشانه) للهلع، رمت الصحن الممتلئ عدساً ساخناً فتناثر على حصيرة القصب، اندفع بعضه إلى الجدار، وركضت صوب طفلها. لم تكن مرّات دوران الصحن على الأرض قد هدأت بعد، حتّى حملت عنه طنجرة العدس المنقلبة على صدره، وأخرجت من الموقد المسجور رأس طفلها منقطع الأنفاس إثر صرخةٍ أطلقها ولم تعد إلّا بعد أن لكمت خفيفاً ظهره، وأخذت تهزّه كأنّها تتلقّفه من أيادي رُسل الموت. حملته وصارت تدفعه إلى معاودة التنفّس بمهدٍ خفيٍّ وثب في حضنها له. شقّت سترته المبلّلة والملتهبة بالبخار، أبعدت الرماد عن رأسه بنفخاتٍ طويلةٍ وهبها إيّاها صدرها المعبّأ خوفاً، وأبعدت بأطراف أصابعها بقايا الحطب المسعور بالنار، وقد تعلّقت بشعره والتصقت بفروة رأسه. نادت زوجها، سرعان ما تذكّرت بأنّه أصمّ، فخرجت بالصبيّ المتكوّر حول نفسه بحضنها إلى الحوش تضع نفسها في مرمى نظرات زوجها فيتنبّه لما حدث وينجدها. نهض (فرحان) هلِعاً فانقلب الكرسي. حام حول الطفل كطائرٍ عائد إلى عشّه، مدّ يده، أخرجه من قفص يدي زوجته المتين وركض به صوب باب البيت الخارجي. عاد سريعاً وتأتأ كأنّه فعل ذلك لا إراديّاً، أعاد

الطفل إلى قفص ذراعي (عَيشانه) وصرخ طويلاً من شهقةٍ واحدةٍ، لم ينته أثر صوته إلّا عندما خرج من البيت وابتعد ماضياً لطلب المساعدة.

هبَّ (كالو) مع القرويّين من باب البيت، ولجوا الفناء وحاموا حول الطفل المرتجف مثل عصفورٍ أُخرِجَ من قاع بئر. بعد ضوضاء وجُمَل سريعة وقصيرة تدحرجت بين شفاه الجمع، هرول (كالو) فأخرج الفرس من الحظيرة، فجلجلت، سرجها وأوثقها بالعربة المركونة خارج سور البيت. بدون أن تسأل عن الوجهة، مستسلمةً لكلّ ما يبعث على النجاة، صعدت (عَيشانه) ومدّدت ابنها العاري على فرشةٍ صغيرةٍ ودثّرته بشالٍ خفيفٍ كي لا يلتصق بجسده المحترق على متن العربة التي جيء بها من مدينة (ماردين) بمعيّة قرويّ سبق أن خدم (كالو) بناءً على طلب العجوز (جومَرد). وضعت زوجة القرويّ على العربة جرّتين صغيرتين من الماء وصرّة بداخلها الخبز والتمر والبصل؛ زوّادة الطريق. جلس (كالو) على متنها بجانب قرويّ اقترح عليهم الذهاب إلى قريةٍ بعيدةٍ يعرفها، وقد سمع بأنّ طبيباً ألمانيّاً افتتح مستوصفاً فيها، همَّ القرويّ بالسوط المصنوع من ذيل دابّةٍ في يده على ظهر الفرس، فانطلقت كأنّها من دون رأس، فيما بقي (فرحان) على تخوم القرية وحيداً ينظر إلى العربة تبتعد وتختفي في غبارٍ صعد السماء وتناثر كطيف الحكّاء بعد نهاية القَصِّ.

سريعةً مثل حكايةٍ في أذني مستسلمٍ للنوم، سارت العربة على الدروب الترابيّة التي فتحتها دوابّ الناس وخطواتهم بين القرى المتناثرة على السهول والتلال الصغيرة. عدّلت (عَيشانه) جلوسها على متن العربة، أدارت وجهها صوب جهة الغرب -وجهة الفرس الأصيلة- كي تظلّل

بظلّها طفلها الممسوس بالأنين طوال الوقت كجنديٍّ جريح، كأنّه يلفظ أنفاسه الأخيرة. فيما شفتاها تتلوان الدعوات التي علّمتها إيّاها عمّتها (سلتي). لم تبك قطّ، كأنّها نسيت تلك الحالة البشريّة فجأةً! لم تفكّر بعدم بكائها، كانت منشغلةً باسترجاع ابنها ذي العام والنصف من الفخّ الذي ينصبه الموت أمام الموجودات. لم ترفع رأسها لتفحّص البيوت عندما قال القروي لهم: «هذه هي قرية (عامودا)». لم يكن قد سبق لها الخروج من قرية (شورِك) منذ هروبهم قبل قرابة عشرة أعوام. حتّى إنّها لم تفكّر يوماً بالعالم خارج قريتها. لم تنتمِ إلّا إلى (ماردين)، مسقط رأسها. كانت تقول في نفسها مراراً وتكراراً: «لن أموت على هذه الأرض». كأنّها كانت تحارب في سبيل عدم الاندماج مع حاضرها المريب والغريب عنها، كأنّها إذا ما اندمجت مع مكانها الجديد فقدت مكانها المغروز في ذاكرتها إلى الأبد، حتّى عندما دفنت رفقة (كالو) عمّتها (سلتي) على تلّةٍ صغيرةٍ قرب قريتهم (شورِك)، قالت لجثّتها المستريحة داخل القبر: «عندما نعود إلى (ماردين)، لن أترك رفاتك هنا يا عمّتي». بقيت (عَيشانه) على حالها طوال الطريق، تنظر إلى فلذة كبدها المتمدّد في حريقه العظيم، تغيّر موضع جلوسها كلّما تغيّرت وجهة الشمس فوق العربة كي لا يخرج طفلها من مرمى ظلّها الممشوق. لم تلتفت إلى (كالو) عندما تأتأ لها كأنّه يسألها عن صَحّة الطفل، لم يكن قد نسي بعد النصيحة التي دفعتها صوبه سيّدته (سلتي) داخل ذلك الكهف في جبال (ماردين) ليلة هروبهم من الجيش العثماني. بقي وفيّاً لنصيحة سيّدته، كان يحمي (عَيشانه) بعدم النطق، بقي أصمّ إلّا معها، حتّى إنّه لم يكن يبادر بالحديث إليها لأنّه اعتاد على تمثيل دور الأصم، كانت دوماً إذا ما طلبت منه شيئاً قالت:

- (كالو) تحدّث، نحن وحدنا الآن.

لولا تلك الجملة لما تذكّر الكلام أصلاً، غائباً في أمانةٍ صارمةٍ توسّل نفسه كي يصمد من دون لسان. قال لـ(عَيشانه) ذات مرة: «الناس تختبئ في الكهوف والجبال، أنا أختبئ وراء لساني، إن نطقتُ انكشف أمري».

تأتأ (كالو) والتفت مجدّداً يراقب الفرس التي تضبح؛ إذْ لا يلتقي ظلّها مع بدنها من سرعةٍ حصلت عليها بعد استراحةٍ قصيرةٍ توقفوا خلالها على تخوم قريةٍ قريبةٍ من مقصدهم، لم تنزل (عَيشانه) من العربة وباءت فيها محاولاتها في تحفيز طفلها على شرب الحليب من ثديها بالإخفاق. فتمتمت أكثر بنَظْم أسرع، وأنفاسٍ منقطعةٍ كأنّها قطعت كلّ تلك المسافة سيراً على الأقدام. لا يعرفون أين وجهتهم. (كالو) الأصمّ يقضي الوقت بالتذكرّ والتفكير بمصائرهم المتشابكة والموصولة مع بعضها مثل عوارض وقضبان حديد سكة قطار (برلين - بغداد) التي كانوا يسيرون بجوارها أحياناً. و(عَيشانه) بدورها، لم يأخذ التفكير بالمسافات حيّزاً من ذهنها، كانت تعتقد بأنّ أمل نجاة ابنها مرتبطٌ بسير العربة، المهمّ أن تبقى العربة سيّارة. ظلت متخيّلةً أنّها ستصل، وأنّ الطبيب الألمانيّ سينقذ ابنها، كانت تعتقد أنّ الألمان عشيرةٌ كرديّةٌ كباقي العشائر المنتشرة على تلك الأرض. بقيت لا تفكّر بالمسافة، خوفاً من أن يخفق ذاك الطبيب من إنقاذ ابنها؛ لذلك بقيت تتأمّله وتتلو له الدعوات التي علّمتها إيّاها عمّتها. تنظّفه من أثر البراز والبول بأقمشةٍ جلبتها معها وقصقصتها بأسنانها إلى قطعٍ بحجم الكفّ، تنظّف بواحدة، وترميها على طرف الدرب من دون أن ترفع رأسها عن ابنها.

انتصف النهار ومالت الشمس قليلًا صوب جهة الغرب. ظلَّت (عَيشانه) تغيّر كلّ لحظةٍ موضع جلوسها لتظلّل ابنها كأنّها ساعةٌ بشريّةٌ على متن العربة، تتحرّك كلّما تحرّكت الشمس، كانت ساعة قلقها على مصير طفلها، تحوم وتحوم وتتلو الدعوات، كان بدنها الممشوق الطويل عقرباً وحيداً في ساعة كَمَدها.

ث

ظلَّ (فرحان) طويلاً على الدرب الترابيّ الذي سلكته العربة، كأنّه يتأمّل عمره، وهو يمضي أمام عينيه على خطٍّ مستقيمٍ يعلوه غبارٌ يتمدّد ويتناثر في السماء كحلم. كأنّ أحد شرايين قلبه انقطع، محمرّ الوجه إثر الهلع، اقتعد الأرض قرب بيته في قرية (شورِك). برقت أشعّة الشمس داخل قطرات الدموع، تحوّل إلى عينٍ تتنافر منها الدموع. يبكي على أثر عربة أخذت ابنه الذي لا يعرف حتّى اسمه، لا يعرف اسم زوجته، ولا اسم (كالو)، محروم من السؤال والجواب، حتّى إنّه لا يعرف ما إن كان ثمّة شيء في الوجود اسمه سؤال وجواب. يبكي وحسب، لا أحد يعرف كيف اكتشف حالة البكاء تلك. ظلَّ ناس قريته (كوندك) يتحيّرون من بكائه، مراراً قالوا لأنفسهم: «كيف يبكي الأصم؟». كأنّ البكاء يحتاج إلى لسان وأذنين. حتّى هو، لم يفكّر في قرارة نفسه بالبكاء كفعلٍ بشريٍّ، كبر وشاهد نفسه أسير تلك الحالة الخفيّة، بكى عندما مات والده بالسلّ، ومن بعده والدته بالآفة ذاتها، وكذلك شقيقته. بقي وحيداً تبنّاه السيّد (جومَرد) وعلّمه شؤون الزراعة والرعي إلى أن أصبح بإمكانه الاهتمام بقطعة الأرض الصغيرة التي تركها له والده في قرية (كوندك)، ومن ثمّ خطبَ

أولاد (جومَرد) له (عَيشانه). بدورها (عَيشانه) وافقت حتّى من دون تفكير. كانت مستسلمةً لعدم الطمأنينة منذ هروبها من (ماردين)، شاردةً طوال الوقت باللّحظة التي ستعود فيها، لذلك أخذت الزواج كحالةٍ اعتباطيّةٍ لن يغيّر من تفكيرها وهواجسها وأمنيتها الوحيدة. وما جعلها توافق هو حالة (فرحان)، عدم قدرته على السمع والنطق، فقدهما في سنّ الثالثة. قيل بأنّه مرض بالحمى ونجا من الموت بعد أن فقد قدرته على السمع والنطق، كأنّه تحارب مع القدر وعاد معطوباً منكسراً. لم يفكّر (فرحان) وقتها بشيء، حتّى إنّه نسي رنّة الأصوات، ولا يتذكّر بأنّه كان يسمع قبل عشرين عاماً. وافقت (عَيشانه) على الزواج به؛ لأنّها كانت تخاف الكلام، تخاف الأسئلة والأجوبة، تخاف على سرّهم، كانت ترى في الكلام عمليّةً تشغلها دوماً عن التفكير في مسقط رأسها، في والدها القائد (قاسو). في سهول (ماردين). وافقت وبعد أشهر قليلة ماتت عمّتها (سلتى) بالسلّ.

على الدرب الترابيّ ذاك، غفى (فرحان) من شدّة البكاء على ابنه الذي أخذوه إلى مكانٍ لا يعرفه، بكى لأنّه لم يكن في مقدوره السؤال عن وجهته. بكى لأنّه لم يعرف كيف حدث واحترق ابنه. لحظتها، تلمّس ذاك القاع الذي يحيا فيه، تلمّس اغترابه الأزليّ الأبديّ. فكّر وبكى حتّى غفا جالساً واضعاً رأسه الممتلئ بالبكاء على ركبتيه الغارقتين في صدره. ركل النوم جسده، وفكَّ أصابع يديه المتشابكتين حول ساقيه، فاستيقظ وتذكّر مجدّداً ابنه وأجهش بالبكاء. لم يكن في مقدوره حتّى قياس الزمن، لم يسأل نفسه ما إذا وصلوا إلى وجهتهم أم لا، لا يعرف إلى أين مضوا، اكتفى بالتذكّر والبكاء ولعن اللّسان والأذنين. نهض وقشّر دموعاً متيبّسةً حول رموشه كي يتمكّن من مشاهدة درب العودة إلى البيت.

في المطبخ، تأمّل الموقد البارد، وحاول تخيّل ما حدث كي يجلب إلى نفسه الطمأنينة، فهو لم يتفحّص جسد طفله، ولم يسمع كلام القرويّين عندما قالوا لزوجته: «إن لم تفعلوا شيئاً له سيموت حتماً، لقد قضم الحريق جسده». حتّى إنّه لم يرَ جروح ابنه، ولم يسمع، ولم يتكلّم، هام حول نفسه كدجاجةٍ مقطوعة الرأس وحسب. أخفق في تخيّل ما حدث؛ لكمَ رأسه بيديه كأنّه يطرد منها السيناريو الأفظع. نظّف المكان من حساء العدس المتيبّس على الأرض، أفرغ الموقد من الرماد وبقايا الجمر ودفنها خارج البيت كي لا يراها مجدّداً، كي لا يعود إلى تذكّر ما جرى. من ثمَ اقتعد السجّادة في غرفة نومه وزوجته وابنه، وضع عينه في النافذة، لم يطرد الدجاجات؛ إذْ ولجت الغرفة، وأخذت تنقر بالقرب منه. كأنّه سُلِبَ من كلّ الأفعال التي كبر عليها. تمدّدَ حيث يجلس، ومن ثمّ أجهش بالبكاء مجدّداً. لم يسبق له الابتعاد عن (عَيشانه) منذ زواجهما، لم يعرف شيئاً عن الحبّ، وما إن كان يشتاق إليها أم لا. كانت كلّ تلك الأشياء البشريّة مجهولةً بالنسبة إليه، إلّا أنّه وهو يبكي على ابنه اكتشف غياب (عَيشانه)، وكأنّ وحوشاً تحيّنت غيابها عن البيت فخرجت من أوكارها ووثبت إلى ذهنه، نهض ومضى جاثياً كي يتمدّد في السرير، تدثّر، فتضوّعت رائحة زوجته. دخلت (عَيشانه) الغرفة، ووضعت ابنها بجانبه، نهض (فرحان) سريعاً ونظر إلى كلّ جسد الطفل، لم يكن هناك أثر للحريق، كأنّه لم يحترق، حمله وحام به في الغرفة المنيرة بسراج عظيم يبعث ضوءاً ناصع البياض. وفجأةً اختفى ابنه كأنّه خُطِفَ، التفت فلم يجد زوجته، وانطفأ السِراج وغاب في ظلامٍ دامسٍ، صرخ بكلّ قوته، كاد يلامس النطق من شدّة صراخه، فاستيقظ فجأةً! ارتطم بظلام الغرفة. هبّ اللّيل، وهو نائم. لم يكن بمقدوره معرفة

شيء، ولا حتّى تخيّله. مدّ يديه فأرشدتاه إلى الخارج، وفصل ظلام الغرفة عن ظلام اللّيل الذي بدا كحليّاً تحت سماءٍ ممتلئة بنجوم دقيقة وفيرة مثل ضربات قلوب الوافدين. أخرج دلو ماءٍ من البئر، لم يفصل الصدى في البئر، ارتشف بعضه وصبَّ بعضه الآخر على رأسه، واقتعد الكرسي الذي انقلب عندما نهض في نجدة ابنه، تساقطت قطرات الماء جاحظة من عينيه. أجهش مجدّداً بالبكاء حتّى انطفأت النجوم، وبزغت الأشعّة الحمراء من شجرة التين وسط الحوش، وتقافزت، ونقرت العصافير في قطرات الضوء بجواره. نصب عينيه على باب البيت الذي تُرِكَ مفتوحاً طوال اللّيل.

ج

قرأ (فرحان) احتمالات متعدّدة خُلِقَت في ذهنه؛ إذْ نصب عينيه على الباب الذي بقي مفتوحاً طوال اللّيل. إلّا أنّ كلّ تلك الاحتمالات لم تنقذه من معاودة السقوط في فخ القلق، صارت كل الموجودات تبعث على القلق: شجرة التين، الحظيرة الصغيرة، الغرفتان المبنيّتان في صفٍّ واحدٍ، البئر، سور البيت، الدجاجات. كلّ تلك العناصر كانت أدواتٍ ترسل السعادة له عبر رسولٍ خفيٍّ ينهض فجأةً في ذهنه. أصبحت كلّ تلك العناصر أدواتٍ تُنهِضُ القلق في ذهنه إثر غياب زوجته وابنه. أدرك بأنّ البيت لا يصنع الطمأنينة. الطمأنينة هي عدم الفقد. كلّ شيءٍ داخل البيت يرغمه على التذكّر، كأنّه يُعاقَب به؛ لذلك خرج وتجوّل في القرية وحام حولها بقدمين لا يشعر بهما، كأنّهما غريبتان عنه، كأنّهما قدما كائنٍ غريبٍ التصقتا ببدنه، وأصبحتا تأخذانه من دون وجهةٍ محدّدة. اقترب من باب بيت القرويّ، تردّد فلم يطرقه، فكّر لوهلةٍ بجدوى الاستفسار عنه من دون لسان. مضى إلى الدرب التي سلكتها العربة صباح أمس. أمعن النظر في الفراغ الممزوج مع لون الشروق الوافد من خلفه، أمعن النظر في الدرب، كانت لم تزل آثار العجلات منتصبة عليه كأنّها شواهد قبور. وضع

قدمه على أثر واحدة، حذفها، فارتاب وخشي أن يكون ذلك فأل سيّئ، سرعان ما عاد إلى تشكيل أثر العجلة بيديه، وعاد إلى تأمّل الدرب حتّى ظهرت العربة في مرمى عينيه قادمةً وسط غبارٍ أحمر يرتفع إلى السماء. شاهد ابنه جالساً على كتفي زوجته الواقفة على العربة تلوّح له، التمع الضوء في السوط المنهمر على بدن الفرس. ركض صوبها، اقترب منها إلى أن دخلت جسده فسقط أرضاً. لَكَمَ (فرحان) رأسه كأنّه يطرد الأوهام منها، كأنّه انكشف أمام التخيّلات والتوجّسات. تنهّد مراراً، ثمَّ عاد إلى البيت، كنَس الحوش، ورشَّ الأرض بماء البئر، مضى إلى الحظيرة وعاد مع حبلٍ طويلٍ، صعد إلى الشجرة فهبّت مجموعة عصافير، وحلّقت إلى أن اختفت. اختار الغصن الأمتن فيها، شدَّ طرفيّ الحبل إليه، منقطع الأنفاس، نَزَلَ وتأمّل في الحبل، عَقَده من أسفله فتحوّل إلى أرجوحةٍ، حرّكها مراراً. من ثمّ دكّ التنّور بروث البقر، وأضرم فيه النار، وما أن أنهى صناعة العجين حتّى كان مسجوراً. وضع الأرغفة الساخنة على قطعة قماش، ولفّ أطرافها حولها. اختار الدجاجة الأسمن في الحظيرة، قبض على جناحيها، حمل سكّيناً، لمح الفأر الذي تربّص به منذ أسابيع داخل المطبخ، لم يقتله، تغيّرت مشاعره تجاهه، ارتاب من فعل دحره بالحذاء كما خطّط له من قبل، وتوجّه إلى بيت جاره، أراه الدجاجة والسكّين على عتبة بابهم، من ثمّ عاد إلى البيت فيما رسم دم الدجاجة خطّاً انتهى في مطبخه، شبيهاً بخطّ العربة على الدرب الذي أخذ كبده إلى الكَمَد. أنهى طبخ الدجاج مع البرغل، وجلس في فناء البيت يترقّب وصولهم. نصب عينه على الباب الخارجي الذي تركه مفتوحاً منذ ليلة أمس. أراد أن يغيّر بعض الأحداث داخل البيت كي يغدو العيش فيه ممكناً ذلك الوقت. فكّر

مراراً ما إن تناولوا الطعام أم لا، ناموا في العراء أم داخل بيت، هل نجا ابنه؟ هل يعودون اليوم؟ هل يعودون غداً؟ هل يعودون؟ عاد مجدّداً إلى الركن الذي لسعه فيه الهلع، نهض وتمشّى داخل البيت. لم يزره أحد، توجّس بالسبب. لكنّه أقنع نفسه؛ إذْ فكّر بالجدوى من زيارة رجُلٍ أصمّ. قال في نفسه: «لو كنت أملك القدرة على النطق والسمع لتمكّنت من السؤال عن ابني وزوجتي». اصطدم بذاته. لم يسبق له أن اشتكى من عدم قدرته على النطق والسمع. كان متماهياً مع حالته، لم يفكّر بها قطّ. إلّا أنّه تلمّس أخيراً ذلك الاغتراب الذي يُقرَأ في قلبه. هل عشقَ زوجته منذ صباح البارحة؟ هل شعر بأبوّته فقط عندما احترق ابنه؟ كلّ تلك الأسئلة دارت في ذهنه بينما عاد إلى وضع عينيه على باب البيت الذي تركه مفتوحاً طوال اللّيل. كأنّه يصوّب بندقيّته صوبه، كأنّ الباب المفتوح في مرمى قلبه عدوّه الأبديّ الأزلي.

ح

أدارَ القرويّ رأسه صوب (عَيشانه)؛ إذْ بسطَ اللّجام، وأخمَدَ حوافر الفرس المسجورة، وأخرج السوط من مرمى عينيها، فنالت الطمأنينة وحمحمت. مرّرَ عينيه على الطفل المنساب مع السكون كجناح فراشةٍ مبلّلةٍ، راقب صدره، يعلو ويهبط بنَظْم سريع، قبض على السَكينة وعلم بأنّه لم يمت بعد، وبنبرةٍ متلعثمةٍ قال:

- لقد وصلنا إلى تل حلف.

ومدّ يده نحو جرّة الماء كأفعى تلج كومة قشٍّ عظيمة.

رفعت (عَيشانه) رأسها، فخرج طفلها من مرمى نظراتها، كانت تلك هي المرّة الأولى التي ترفع فيها رأسها منذ ركوبهم على ظهر الدرب الترابيّ صباح ذلك اليوم. قفزت من العربة. حمل القرويّ الطفل على زنديه، وحرص ألّا تلمس أصابعه جسده الذي أصبح ملوّناً إثر الحروق.

- الطبيب، الطبيب.. الطبيب.. الطبيب.

بصوت جهوريٍّ كأنّه ينادي على ضائع وسط زحام لا نهائي، كرّرَ القروي بالعربيّة كلمة الطبيب، ما إن سقطت نظراته على مجموعة رجالٍ

سُمر البشرة يكسو الغبار وجوههم فبدوا كأنّهم عجائز يرتدون الزي العربي. سرعان ما اقترب منه هؤلاء العمّال حاملين معاول وأدوات الحفر. حاموا حول القرويّ الذي تسلّق التلّة قبل (عَيشانه) و(كالو)، وفتحوا له ممرّاً وتناثروا على جانبيه يسلّطون نظراتهم على الطفل الذي أخرجه أثر الحريق من ملامح الآدميّين. نهض رجُلٌ عن كرسيّه قبالة باب الخيمة المسدول، طويل القامة مرتدياً سروالاً قصيراً، ويعتمر قبّعةً مصنوعةً من القشّ كبيرة حوافّها تظلّل وجهه البرونزيّ المتشقّق كأطراف السلاحف. هرول نحوهم.

بقي (كالو) خارجاً منتصباً على باب الخيمة، فيما امتدّ ظلّه نحو الداخل. حمل الطبيب الطفل الذي فقد القدرة على البكاء، فاستُبدِلت حالة التعبير عن الألم لديه بشهقات سطحيّةٍ وقصيرةٍ، مدّده على السرير، وتفحّص جسده العاري، وقعت عيناه على أثر حساء العدس المتيبّس المختلط مع أثر الحروق، والدم، والألوان التي خُلِقَت في الطريق. عادت (عَيشانه) إلى التمتمة همساً، تراقصت شفتاها من شدّة التلاوات كجناحي فراشةٍ قُرب سراجٍ مسجور. رفع الطبيب ستارة الخيمة الجنوبيّة، فترجّل الضوء من السماء، وَهَبَّ والجاً المكان كأطفال يدخلون ركناً للمرّة الأولى. حمل مشرطاً حادّاً مثل لسان المظلوم، ومقصّاً قصيراً مثل يديَ المظلوم، مسحهما بقطعة قماشٍ بنيّة اللّون؛ إذْ بلّلها بسائلٍ لا لون له. قصَّ شعره، سرعان ما عاد الطفل من موطن السكون إلى البكاء، طلب الطبيب من القرويّ أن يهدّئ حركته، فنظر القرويّ إلى جسد الطفل ليستطلع النقاط التي سلمت من بطش الجمر والحساء كي يقبض عليها لتهدأ حركاته. قام بتنضير الحرق والفقاعات، وأزال الأنسجة الميّتة، حتّى ظهر الطفل كأنّه طائرٌ اقتُلِعَ ريشه عنوةً. رشَّ بودرة (البزموت) على الأماكن المحترقة في

جسمه، وضمَّد بقطع شاشٍ غليظة رأسه، ونصف وجهه، وكلّ صدره، وبطنه، ويديه، وساقه اليمنى.

لم يكن الغروب قد نَثَر طيوره الحمراء على الموجودات بعد، حتّى هدأت الحركات على جسد الطفل، وغطَّ في نومٍ عميقٍ، وعادت شهقاته إلى عهدها الأوّل؛ إذْ لقمته أمّه ثديها بعد أن غطّته بشالها.

تناثر العمّال، وتفرّقوا، ودخلوا خيامهم المبعثرة اعتباطيّة الشكل والأماكن أسفل التلّة. على الكراسي المصنوعة من قصب الزلّ، قبالة الخيمة التي ينام فيها الطفل على سرير حروقه، جلس الجميع على نحوٍ دائريٍّ حول طاولةٍ صغيرةٍ موضوعة عليها كؤوس الشاي المشروبة: القرويّ، والطبيب، و(عَيشانه)، و(كالو)، ورجُلٌ ألمانيٌّ طويل القامة واللحية، ممشوق القوام، قال الطبيب بأنّه (البارون ماكس فون أوبنهايم) مدير هذه البعثة التي تستخرج الآثار. كرّرَ القرويّ سؤالاً يخصّ اسم مدير البعثة فيصحّحه داخل ذهنه، سرعان ما أجابه الطبيب:

- لا، فكلمة بارون مثلاً كالآغا عندكم، وليس اسمه.

بدورها (عَيشانه) كانت تتحيّن الفرصة فتمتلك الجسارة وتسأله عبر لسان القرويّ عن صحّة ابنها، لم يهمّها كلّ تلك الأحاديث، كانت تبدو كالتماثيل المنتشرة والمقلوبة في الأنحاء، مواظبةً على تصحيح موضع غطاء رأسها الأبيض، وتمرّر أصابعها بين الفينة والأخرى على غرّتها الشقراء المكشوفة، تنظر بريف عينها أحياناً إلى (كالو) المنهمك بمراقبة كلّ التفاصيل حوله، ممثّلاً دور الأصمّ على أكمل وجه. بعد أن عرف الطبيب بأنّهم جاؤوا من قرية (شورِك) سأل بعربيّةٍ ركيكةٍ القرويّ مرافق (عَيشانه) و(كالو):

- كيف عرفتم بأنّنا هنا، كيف عرفتم المكان؟

- لقد مررت من هنا قبل عام تقريباً عندما عدت من زيارة الأقرباء في (جبل الكرد).

تلعثم القرويّ، تردّدَ فلم يخبر الطبيب بأنّه يتاجر بالتبغ، ويمرّ كثيراً بمعظم أماكن وقرى هذه المنطقة المكتظّة بشيشان فرّوا من بطش الجيش الروسيّ في القوقاز، فجاء بهم العثمانيّون إلى هذه المنطقة، وأعادوا لهم إعمار مدينة (رأس العين)، التي كانت في العصر العباسي مركزاً تجاريّاً، ومحطّةً للقوافل، ومصيفاً للخليفة العباسيّ المتوكّل، ومركزاً لاستراحة صلاح الدين الأيوبي، ومقصداً لقادة معظم الإمبراطوريّات التي أفنت ودمّرت بعضها، تدميرها على يد المغول كان آخر محطّات فنائها.

همست (عَيشانه) بالكرديّة للقروي الذي سرعان ما ترجم كلامها، فهزَّ الطبيب رأسه، ابتسم، ظهرت أسنانه البيضاء القابضة على غليون أخرجه من فمه وقال:

- لا تقلقوا، سيعيش بالتأكيد، لم تكن الجروح خطرةً، بيد أنّه طفلٌ أشقر أبيض البشرة، لذلك ظهرت الحروق بذلك الشكل المروّع، ستبقون هنا ثلاثة أيّام، وبعدها سيقود الطفل العربة بكم إلى قريتكم.

أنهى الطبيب كلامه وتحدّث بالألمانيّة إلى مدير البعثة المتماهي مع صمتٍ مطبق. تراقصت شفاه (عَيشانه) مجدّداً، تمتمت بدعواتٍ بعد أن ترجم لها القرويّ كلام الطبيب الذي عاد إلى تدخين الغليون مثيراً دخاناً تحوّل إلى غيمةٍ صغيرةٍ بحجم غزالةٍ متأهّبةٍ بين القيام والقعود. دفعهم الطبيب إلى النهوض ودخول الخيمة، أشار إلى (عَيشانه) و(كالو) للوقوف بجانب (شكري) الطفل النائم في السرير الحديديّ، عدّل رأسيهما، وطلب

منهما الابتسام، لم تبتسم (عَيشانه)، عدّلت موضع الشال فوق رأسها فبَرق شعاع النور على غرتها الشقراء البارزة مثل آلام المنفيّين. طلب منهما أن يُبقيا عيونهم مفتوحة، وهمَّ في العدّ من الواحد إلى ثلاثة، ترجمَ القرويّ لهما الأرقام الثلاثة إلى الكرديّة. اندفع صوت زرّ التقاط الصور في الكاميرا صوب أذني (عَيشانه)، فارتابت أن يوقظ طفلها النائم في فراش حريقه. قال الطبيب عبر القرويّ المترجم:

– ستبقى هذه الصورة إلى الأبد.

شردت (عَيشانه) في كلمتي: «الصورة، والأبد»؛ لم يسبق لها أن سمعتهما من قبل. حامت نظراتها حول صور أشخاصٍ معلّقة داخل الخيمة، خشيت أن تُعلَّق صورتها أيضاً على مرمى عيون الغرباء؛ عدّلت شالها من جديد وشبكت أصابع يديها بعضها ببعض، ونظرت إلى القرويّ كأنّها تطلب منه أن يترجم قلقها.

تحت سماءٍ تخفق فيها النجوم كأنّها أرانب، اشتعلت النيران في فرائها، خلدَ القرويّ إلى نومٍ عميقٍ على سريرٍ نصبوه له خارج الخيمة. بينما قضت (عَيشانه) كامل اللّيل جالسةً مقتعدةً كرسيّاً جوار رأس ابنها المتمدّد في السرير الحديديّ الطويل، كانت المرّة الأولى التي تشاهد فيها سريراً، تخرج بين الفينة والأُخرى ثديها خلسةً، فتعصره حتّى يخرج منه الحليب فتطمئنّ، وتدفعه مجدّداً تحت فستانها الأخضر الطويل، وتمسح قطرات الحليب الدافئة على معصمها الأيسر براحة يدها اليمنى. بعد أن اطمأنّت على صحّة ابنها، توجّست بحليبها، خافت أن ينضب إثر الهلع الذي نال منها، لذلك تناولت عشر حبّاتٍ من التمر، وكأسين من الحليب، ونصف رغيف غمسته في الزبدة التي تصنعها زوجات العمّال من البدو الذين جاء

بهم (ماكس فون أوبنهايم) من منطقة (جبل عبد العزيز) بعد أن رفض الشيشان بقرى (رأس العين) العمل في التنقيب والحفر مع البعثة الألمانيّة؛ لاعتقادهم بأنّ الآثار تجلب النحس وتخرج الأشباح من باطن الأرض، فأعانه شيخ عشيرة عربيّة؛ إذْ وجد في الأمر سبيلاً ينقذ رجال ونساء عشيرته من الموت جوعاً في تلك السنوات القاسية الممتلئة بالجفاف، والأوبئة، والحروب. بدوره، وجد البارون الألمانيّ في رجال البدو هؤلاء ضالّته، لا سيّما أنّهم عملوا مقابل أجورٍ منخفضةٍ مقارنةً برجال المسيحيّين. سمعت (عَيشانه) كلّ تلك الحوارات التي دارت بين القرويّ وشابٍّ كرديٍّ طويل القامة، عريض المنكبين، حليق الشعر، مفتول العضلات، مرتدياً سروالاً فضفاضاً من الورك، وضيّقاً عند كاحليه، يشبه سروال البارون، حتّى ظنّته بادئ الأمر قادماً من ألمانيا معهم، قال بأنّه أحد حرّاس الآثار. في أثناء تناولهم العشاء البدويّ، أكلت (عَيشانه) رغماً عنها؛ إذْ توجّست بالحليب، حتّى إنّها سألت الكرديّ حارس الآثار:

- هل ثمّة نساء كثيرات هنا؟

سألته ذاك السؤال كي تستنجد بإحداهنّ إذا ما انقطع حليبها، كانت على وشك صناعة أمّ ثانية لابنها في سبيل بقائه سالماً. بقيت بجانب طفلها النائم. بدوره (كالو)، لم يسكت طوال اللّيل، اقتعد سجّادةً طُرّزتْ عليها صورة أسد ممزوج مع آثار الأحذية المصنوعة من الغبار والتراب، مفروشة بجانب كرسيّ (عَيشانه)، تكلّم (كالو) همساً معها طوال اللّيل. ظنّت الأمّ الشجيّة بأنّه يتحدّث إليها كي لا تبقى شاردةً في آلامها. لم تكن تدرك بأنّه يعوّض كلّ قلقه طوال النهار بالكلام، لم يتوقّف لسانه لحظةً واحدةً، تحدّث على نحوٍ اعتباطيٍّ، مرَّ بأيّام الطفولة، إلى الصبا، وعاد إلى

الطفولة، ومن ثمّ تحدث عن (ماردين) وعن الإيزيديّين. همس بقرب (عَيشانه):

- كنت أشاهد أبي يقف قبالة الشمس، يرفع يديه، يتلو الدعوات ويصلّي، من ثمّ يركع ويقبّل الأرض ثلاث مرّات.

كأنّ الخوف فتق الموضع الذي تختبئ فيه الذكريات عادةً، كأنّ الهلع أعاده إلى ذاكرته، إلى الطفولة، حوّله القلق على (شكري) إلى طفلٍ يحبو على أرض ذاكرته البعيدة، لم يتخيّلها من قبل، كأنّها حدثت مع كائنٍ آخر، لا يعرفه ولم.

خ

في اللحظة ذاتها كان (فرحان) قلقاً، يمرّر عينيه على الغصن الذي ربط الحبل به، يتفحّص متانة العُقَد فيه بقلب أبٍ أجهضت زوجته جنينهما الثاني؛ رأى الموت من منظورٍ آخر، يعبّر عن خوفه منه بالتفكير دوماً في السبل التي يحمي ابنه (شكري) بها. وهو يمرجحه بأرجوحةٍ صنعها كنذرٍ قطعه على نفسه قبل عامين، لا ينفكّ يتخيّل الحبل ينقطع تحته ويسقطه على رأسه الممهور بأثر حريقٍ شُفي منه وتبقّت آثاره في قلب أبيه. يهدّئ من سرعة الأرجوحة، يراقب الحبل وملامح ابنه معاً، كلّما أرجحه بهدوء، تقلّصت شفاه الصبيّ، وكشَر، واختفت أسنانه، فيدرك بأنّه يحفزه على زيادة السرعة، ودفعه بقوّةٍ أكبر، فيتصاعد نَظْم أنفاس (فرحان). بين هاتين اللّعبتين: ملاعبة ابنه، وإرضاء القلق عليه، يعيش طوال الوقت، صارَ طفلاً، كأنّ ابنه مرآةٌ كبيرةٌ مصوّبةٌ نحوه يرى خلالها نفسه.

كان غائباً عن كلّ الأحداث التي دارت في القرية، غائباً عن أحاديث القرويّين وهُم يمرّرون أخبار انهزامات الجيش العثمانيّ بينهم ككؤوس الشاي وحبّات التمر. لم تأخذه حالة استكشاف ومعرفة قوافل الناجين

القادمة من الشمال إلى الجنوب. لم يسمع بالأرمن، لم يسمع بالديانات والقوميّات، لا يعرف بأنّه كرديٌّ مسلم.

في قرارة نفسها، أدركت (عَيشانه) بأنّ الصُمّ يعيشون خارج تلك التصنيفات. كان لزاماً عليها طمس هويّتها، كان ينبغي لها إخفاء ديانتها الإيزيديّة، والتظاهر بأنّها مسلمةٌ كي تبقى في منأى عن القتل، لا تُسبى ولا تُقتل. أنفقت عمّتها سنوات عديدة في سبيل بناء تلك الخلطة السحريّة داخل ذهنها وقلبها. تتذكّر كلامها طوال الوقت:

- كوني إيزيديّة بقلبك وفي سرّك، وقصّي على أولادك وأحفادك قصصنا، علّميهم تعاليم ديننا، ربّما هذه هي وسيلتنا الوحيدة كي نبقى ولا نفنى وسط هذا الخراب، يا ابنة أخي.

تكرّر في ذهنها كلمات عمّتها طوال الوقت، وتتحيّن تلك اللّحظة التي ستقصّ فيها على ابنها (شكري) كلّ القصص، ستزرع في قلبه ذلك السرّ الأزليّ الأبدي. تسترجع كلّ الأحداث، والقصص، والكلمات، تصلّي قبالة شمس الغروب أمام زوجها الأصمّ، من ثمّ تهمس قرب رأسه:

- أحمد اللـه الذي أرسلك إليّ، صمتك يحميني يا عزيزي، صمتك حمى امرأة من السبي والقتل، أنت كالملائكة.

ينظر (فرحان) إلى عينيها، لا يسمع ما تقوله، إلا أنّه يدرك تماماً بأنها تخبره شيئاً جميلاً، يشعر بأنفاسها تخرج من صدرها وتحطّ على وجهه كريشةٍ تسقط من جناح طائرٍ يهاجر. يرى في عينيها ذاته المفقودة. يضمّها إلى صدره، فتلفّ ذراعيها حوله، وتسعّر أصابعها على ظهره مثل فتائل الفوانيس في قاع اللّيل.

لم يعرف (فرحان) ما جرى وما يجري، يتأمّل في قوافل الأرمن

الهاربين من الجيش العثمانيّ، من دون أن يعرف بأنّهم أرمن. كأنّه شاهدٌ وحيدٌ ينظر إلى المجزرة من منظور إنسانٍ غير منتم إلى دينٍ وقوميّة.

- كأنّه اختبار البشريّة التي كانت ولا تزال تسعى في سبيل معرفة دين وقوميّة الضحية قبل التعاطف معها.

هكذا قال (كالو) عنه. كان (فرحان) في ذلك الفضاء المفتوح على الحروب، والمجاعات، والأمراض شاهداً بشريّاً وحسب، لا دينيّاً، ولا قوميّاً. يحاول أحياناً فهم ما يجري، يتأثّر لحالهم، يبكي عليهم. يريد مساعدتهم. إلّا أنّ (كالو) كان بمقدوره التمنّي والقيام بالفعل أيضاً. قضى أيّاماً ولياليَ عديدةً مع بعض رجال قرية (شورِك) و(كوندِك)، حاملين التمر، والخبز، والبصل، وجرار الماء، يتحيّنون مرور أرمن ناجين، ينتظرون ظهورهم من وراء الأفق ليهرعوا نحوهم، يحملون من لا طاقة لديه على المشي، يسقونهم ويطعمونهم. يوزّعونهم على بيوت القريتين. وينصبون لهم خياماً صنعتها النساء من كلّ شيء: اللحف، البطانيّات، الثياب، السجّاد. مرّت بهم مجموعات مؤلّفة من أشخاص معظمهم من مراهقين وشباب، في جولاتهم بالأنحاء، كانوا يصادفون العجائز والأطفال موتى متزمّلين بدمائهم. يدفنونهم حيث ماتوا. أشهر عديدة من تلك السنة مرّت ممهورةً بالجثث وناجين سُدّت عيونهم بجثث ذويهم. كان (فرحان) و(كالو) أسيرَيْ مصائر مشابهة لمصائر الأرمن تلك السنة: الأوّل أصمّ متوجّسٌ بدفع البلاء عن ابنه وزوجته، والآخر يمثّل دور الأصمّ كي يحفظ على (عَيشانه)، الأمانة التي استودعها قلبَه قائده (قاسو) وسيّدتُه (ستي). كلاهما، وفي اللّحظة التي كانا فيها ينقذان الأرمن، كانا يدفنان عبرهم المكتومَين في قبر خفيّ لا مرئيّ.

بدورها (عَيشانه) أخفقت لحظةَ تلو أُخرى في ولوج قلوب وأسرار نساء القرية، اللواتي لم يتحدّثن عن تفاصيل تخصّ ماضيهنّ، أسوةَ بالرجال، فبدت القرية ظاهريّاً مكاناً نموذجيّاً للعيش المشترك بين أشخاصٍ لا ماضي لهم، أو بالأحرى، كان الماضي مثل كنوزٍ مدفونةٍ في دواخلهم، لا يفصحون عن تفاصيله لبعضهم. يتحادثون ويتشاركون بكلّ شيءٍ إلّا الخوض في الحديث عن الماضي والبحث فيه. ارتابت (عَيشانه) بادئ الأمر من ذلك العهد المريب الذي لا تعرف حتّى كيف خلق، مَن خلقه؟ وكيف تحوّل إلى شبه قانون يغرم مَن يتحدّث عنه؟ مرّات عديدة، سرّاً، تحدّثت إلى (كالو) عن رغبتها في الحديث مع نساء القرية كلّ على حدة عن (الإيزيديّين)، حدث ذلك عندما فكّرت في إمكانيّة أن تكون إحدى تلك العائلات الصغيرة الكرديّة التي لجأت إلى قريتهم واشترت قطعة أرض من أولاد السيّد (جومَرد) على الديانة (الإيزيديّة)، لكنّ الخوف يدفعهم إلى إخفاء ذلك. واظبَ (كالو) على تحفيزها لنسيان الفكرة. لم تكن تلك القضايا كافّةً ذات أهميّةٍ لديه، كان منصبّاً ومهووساً فقط بحماية (عَيشانه) بالسبل كافّةً، بقتل الآخرين إن استوجب الأمر، قال لها ذات يومٍ عندما شاهدها تخبز أمام وهج التنّور؛ إذْ تذكَّر بأنّها كانت تُخدَم في قصر أبيها، ولم ترَ العجين هناك:

- سأقتل الجميع في سبيل حمايتك يا ابنتي.

كانت ابنته ظاهريّاً، مرّت تلك المسرحيّة على القرويّين على نحوٍ طبيعيٍّ، هكذا، عندما قالت (سلتي) لهم: «هذا زوجي (كالو)، وهذه ابنتي (عَيشانه)». لم تشعر لحظة واحدة بأنّه أبوها، كانت تعدّه صديقاً مقرّباً منها، أخاً، أو عمّاً، خالاً، أو سنداً، كان سندها، هكذا عرفته. حاولت

بحث قضيّة الإيزيديّين سرّاً مع نساء القرية، سرعان ما انحسرت صوب نفسها كسلحفاة عندما رافقت مرّات متفرّقة نساء القرية حاملات سكاكين مطابخهنّ صوب البيادر باحثات عن الخبّيزة والبابونج، سمعت كلمات مريبة عن (الإيزيديّين)، كلمات بمنزلة بئرٍ عميقةٍ لا نهائيّة سحبتها إلى نفسها، تظاهرت بعدم معرفتها شيئاً عن (الإيزيديّين)، الأمر الذي دفع بعض النساء للحديث إليها أكثر عن تلك الديانة من باب تنويرها. أصابتها الدهشة حين سمعت تلك الكلمات البشعة من نساء كُرديّات مسلمات لا يعرفن شيئاً عن الإسلام، حاضنات الخطاب العثماني، لا يصلّين، ولا يصُمْن، حتّى إنّهنّ لم يكنّ يعرفن كلمةً واحدةً باللّغة العربيّة، لغة القرآن، إلّا أنهنّ كنّ متجاسرات في كره الإيزيديّين الكُرد من منظور أنّهم ليسوا مسلمين، ارتابت، وخافت، وضحكت في قرارة نفسها في اللحظة ذاتها عندما سمعت بعض النساء تقول:

– إن مرّ إيزيديّ من أمام بيتكِ، يجب أن ترشّي الماء وراءه كي تبعدي الشر عنك، إن لمستِ إيزيديّاً، أو إيزيديّةً يجب عليك غسل يديك سبع مرّات بالتراب الأحمر كي تتطهّري؛ لأنّهم أنجاس يعبدون الشيطان.

فضلاً عن كلماتٍ أخفتها في قلبها الذي احتمت فيه، وطيّنَت سرّها إلى الأبد. أعادت في ذهنها وصايا عمّتها لها، تلك التي لقّنتها سرّاً إلى أن حفظتها عن ظهر قلب، استرجعت تلك الكلمات بنبرة صوت عمّتها:

– يا عزيزة قلبي يا (عَيشانه)، نحن في جنوب شمالنا، في أرضٍ غريبةٍ عنّا مثل التمتمات على ألسنة العابرين. إن ضقتِ ذرعاً بالنسيان، تذكّري واسترجعي لحظة واحدة من ماضيك، لحظة لا أكثر؛ التذكّر حيوانٌ أليف لا تسلّميه نفسك. إن ضقتِ ذرعاً بالتذكّر، انسي لحظة واحدة من ماضيك،

لحظة لا أكثر؛ النسيان حيوانٌ أليف لا تسلّميه نفسك. إن شردتِ لا تلتفتي. إن التفتِّ تذكَّري وانسي في آن واحد، يا ابنة أخي. نحن على أرضٍ سكّانها لهم دينٌ لا يشبه ديننا، اسندي كلّ الألغاز إلى الله، اضمري شكّك بما تسمعينه، لا تطلقي لسانك، لا تظهري عقلك، لا تبتسمي إذا ابتسموا كي لا تُسألي أكثر. لا تتكلّمي في مجالس الرجال، كوني مستمعة في مجالس النساء. لا تسألي إحداهنّ عن أسماء والديها كي لا تسألك عن أسماء والديكِ، يا ابنة أخي. خبّئي الأجوبة التي تعرفينها لأسئلةٍ أُخرى. اقتصدي في النظر إلى الأرض الجديدة كي لا تكرهيها سريعاً. احفظي الأرض الجديدة كي لا تنسي أرض أجدادك. أنا أمّك و(كالو) والدك. لك إخوة ماتوا قبل أن تُطلَق عليهم الأسماء. إن سُئلتِ مرّتين، استبدلي سؤالاً عن الربيع بالإجابة الثانية. لا تتظاهري بمعرفتك لأسماء الزهور كي لا تبكي. لا تتظاهري بمعرفتك لأنواع الخيول كي لا تتنهّدي. إن سألتكِ إحداهنّ عن طعامك المفضّل، عن لونك المفضّل، عن فصلك المفضّل، عن ثمرتك المفضّلة، ارفعي قليلاً كتفك وقطّبي شفتيك وتردّدي إلى أن يفنى السؤال كما تفنى النجوم في نظرات الوحيدات، يا ابنة أخي. لا تحرّكي شفاهكِ لحظة تلاوة الأدعية. لا تفشي سرّنا لنفسك كي لا تعتادي العزلة. لا تبوحي لأحد بمَن تكونين كي تكوني. لا تتذكّري. لا تنسي. لا تسألي عن دين زوجك، أحبّيه بلا حدود كي تنجبي منه أطفالاً صالحين.

استرجعت (عَيشانه) مراراً وتكراراً وصايا عمّتها. فكّرت بما سيحدث لها ولابنها وحتّى لزوجها ولـ(كالو) إن علم القرويّون أنّهم إيزيديّون فرّوا من الجيش العثمانيّ، هل يقتلونهم؟ هل يقاطعونهم؟ هل يدفعونهم إلى الرحيل؟ هل يسلّمونهم إلى الجيش العثمانيّ، أو إلى بعض العشائر

التي تحارب الإيزيديّين؟ ارتابت.. شعرت بصدمةِ كبيرةِ آن انكشف لها ذلك الأمر، كانت تظنّ بأنّ العثمانيّين وبعض العشائر الكرديّة المسلمة وحدهم يحاربون الإيزيديّين. لم تكن تتوقّع أن تسمع تلك الكراهية بحقّ الكُرد الإيزيديّين من نساء كُرديّات مسلمات. لم يسبق أن حدّثتها عمّتها عن هكذا تفاصيل، ربّما لم تكن تعلم، أو ربّما أخفت ذلك عنها كي لا تمرض من شدّة الخوف، واستبدلت بذلك ضرورةَ أن تخفي هويّتها عن الجميع باستثناء أطفالها، ضرورةَ ألّا تثق بأحد على الإطلاق. كلّ تلك الاستنتاجات فكّرت بها (عَيشانه) في قرارة نفسها، ليالي بأكملها. مرّات عديدة تحدّثت عن تلك المخاوف، والأفكار، والأحداث مع (كالو) الذي لم يكن يعرف شيئاً عن كلّ تلك الأمور، أو لم تكن تهمّه، كان منصبّاً على حمياتها وحسب، يكرّر على مسامعها كلمات سيّدته (سلتي):

- لا تثقي بأحد، لا تكشفي هويّتك لأحد، أنت امرأةٌ مسلمةٌ في نظر الجميع، تأقلمي مع هذه الهويّة، لكن لا تلبسيها، ولا تؤمني بها.

لذلك، تألّمت (عَيشانه) كثيراً، وبكت عندما شاهدت وسمعت قصص الأرمن، كأنّها تلمّست وشاهدت فيهم دينها. كأنّها التقت بمصيرها ومصير ذويها وناس قريتها، كأنّ الأرمن كانوا يذيعون لها أخبار أهلها. أحبّتهم كثيراً، صنعت المجازر ألفةً بينها وبينهم، حسبتهم أهلها السريّين الخفيّين. مرّات عديدة تمنّت مصير الأرمن للإيزيديّين، تمنّت لو أنّ بعض الإيزيديّين تمكّنوا من الخلاص وفرّوا نحو الجنوب كما يفعل بعض الأرمن. مرّات عديدة، تخيّلت والدها القائد (قاسو) وناس قريتها يهبطون من السراب شمال خطّ القطار الذي صنعوه لربط برلين ببغداد. تتخيّلهم يبزغون كالخيالات من سرابٍ أبيض لا نهائي في جهة الشمال، يسيرون صوب

الجنوب حيث قريتها (شورِك)، قالت كلّ تلك الهواجس لـ(كالو) عندما أخذها ذات يومٍ كي يريها سكّة القطار (برلين / بغداد)، كثيراً ما شاهدت العمّال من بعيد يجتمعون حول نقطةٍ على الأرض، وفي اليوم التالي كانوا يعملون في نقطةٍ أُخرى، راقبت حركة عمل العمّال، هؤلاء يسيرون من الغرب إلى الشرق. ذلك اليوم فعل ابنها (شكري) الأمر ذاته، سار على القضبان والعوارض متّجها نحو الشرق، فسألت (كالو):

- ماذا هناك؟

ابتسم (كالو) حاملاً الصبيّ، ينفخ في باطن قدميه الساختين، ويلمسهما براحة يده كي يخفّف حرارتهما بعد أن عاد به من مسافةٍ سلكها بمفرده مستغلّاً انشغال أمّه و(كالو) -جدّه الوهمي- بالأحاديث، إلى أن انزلقت قدمه عن القضبان الساخنة، وحمل الهواء صراخه ذاك الذي ينجزه الأطفال عادةً كي يحفّزوا الأمهات على الالتفات إليهم إثر الغيرة ممّا يشغلهنّ.

- هناك تكون الموصل وبغداد، وهنااااك تكون برلين، هكذا سمعتُ القرويّين يقولون.

غابت (عَيشانه) في شرودٍ مريبٍ، وهي تتفحّص باطن قدمي ابنها:

- وأين يقع معبد (لالَش)؟

حام (كالو) حول نفسه ثلاث دورات ومدَّ سبابته نحو جهة:

- هناك.

- هل سبق أن ذهبت إلى معبد (لالَش)؟

همست (عَيشانه) كأنّها تردّدت في دفع السؤال نحوه، وهي تضع باطن قدم ابنها على شفتيها تمتصّ الحرارة منه.

- ذهبتُ مرّةً رفقة القائد (قاسو) ورجالٍ آخرين.

قال (كالو)، وهو يأخذ الصبيّ من حضنها ليفلته فينتفض كهريرةٍ، ويسير على قضبان سكّة القطار مجدّداً، وقطع عشبةَ يابسةَ من كومةٍ نبتت حول العوارض الخشبيّة، ودفعها بين أسنانه، ثمّ تمدّدَ بين خطّي السكّة، فأسبل جفنيه قليلاً كي يدفع عن عينيه الأشعّة المنعكسة، وسرح في الصبيّ يمشي على السكّة المشبعة بالشمس.

لم يشاهدها أحدٌ من سكّان القرية تبكي على الأرمن، كانت تحاول قدر الإمكان التظاهر بأنّها طبيعيّةٌ كباقي النساء، خافت أن تُظهر خصوصيّةً ما، حتّى إنّها كانت تشتم الإيزيديّين، وتؤكّد على نجاستهم، وتنتصر للمسلمين إذا تطلّب الأمر، لكنّها حين تسمع النساء تقول ذلك، تعود إلى البيت وتجهش بالبكاء طويلاً، تصلّي وتطلب المغفرة من خالقها، وعمّتها، ووالدها، وذويها. كانت حزينةً؛ لأنّ زوجها لم يكن يعرف ماذا يحدث. حضنته مرّةً وأفشت كلّ شيءٍ قرب أذنه، على الرغم من إدراكها بأنّه أصمّ لن يسمع، إلّا أنّها احتاجت إلى نسج ذلك الدور الغريب، دور امرأةٍ تلجأ إلى حضن زوجها وتشتكي له كي يحميها. كان (فرحان) يحميها بصمته. بدورها هي، لم تكن تعلم ما يدور في قلبه، تشاهده يمرجح ابنهما (شكري)، كانت ترى أباً يلاعب ابنه، لم تكن تشاهد الآلام التي تنال منه، لم تكن تسمع صوته الداخليّ وصراعه في سبيل دفع البلاء عن بيته، عن زوجته وابنه، لم تكن تراه يجهش بالبكاء المكتوم ساعات اللّيل الطويلة. لم تكن تسمع حواراته مع نفسه في قلبه، وهو يمرجح ابنه على الأرجوحة التي صنعها كنذرٍ عندما احترق ابنه وأُخِذَ على عربة يجرّها حصانٌ صوب معسكر (ماكس فون أوبنهايم).

د

(**عَيشانه**)، معزولةً في غرفتها، متأمّلةً في خيوط النور المتسرّبة عبر شقوق الستارة البيضاء المنسدلة على النافذة يسار فراشها الممتلئ بالصوف، أسبلت جفنيها كي تقرأ الخيالات البيضاء الظاهرة في هيئة أجنّةٍ تحت جلد جفنيها الحمراوين. فتحت عينيها مجدّداً، وضعتهما في مرمى النافذة. أيّام كثيرة مضت على حالها تِلك، بدا أثر الدموع على وجنتيها كشكل ساقيةٍ مفتوحةٍ في أرضٍ يابسةٍ، تغمض عينيها تارةً كي تتبع تلك الخيالات وترى فيها الأطفال الذين أجهضتهم؛ أخفقت في الحفاظ على شقيقٍ، أو شقيقةٍ لابنها (شكري). لم ترغب بأن يكون وحيداً مثلها، أرادت ألّا تفنى ذريّتها، توجّست في السنوات الخمس الأخيرة بالإنجاب، ولم يكن بمقدور جسدها القبض على الأمنية تلك لها، كان يقرضه السلّ بهدوءٍ كتسلّل الأفاعي الصفراء إلى أكوام القشّ اليابس. أحياناً، وهي ممدّدةٌ في فراشها، كانت تسترجع ماضيها كأيّ آدميٍّ ينتظر ظهور رُسلٍ قادمين من أرض الموت. تحاول إقناع قلبها بما سيحدث؛ لذلك، كانت تُخرِج صور والدها وعمّتها من باطن ذهنها، كأنّها تهيّئ نفسها للانتقال إلى ذلك العالم الممتلئ بِمَن فقدتهم في عالمها الآنيّ، تكثّف الصور في ذهنها إلى أن

تنفصل عن عالمها مطمئنةً؛ وشت بكلّ الأسرار لابنها (شكري) الذي أتمّ عامه الثاني عشر: قصص أجدادها، نسبها، دينها السري. وأورثته حُبّ (كالو) الذي نطق علناً بعد خسارة العثمانيّين في الحرب العالميّة الأولى، صار سميعاً طليق اللّسان كأنّه عوّض عَقدين وأكثر قضاهما أصمّ. لم يفكّر هو عينه بالأمر، بعد تأكّده من خسارة العثمانيّين خرج وصرخ وتكلّم مع الناس، لكنْ من دون أن ينسى سرّه الأبديّ، أضمر هويّته الإيزيديّة وقصصهم. دُهش القرويّون من ذلك، وعدّوه معجزةً من الله، وشكروه وحمدوه؛ أمّا (عَيشانه) فقد أورثت ابنها كلّ أسرار (كالو)، وطلبت منه أن يطيعه إلى الأبد.

ما من خطب شغلَ بال (عَيشانه) بعد أن خسرت رغبتها في إنجاب الكثير من الأطفال، بعد تلقين ابنها كلّ الأسرار؛ لذلك، تماهت في استرجاع لحظاتها مع والدها وعمّتها كأنّها كانت تؤقلم نفسها وتدرّب ذاكرتها الجديدة عندما تنتقل وحيدةً مثل طائرٍ تاه عن سربه إلى عالم الموت. أمواتها هُم أهلها وأصدقاؤها في عالمها الجديد. أغمضت عينيها على صورهم في ذهنها. لم تردّ على نداءات (كالو) عليها؛ إذْ دخل غرفتها مع الطعام.

بجانب قبر عمّتها، داخل قبرٍ طويلٍ وممشوقٍ دُفِنَت (عَيشانه). وفى (كالو) بوعده لها، أدار رأسها داخل القبر صوب الشرق، وتمتم بالأدعية الإيزيديّة سرّاً وسط جمع القرويّين المنهمكين في قراءة سورة الفاتحة. كانت الأفواه جميعها ممتلئة بالدعاء باستثناء فم زوجها (فرحان)، كان يبكي وحسب، أجهش ببكاءٍ كان صداه آخر ما وقع في القبر قبل ردّ التراب عليه، رُدَّ التراب على جثّة (عَيشانه)، وعلى صدى صراخ وبكاء (فرحان)

الذي ظلَّ شهوراً عديدة يخرج فجراً من البيت، يسير صوب المقبرة، يسقي الأعشاب والحرمل على القبر، ويأكل حفنةً صغيرةً من ترابه، ويجهش بالبكاء حتّى مغيب الشمس، ليعود إلى البيت يسترجع ما مضى إلى أن يغفو. تماهى مع ذلك الدرب الترابيّ الذي ربط بيتهم بمقبرة العائلة على تلّةٍ قريبةٍ؛ إذْ تحوّل البيت إلى ألمٍ لا نهاية له. نالت منه رغبة زيارة المقبرة ليلاً، واظب لياليَ عديدةً على ذلك. إلى أن ولج عينيه طيف امرأةٍ خرجت من نورٍ تشكّل على القبر، اقتربت نحوه بدون أن تلمس قدماها الأرض، لم تكن تشبه (عَيشانه). ظهيرة اليوم التالي وجدوه مغشيّاً عليه قرب قبر (عَيشانه)، ظلَّ فاقداً الوعي ليومين، ما دعا إلى تدخّل أولاد السيّد (جومَرد) الذين اجتمعوا على فكرة تزويجه مرّةً أُخرى. لم يكن يملك حيلة أُخرى، ظنّ أنّ طيف المرأة تلك كان رسالةً من زوجته، لم يخبر أحداً، كان يرغب بذلك، إلّا أنّه لم يكن قادراً على التعبير عن الحادثة عبر إشارات اعتباطيّة تبذلها يداه، وأصوات غريبة تخرج من حنجرته، لم يعلم أحد ما جرى تلك اللّيلة. لم يكن يملك خيارات ترشده إلى الخلاص بنفسه وبابنه من وحش القلق الموضوع في قفصٍ بداخله. لم يغيّر شيئاً، استسلم لفكرة الزواج مرّةً ثانية. غاب تسعة أيّام رفقة أولاد السيّد (جومَرد) وعادوا رفقة امرأةٍ من قريةٍ قريبةٍ من (ديار بكر)، قالوا للقرويّين: «هذه زوجة (فرحان) الجديدة، اسمها: عَدلك». لم يضاجعها (فرحان) حتّى لو مرّةً واحدة.

ما من أحدٍ استطاع ملاحظة ما يفكّر به (كالو) طوال تلك الأشهر بعد موت (عَيشانه)، عاد إلى هَجر النطق، لم ينطق حرفاً واحداً. كانت آخر كلماته تلك التي حاول بها إيقاظ (عَيشانه) لتتناول الطعام، ولم تجبه وقتها، فهجر الكلام والناس، كأنّه أخفق في المهمّة الموكلة إليه. في ليلةٍ ماطرةٍ

دخل إلى غرفة (شكري)، سعّر نور الفانوس في وجهه، راقب تنفّسه، فكّر عميقاً في إيقاظه، إلّا أنّه تردّد وتركه ملتحفاً بنومه الهادئ كمشي الظبية، لم يقبّله، تردّد. خرج إلى المقبرة. جلس تحت المطر بين قبرَيْ: (عَيشانه)، وسيّدته (سلتي)، تناهى إلى أذنيه صوت سيّدته (سلتي) تقول: «اقترب منّي يا كالو، هاك، اتبع يدي وخذ منها تيناً».

لم يعثر أحدٌ على (كالو)، تناقل الناس فيما بينهم كلّ التفسيرات والتحليلات التي يمكن بحثها ومناقشتها، لم يسمع أحد نقيض الحطب المشتعل داخل صدر (فرحان)، أراد أن يعينه (كالو) في محنته، أراد أن يكون سنداً لـ(شكري)، بقي (فرحان) معتقداً بأنّ (كالو) كان والد زوجته حتّى موته بعد عام وسبعة أشهر من اختفاء (كالو). عثروا على (فرحان) صباح يوم ربيعي ميتاً، متمدّداً بجانب قبر (عَيشانه)، فَدُفِن ظهيرة هذا اليوم، في المكان ذاته. وزرع شكري ثلاث شتلات ريحان على قبورهم.

ذ

أُلزِم (شكري) على قبول كلّ ما حدث كباقي القرويّين، والاعتياد على أشياء لم تكن مفسّرة. أرغمَ على نسيان أرض أبيه في قرية (كوندك) الواقعة على مسافة ألفي خطوةٍ من قريته (شورِك). لم يعد بمقدوره حرثها وزراعتها، لم يعد بمقدوره زيارة ذويه في القرية التي أصبحت تابعةً للدولة التركيّة بين ليلةٍ وأُخرى. توجّس بالحدود، ذاك الشيء الخرافي الذي لم يفلح في فهمه، لم يوفّق في معرفة المغزى منه. لم يكن مقتنعاً بأحاديث القرويّين عن نشوء دولةٍ باسم سوريا أصبحت قريته (شورِك) تابعةً لها، وبأنّ قرية والده وجدّه (كوندِك) أصبحت تابعةً لدولة تركيا. فكّر بالقدر الذي فصل بين الأرضين المفتوحتين على بعضهما منذ عصور. صار لزاماً عليه التأقلم مع الأدوار والواجبات الجديدة الموكلة إليه. صارت الحدود وحشاً ملتفّاً حول رقبته وليس حدّاً يفصله عن موطن أجداده. أُجبِرَ على بناء ذاكرةٍ جديدةٍ كأنّ الحدود تلك فصلته عن ذاكرته. كأنّها عرّتهُ إذْ سُلِبَت منه أرض والده وجدّه. اعتزل الناس قرابة عام، كانت زوجة أبيه السيّدة (عَدلك) تدير شؤون الأرض، تأتي بعمّالٍ يحرثون أرضهم في (شورِك)، ويحصدونها، يجنون العنب من الكرم الذي غرسَ (كالو) فسائله بيديه،

بمفرده، نزولاً عند رغبة سيّدته (سلتي) قبل عقودٍ عندما فرّوا من الجيش العثمانيّ، كان العمّال يبيعون المحصول إلى التجّار في (عامودا) التي أخذت دور (ماردين) بعد وضع الحدود، وصارت شبه مدينةٍ يقضي الناس فيها أمور دنياهم، فضلاً عن مدنٍ أُخرى بناها الفرنسيّون على خطّ الحدود.

عرف (شكري) كلّ تلك التفاصيل، مَن غرسَ فسائل الكرم، من حفر بئر البيت. كلّ شيء ألقي في ذهنه كدلوٍ بلسان أمّه (عَيشانه)، كأنّه وُلد معهم وهرب معهم، وتعب معهم، ومرض معهم. هُم ماتوا إلّا أنّه بقي شاباً شاهداً على المستقبل الذي لن يشاهدوه. صار ذاكرتهم المستقبليّة الفانية. كلّ الأحداث عادت إلى السطوح وسعَّرت النار داخل ذهنه بتلك الفترة التي اعتزلَ فيها الناس معانقاً وحدته في بيتٍ سوّره (كالو) بيديه وبمفرده قبل عقود. كلّ ليلة، كان يفكّر بغياب (كالو) الذي أوصته أمّه بطاعته، أراد أن يعود كي يطيعه وينفّذ وصيّة أمّه.

كانت السيّدة (عَدلك) تقول له: «لقد ورثت حالة البكاء من والدك». تراه يمضي الليالي في حوش البيت مرتجفاً إثر البكاء. لم تكن (عَدلك) تعرف أنّه كان يبكي لغياب (كالو)، كانت تحيل سبب البكاء إلى تلك الحدود، إلى الجنود المنتشرين في الأنحاء، القادمين من فرنسا التي لم يسبق لأحد القرويّين السماع بها من قبل. هي أيضاً نال البكاء منها إذ قضمت الحدود ذاكرتها، ألزِمَت على نسيان أرض ولادتها، وطفولتها، وشبابها، القرية التي ولدت فيها، القريبة من مدينة (ديار بكر) التي ألحِقَت بالدولة التركيّة. قال لها (شكري): «إن شئتِ عودي إلى هناك، وإن بقيت ستكونين في مقام أمّي، فأنت زوجة أبي الذي أحبّه، ها هو قد مات، أشعر أنّك أمانة في رقبتي إلى يوم القيامة». لا أحد يعرف لماذا اختارت

السيّدة (عَدلك) البقاء في القرية بعد موت زوجها. ظلَّ (شكري) مقتنعاً بأنّها لا تملك هناك أهلاً تذهب إليهم، لذلك اهتمَّ بها كأنّها أمّه. لم يكن بمقدوره الإيمان بكلمات القرويّين عن الدول، والحدود، والحروب، لم يكن مؤمناً بالجنود الفرنسيّين الذين يعبرون الأنحاء، ظنّ بأنّهم عشيرةٌ من عشائر المنطقة، وقد قسّمت الأرض. ضحكت السيّدة (عَدلك) من كلامه عندما أخبرها على مائدة العشاء في حوش البيت وضوء السراج يرتجف ويتمايل نحو وجهه كأنّه يقرأ باطنه. ظلَّ مواظباً على فكرة الخلاص. نهضَ من سريره فجراً، سرج الفرس التي اقتناها (كالو) من مدينة (ماردين)، الفرس ذاتها، تلك التي أنقذته من الموت عندما احترق بنار الموقد وحساء العدس الساخن، فمُهِرَ نصف وجهه، وكلّ صدره، وذراعاه وساقه بختم نارٍ لم يحذف الزمن أثره من ذهن الفرس. امتطى الفرس المعبّأة بأثر (كالو) وترك لها العنان تركض مع خطّ الحدود، ركضت، عبرت قرى لها ذاكرة هي الأخرى مع قرى مثيلاتها وراء الحدود، في الأرض التركيّة. تحمل الريح بيدين خفيَّتين قطرات دموعه المنعكس فيها خيال أمّه وأبيه و(كالو)، لا حيلة له. أخذته الفرس التي سعّرت الشمس على بَدَنها حمرة الفجر. لم يتعب (شكري) على ظهر الفرس الضبح مع خطّ الحدود، ولم تنته الحدود. كان يعتقد بأنّ للحدود نهاية يعبر من خلالها إلى أرض أجداده في قرية (كوندك)، لكن خيّبت المسافات ظنّه بالزمن؛ توحّدت المسافة مع الزمن، تكاثروا عليه وأسقطوه أرضاً. بقيت الفرس تكلأ الحشائش قرب السياج المكدّس بأشواك معدنيّة كأنّها من نسل تلك الموجودة على أغصان تحمي الورود من أيادي الغرباء. عاد (شكري) إلى القرية، إلّا أنّه لم يكن يشبه (شكري) الذي خرج فجراً في سبيل الطمأنينة، في سبيل اكتشاف نهاية الحدود. عاد آخرَ، قليل الكلمات، كثير العمل، فاقداً قدرته

على البكاء. كأنّه مات ولم يمت في اللحظة ذاتها. ارتابت السيّدة (عَدلك)، واستغربت من حاله، ظنَّ القرويّون بأنّه أصبح ناضجاً ولم يهتمّوا بأمر ذلك التغيير الذي طرأ عليه فجأةً كنشوء الحدود. لم يكن أحدٌ يعلم بخروجه قبل سبع سنوات فجراً من بيته رفقة الفرس باحثاً عن نهاية الحدود، فجاء من يومها بنهايته، نهاية (شكري) المنكسر تحت أحمال الفقد، وبداية شكري المستسلم لأحمال الفقد، الفقد الذي يُسقِط الخيول ويردم الجبال على الوديان. أصبح (شكري) خيالاً في صورة أجداده الكبيرة، تلك الصورة التي انقطعت واختفى نصفها وبقي نصفها الآخر سريّةٌ في قلبه، مُخبّأةٌ لن تظهر سوى في ماء عيون ذريّته.

لفحَ الزمن كلّ شيء على تلك الأرض البعيدة المنشطرة إلى نصفين، تكاثرت ظلال البشر على الدروب والسهول، تكاثرت ظلال البيوت في القرى، تكاثرت ظلال الأشجار، والزرع، والدوابّ، والجنود، والغرباء، والمنفيّين، والملاحقين، تكاثرت ظلال الكراهية والفردانيّة، تكاثرت ظلال حرّاس الحدود على الحدود، تكاثرت ظلال المخافر ونقاط المراقبة. كلّ شيء تحوّل إلى ظلّه في نظر (شكري)، لم يكن يشاهد كلّ تلك المتغيّرات، كان يشاهد ظلالها وحسب، كأنّه تجرّد من العالم الواقعيّ حوله، بعد أن تجرّد شيئاً فشيئاً من وجود القرويّين في مرمى نظراته، هؤلاء الذين ارتابوا إثر موت أمّه وأبيه بالسلّ، تملّكتهم الريبة منه فهجروا شيئاً فشيئاً مجلسه، بل حتّى الوقوف معه طويلاً على البيادر. ظلَّ وحيداً، عاملاً في أرض أمّه و(كالو)، عمَرَ غرفتين جديدتين في فناء بيته الواسع. صار كائناً انحصر وجوده بورقةٍ ممهورةٍ بختم الفرنسيّين، قالوا له: «هذه هويّتك الجديدة، احفظها واحتفظ بها كي تبقى موجوداً».

وحيداً مثل تينةٍ تأخّر جنيها ونسيت في أذهان القطّافين، ليالي عديدة، خرج قرب الحدود، نظر إلى أضواء الفوانيس والنيران المشعّة خلال نوافذ قرية أجداده (كوندِك)، صار يتخيّل جلسات الناس داخل البيوت، يمتحن ذاكرته بإعادة صور الأشخاص في ماء عينيه، يتحيّن انطفاء الفوانيس، يخمّن لحظات نومهم واستيقاظهم. يسامر ذهنه أثرهم في ذهنه. فانحسار الناس عنه في (شورِك) بسبب السلّ أعاده إلى التمعّن في ركن ولادته بعينين منعزلتين، وحيدتين، مشعّتين، ومنعكس خلالهما طيف الحدود.

ر

– أخبري طفلنا كلّ شيء، دعيه يتأمّل في تراب هذه الأرض، وأغصان شجيرات عنب الكرم. دعيه يشاهد يد أبي، وأمّي، و(كالو)، كي يؤمن بيديه.

لافّاً شاله المطرّز حول فمه وأنفه، مقتعداً فراشه، وقابضاً بيده اليسرى الهشّة على طرف عباءته المصنوعة من فرو الأغنام، كي لا تنزلق عن كتفيه الهشّين، بصوت مسدول عليه الأنين، ممزوج مع صدى مرور المعدن على صفيح صدئ، متلعثماً قال (شكري) لزوجته (غزالة). بينما بجوار جذع التينة العظيمة متمايلة الأغصان إثرَ أحمال الثمار المشبعة بالضوء وآثار خطوات الراحلين، جلست السيّدة (عَدلك)؛ إذْ طلب منها (شكري) ترك الغرفة للحديث مع زوجته.

لم يحظ بالفرح كباقي الرجال الذين همّشموا جرار شبابهم بالزواج. لم يكن مؤمناً بالارتباط بامرأة، إلّا أنّه توجسّ بذريّة أجداده، خاف أن تقطعها وحدانيّته، خاف أن يتحوّل إلى سكّين تقطع حدّتها سلسلة تشهد على وجود أجداده. كأنّه أراد لقصص أمّه، وأبيه، وجدّه، و(كالو) الدوام. كان عليه وضع بذرته داخل رحم امرأةٍ كي يتلمس الطمأنينة، وإعطاء الأبديّة

لسيرة أجداد أمّه الإيزيديّين السريّين المنعزلين الذين تُمتِمَت دعوات الديانة الإيزيديّة على قبورهم سرّاً وبشفاهٍ مرتعشةٍ كخفق أجنحة الفراشات على عتبة نارٍ مسعورة. كان عليه خلق شاهدٍ من صلبه كي لا تُدفن القصص الكثيرة الوافدة من جبال (سنجار) وسهول (ويرانشهر) و(ماردين). انتابه الخوف، هَلعَ وسأل نفسه مراراً: «كيف يستقبلني أبي، وأمّي، و(كالو)، وجدّي، وجدّتي، كيف يستقبلني الضحايا الذين فقأت السيوف والبنادق النور داخل أجسادهم، كيف ألاقيهم في موطن الموت إن لم أترك شاهداً على وجودهم من صلبي؟». كَمَن تأخّرَ عن قافلةٍ انطفأت في عيون المودّعين واندثرت في السراب. ذات يوم، أخبرته السيّدة (عَدلك) بأنّ فرسه لا تقوى على النهوض، والأكل، والشرب داخل الحظيرة. طلبت منه أن يهبها الرحمة عبر طلقةٍ من بندقيّته التي اشتراها (كالو) من أحد تجّار (ماردين) قبل عقودٍ عديدة. مدَّ يده، وضعهما في مرمى عينيه الخضراوين الكبيرتين كعيني أمّه، وراقب خطوط الزمن عليهما، كأنّها أثر الأفاعي داخل قشّ مستودع ضوء شمس الصيف على البيادر. سمع صوت طلقة البندقيّة، ارتجفت جفونه فأسبلهما لحظات طويلة داخل غرفته، فكّر فيها بجرأة وقسوة قلب السيّدة (عَدلك) التي وهبت الرحمة للفرس العجوز بعد أن جهر بعدم قدرته على القيام بذلك. ارتاب من الزمن، شاهدَ دم الفرس خلال المرآة الموضوعة في النافذة الواطئة، استغرب كيف زحف الدم من الحظيرة وتسلّق المرآة في النافذة الشماليّة المسدودة باللَبنات داخل غرفته، فَرَك الشكّ في جفونه، اقتنع بأنّه كان دم الزمن وقد نزف داخل عينيه. انكسر الظلّ في قامته، أيّاماً عديدة لم يبرح فيها البيت، كأنّه أصبح فَرسَ نفسه، كأنّ موت الفرس بالطلقة القديمة تلك كانت رسالةً غير مرئيّةٍ دفعته إلى النظر مباشرةً في عين الزمن.

نظرَ في عين زوجته التي سمع بطيبة أهلها وصبرهم فخطبها وعقد قرانه عليها وجاء بها سيراً على الأقدام من قرية (توكي) القريبة من قريتهم. بعد أشهر قليلة، تحدّب ضوء الشمس على بطن زوجته المستور بثوبٍ طويلٍ يعلوه قفطانٌ مطرّزٌ متدلٍ عليه طرف هبريّة تستر شعرها. أوشك على بلوغ مسعاه، في اللحظة التي كان يراقب فيها زفراته على الدوام كأنّه على خطّ سباقٍ طويلٍ، فكّر هل سينجح في ملامسة خطّ النهاية أم لا؟ كان الجنين في رحم زوجته دائريّة الوجه، ممتلئة الخدّين، وكبيرة العينين، تبلغ قامتها طولاً ظهر الفرس، كان الجنين في رحمها هو خطّ نهاية سباقه على درب الزمن المسعور، هل سيلمس ذلك الخطّ؟ أم سيمضي إلى عالم الراحلين من دون قطرة ماءٍ تُبَلِّل حنجرته التوّاقة إلى لفظ اسم كائنٍ من صلبه؟ قلق أن يرحل إلى عالم أمّه والآخرين من دون شاهدٍ يتركه على أثرهم. مضت الشهور قاسيةً عليه كأنّها دابّة تتحارب في الطمي. تحارب في طمي لا مرئيّ، كان المرض يسحبه نحو القاع، وتوقه إلى مولده يقبض على يديه وينقذه من الفناء. صارت أيّامه تدور منهكةً كعجلات عربةٍ مثقلةٍ بجثث المقهورين، جثثٍ متعدّدةٍ على عربةٍ تحمله إلى العتبة التي يتجرّد عليها المرء من مستقبله، صار ذاكرة وحسب. متمدّداً في فراشه المحشوّ بصوفٍ جُزَّ من الأغنام على شرف زواجه، خرجت عيناه، تقفزان من بيدرٍ إلى آخر، من حقلٍ إلى حقل، تعبران الحدود، تجلسان في الركن الذي ولد عليه والده. تجوبان الأرض التي استؤصلت منه كما استؤصلت ذراع معبّأة بأثر السهام والسيوف من جنديّ. صارت عيناه رسوله إلى الخارج، ترشدان أيّامه المتبقية إلى أيّامه الماضية. صار فرس نفسه يئنّ منتظراً تلك الرصاصة التي تفتح سبيل الرحمة وتدفعها نحو جسده المرتجف في أثر

الفانوس؛ إذْ أسبل الجنود الأتراك ضوء الشمس الوافد من النافذة الشماليّة عبر رصاصات اعتادوا أن يطلقوها على الناس في القرى الحدوديّة داخل الأراضي السوريّة. قال للسيّدة (عَدلك) قبل خمس سنوات: «الجنود الأتراك يسلبون منّا حتّى ضوء الله». سدّ نوافذ الجهة الشماليّة في الغرف المبنيّة على خطٍّ واحد داخل الفناء الفسيح كصدور الناجين. هبطَ طيفٌ من الفضاء غير النهائي داخل عينيه العميقتين ككلمة الرفض على لسان المظلومين. حطَّ على صدره، ارتفع إيقاع أنفاسه كأنّه رشف ماء البئر كلّه دفعةً واحدة. مرّرَ عينيه على وجهٍ صغيرٍ مكسوٍّ بأثر دم الولادة، قطع أنفاسه وراء شاله المطرّز الملتفّ حول فمه وأنفه. سمع صوت الداية تقول له: «لقد ولدت زوجتك طفلةً جميلةً، انظر إليها، ماذا نسمّيها؟ قد أوصيت زوجتك أن ندخل إليك المولودة بعد الولادة مباشرة». رفع (شكري) يده اليمنى عن طرف جسده المتمدّد، مرّر ظلّها المتراقص كنار الشاكين على بدن طفلته، لم يلمسها. قال كلمة سترافق الطفلة إلى الأبد:

- سمّوها (سيرانه).

تمدّد الظلام على جسده المزمّل بلحافٍ صنعته زوجته، وجلب محمولاً على عربةٍ قبل يوم الزواج بليلتين، طُمِرت السخونة في زجاج الفانوس الذي اشتراه (كالو) من (ماردين) قبل أن تتحوّل (عامودا) و(القامشلي) إلى مدنٍ تضاهيها وفرةً في المنتوجات. تأمّل في اسم (كالو) على لسانه المشغول بترديد مكاتيب عمره الطويلة، كان قد ردّد ذلك الاسم في قرارة نفسه طويلاً، أراد أن يسمّي ابنه على اسم (كالو)، لم يفكّر بالسبب الذي دفعه إلى عدم اختيار اسم والده. كانت حيرة أُخرى نالت منه في اللّحظة ذاتها التي أخبرته زوجته بأنّها حامل، حطَّ فجأة اسم (كالو) على

لسانه مثل نسرٍ، ارتجف لسانه تحت ثقله، فردّد الاسم مراراً وتكراراً إلى أن هدأ في فمه وولج صدره المعبّأ بالسل. لم يخبر زوجته عن قراره حول اسم المولود، كذلك هي، لم تسأله، أرادت له راحة البال، خافت أن يتعبه التفكير بالاسم، وضعت كأس الشاي في يديه لحظتها، فامتلك الجسارة وقال لها:

- هل ندمتِ على الزواج بي؟

- لقد أخبرتنا أنا وأخي وأبي عن مرضك يا (شكري)، كنّا نعلم بأنّك مريض، ورضيت بك على كلّ حال، أنت قسمتي ونصيبي، ما الغرض من سؤالك لي الآن يا عزيزي؟ لم ولن أندم على الزواج منك ما حييت يا عزيزي.

من دون تردّد، بصوتٍ ممتلئٍ مثل بطنها، همست قرب أذنيه وقبضت في يده على ضوء الفانوس الراكض على جسديهما كظبيةٍ.

تذكّرَ (شكري) هذه الأغنية بصوت أمّه، عندما انتظر وفد الصوت

Çi Çeme

Kurdish Folk

القسم الثالث

I

فتائلُ الفوانيس
نهضت
في أنفاسهنَّ

أ

خرجت البطّة وفراخها من ساقية الماء الصافية في الشارع أمام مرمى (سيرانه)؛ إذْ أدارت رأسها صوب سيّارة تاكسي صفراء وقد انطلق صفير إطاراتها لحظة توقّفها أمام باب بيتها، سرعان ما نهضت عن كرسيّها المصنوع من قصب الزلّ، وسارت صوبها عندما شاهدت السيّد (كالوش) وخالها (عبد القادر) ينزلان منها، وهي تقبّل يده، سمعت خفقات قلبها المتأهّبة في سبيل استكشاف سبب زيارة خالها وحيداً لهم. حاولت تنقية نبراته في ذاكرتها، وهو ينادي «كاااز كاااااااز» كي تنهض وتستقوي ببحّة صوته، فتعين نفسها على الريبة، لكنّها عادت من التوجّس والقلق عبر صوت السيّد (كالوش):

– ها قد دللتك على بيت (سيرانه) يا (عبد القادر)، الآن يمكنني العودة إلى الدكّان.

وسار مشياً عبر الأزقّة بينما عادت سيّارة التاكسي إلى (عامودا) مجدّداً.

لم تترك (سيرانه) طرف فستان الشرود طوال جلسة شرب الشاي مع خالها في فناء البيت، كانت منسابةً محكمةً قبضتها على بقعةٍ من فستانها الأخضر الطويل الذي جُلبَ قماشه من مدينة حلب خصوصاً لها، وفَصّلته

وخاطته (لينا). تعود تارةً من الشرود لحظة التحادث مع خالها، تارة أُخرى تفكر بسبب زيارته المفاجئة في الصباح الباكر، إلى أن تحامست وسألته بنبرةٍ متكسّرةٍ متعبةٍ بعد شرب كأس الشاي الثانية

- هل الجميع بخير يا خالي؟

وضع خالها كأس الشاي على الطاولة الخشبيّة الواطئة التي تتوسط كراسيَ مرتّبة حولها، وزفرَ كأنّه رتّب كلامه قبل النطق:

- أخبرونا بأنّ السيّدة (عَدلك) تحتضر، وتطلب رؤيتك.

شهق وزفر مرّاتٍ متتالية وأكمل:

- بعد قدوم زوجك من العمل سنذهب إلى (شورِك)، تعالي معي يا ابنتي، الأحوال تتغيّر في الموت، اسمعيها قبل أن تموت.

طوال الوقت، لم تغادر (سيرانه) موطن التفكير بكلّ ما حدث، بكلّ ذلك الأسى الذي غَزلَ ونسجَ طفولتها بنَوله، كانت تعتقد بأنّ ذلك الخيط الذي يربطها بقرية (شورِك) قد انقطع في ذلك الغروب الذي سكنت فيه درب قرية خالها وحيدةً مغمورةً بالدموع والخوف. طوال الوقت. منذ اللّحظة التي أخبرها فيها خالها، وإلى قدوم (نايف) من عمله. بين الأحاديث الكثيرة والدافئة التي دارت بينها وبين خالها وزوجها، لم تترك موطن الشرود والتفكير بالماضي. التفتت مراراً إلى الوراء من مقعد سيارة تاكسي صفراء جلبها (نايف) من سوق (رأس العين) كي تقلها مع خالها إلى قرية (شورِك)، التفتت مراراً وأخذت تراقب الطريق يتمدّد ويمضي خفيفاً سريعاً من مدينة (رأس العين). علّقت عينيها على الطريق الذي يمضي من سرعة السيّارة كأنّه مبلّلٌ بالمطر، ظنّت (سيرانه) أنّ ذلك من أثر الدموع في عينيها، كلّ دموعها التي أنفقتها من الطفولة إلى لحظة زواجها. ظنّت

تتأمّل الطريق كأنّها تقول في نفسها: «لماذا لم تأت معي يا (نايف)؟». أراد (نايف) أن تذهب بمفردها، ضغط على راحة يدها وقبّلها ورَبَّت على كتفها وهمس لها: «أحبّك جدّاً يا (سيرانه)». طوال المسافة بين (رأس العين) وقرية (شورِك)، لم تبارح (سيرانه) التفكير والشرود في سنواتها المنصرمة. عبرت السيّارة بقطعة الأرض الضخمة التي أنفقت في سبيلها طفولتها، وَلَج أذنها أثر صوت عمّال وعاملات الحصاد، التقت بذاتها، أجهشت بنواحٍ، ومراراً أدارت رأسها يميناً ويساراً كأنّها واظبت على مشاهدة كلّ سنواتها التي أنفقت على تلك الأرض دفعةً واحدةً، وطلبت من خالها أن يترجّلا هنا، ويكملا المسافة القصيرة المتبقّية سيراً على الأقدام. سارت (سيرانه) على تراب أرض والدها وأجدادها السريّين، على التراب الذي دوّنت عليه كلّ أسرارها بالرفش، والمعاول، وأصابعها الممشوقة. وبينما اقتعد خالها طرف الدرب ولفَّ سيجارة، اقتعدت (سيرانه) التراب قرمزيّ اللّون في كرم العنب، تبتسم تارةً، وتجهش بالبكاء تارةً أُخرى، استرجعت كلّ اللّحظات التي أنفقتها في الكرم ذلك الغروب الذي طُردَت فيه من بيت والدها، تنهّدت باستمرارٍ كأنّها لم تعرف الدنيا خارج التنهّد تلك اللّحظة، تنهّدت عميقاً وصارت تسترق السمع إلى صوت أمّها تدندن لها من قاع صدرها. مرّرت نظراتها الطويلة على كلّ تفاصيل الكَرم، ونهضت وسارت رفقة خالها إلى بيت والدها الذي خرج قبل عقودٍ كثيرةٍ على صهوة فرسه باحثاً عن نهاية الحدود. مضت إلى المقبرة، وقفت على قبور أجدادها السريّين، والخفيّين، والمنفيّين، قرأت على الشاهدات الصخريّة أسماءهم مكتوبةً بطلاءٍ غريب، حذف الدهر أجزاء منه: «هنا ترقد (سلتي)، هنا ترقد (عَيشانه)، هنا يرقد (فرحان)، هنا يرقد (شكري)». انكسرت زفراتها؛ إذْ

سرحت في مصير (كالو) الذي لا يعرف أحد أين هو، أين مضى، وماذا حدث له. تمتمت على القبور الطويلة الممشوقة دعوات الإيزيديّين جهراً، رفعت صوتها عالياً عالياً كأنّها تنتقم من ذلك الصمت الذي رافقهم عقوداً كثيرةً، تنتقم من الزمن الذي في كنفه عاش أجدادها عالماً يعجُّ بالأسرار، وماتوا وهُم يحافظون عليها:

- يا ربّ، لعظمتك، ولمقامك، ولملوكيّتك

يا ربّ، أنت الذي خلقت نفسك بنفسك

يا ربّ، أنت ملك ملك الجان

أنت ملك ملك الكريم

أنت أزليٌّ قديم

أنت أمنية الروح إلى الأبد

أنت ملك العرش والكرسيّ

أنت الصمد، الظاهر والباطن، الحيّ الأحد

أنت الفرد الحميد الواحد الأحد

يا ربّ، أنت ربّ السماء

أنت ربّ الشمس والقمر

أنت ربّ جميع المخلوقات

وأنت ربّ العطاء

يا ربّ، أنت الذي خلقت نفسك بنفسك

يا ربّ، لا لون لك، لا لحن لك، ولا صوت لك

أنت الغوث وأنت المدد

ثمّة غصّة سارت إلى جانبها كظلّها في تلك الظهيرة الحارّة، تفرح تارةً؛ إذْ تسترجع عدد السنوات التي لم تشاهد فيها بيت أبيها، وتحزن إذْ تتذكّر ما فعلته بها (عَدلك). وضعت قدمها على العتبة؛ إذْ فتحت فتاةٌ البابَ وسارت بها إلى غرفة (عَدلك) وعادت بكرسيٍّ كي يجلس عليه خالها في فناء البيت أسفل التينة الكبيرة.

مرّرت (سيرانه) عينيها على الموجودات في الغرفة، مقتعدةً سجّادةً بجانب فراشٍ تتمدّد فيه (عَدلك)، وفضّلت أن تستيقظ من تلقاء نفسها على أن توقظها الفتاة التي فتحت لهم باب البيت.

– مَن أنت؟

سألت (سيرانه) الفتاة بعد شرب كأس من الشاي منتظرة استيقاظ (عَدلك).

– أنا ابنة (عَدلك)، أنا أعرفك، حدّثتني أمّي عنكِ مرّات عديدة.

لم تستغرب (سيرانه) من كلمات الفتاة التي لم تسألها حتّى عن اسمها؛ في الطريق، أخبرها خالها بأنّ (عَدلك) تزوّجت وأنجبت بنتاً، وبعد سنواتٍ مات زوجها. لم يعنِها شيء ممّا قيل في سيّارة التاكسي تلك، كانت موثوقة بحبل خفيّ إلى ذاكرتها، تُخرِج من قاعها ماء طفولتها وتتضرّع إليه، تنكتُ بقلبها كلّ التفاصيل التي عاشتها في القرية.

– هل اشتقتِ إلى هذا البيت؟ متى كانت آخر مرّة شاهدتِه فيها؟

التمع النور كنصل خنجرٍ مصنوعٍ من الفضّة على قطرات دموعٍ غادرت عيني (سيرانه)، سرعان ما مسحتها براحة يدها اليمنى وتنهّدت، ظلّت الفتاة تتحيّن جواباً لسؤالها الذي دُفِنَ في أذني (سيرانه)، فنظرت إلى الفتاة وجاوبتها في قرارة نفسها: «مُنذ طردتني (عَدلك)، منذ قرابة عشرين

عاماً». لم تكرّر الفتاة سؤالها الذي بقي أثره على شفتيها من دون جواب، فخرجت إلى فناء البيت تسأل خالها الجالس على كرسيّ تحت التينة ما إن كان يريد شرب المزيد من الشاي.

أخرجت (عَدلك) يدها اليسرى من تحت اللّحاف ورديّ اللّون، ووضعت راحتها على ركبة (سيرانه) الجالسة بجانب فراشها والغائبة في تتبّع أثر طفولتها وشبابها داخل البيت. ظلّل الصمت عالقاً وراء حنجرتيهما كلاجئ وراء حدود دولةٍ غريبةٍ بعيدةٍ، اكتفت (عَدلك) بتأمّل (سيرانه)، بعد مدّة صمتٍ طويلةٍ، كانت تسبل فيها (عَدلك) جفنيها الثقيلين تارةً، وتعود إلى تأمّل (سيرانه) تارةً أُخرى، تبسّمت (سيرانه) ومرّرت راحة يدها اليمنى على رأس (عَدلك) كأنّها تمتمت لها تلك الكلمة البعيدة القريبة، تمتمت لها في قرارة نفسها، من قلبها: «أنا سامحتك يا سيّدة عدلك». فعادت المرأة العجوز إلى كنف النوم سريعاً وقد دثّر الشيب شعرها وعجنها الزمن الذي لا يهدأ في نفوس الموجودات.

مضت (سيرانه) رفقة خالها إلى قريته (توكي) للنوم عندهم تلك اللّيلة، فكّرت بكلمات الفتاة؛ إذْ قالت لها: «جسد أمّي ملتهبٌ بالكامل، تفتّحت فيه نوافذ صغيرة يمكن رؤية عظامها عبرها، لم أعد قادرةً على تحميمها وتنظيفها، أرجوك يا (سيرانه) سامحيها كي تموت بسلام».

سارت (سيرانه) على ذلك الدرب الترابيّ الذي سلكته ثلاث مرّات قبل ذلك، مرّةً بين ذراعي أمّها، كان عمرها أربعين يوماً، والثانية مع (عَدلك)؛ إذْ أعادتها إلى قرية (شورِك) بعد موت أمّها، قيل لها فيما بعد: إنّها كانت في عمر العاشرة، والمرّة الثالثة في التاسعة عشرة، وحيدة في ذلك الغروب الذي طُرِدت فيه من قرية والدها. ثلاث مرّات، كلّ مرّة

معقّدة بعُقَدٍ لا متناهية مع قصّةٍ ممهورةٍ في ذاكرتها، وهي تسير على ذلك الدرب رفقة خالها طلبت في قرارة نفسها من اللـه أن لا تسلكه مرّةً أُخرى، كان الغروب يلكم ظهرها، فيما ظلّها يسبقها إلى قرية (توكي).

على مشارف القرية طلبت من خالها زيارة المقبرة؛ إذْ مرّا بها، جلست على التراب قرب رأس أمّها السالمة داخل القبر، الخالدة في قاع صدرها العميق، ظلّت جالسةً حتّى فُصِلَت الألوان عن بعضها، واندثرت على خطّ الأفق تماماً؛ إذْ كمنت الشمس وراء ماء العيون.

في بيت خالها، ثمّة لوحٌ عظيمٌ لا مرئيّ مفتوح على كلّ جدران البيت، على كلّ الأشياء، لوح تراه (سيرانه) فقط، مدوَّنٌ عليه تلك اللّحظات والتفاصيل التي عاشتها هنا، من طفولتها إلى عمر العاشرة، ومن التاسعة عشرة إلى الثامنة والعشرين؛ إذْ تزوّجت ومضت إلى بيت زوجها في مدينة (رأس العين). أصرّت أن تفرش بقعةً من أرضيّة غرفتها وأمّها، مهّدَت جسدها النحيل عليها، وتدثّرت بنور الفانوس المنثور في المكان مثل ملحٍ على جرحٍ قديمٍ، أطلقت غزلان عيونها الخفيّة ترعى داخل البيت، وتقرأ في أثر حوافرها ما دوّنه عليه جنود الزمن. منذ اللّحظة التي وضعت فيها رأسها على الوسادة المحشوّة صوفاً أدركت أنّها لن تنام طوال اللّيل، استسلمت كأنّها نالت الطمأنينة عندما وجدت في التذكّر سبيلاً تسلّمه نفسها تلك اللّيلة القاتمة مثل سعال رضيعٍ في كهف. مرّرت عينيها فقرأت ما رغبت باسترجاعه من موطنٍ بعيدٍ داخل ذهنها إلى لحظتها الآنيّة عبر الألواح غير المرئيّة في بيت خالها، وصارت تدندن الأغاني التي دندنتها أمّها من قبلها، لها، لطفولتها. وخفقت أجنحة فراشةٍ هبّت من بين شفتيها، وحلّقت وتأرجحت على الخيوط النورانيّة المغزولة من نار الفانوس

جوارها. نهضت وعبرت الأشعّة الخفيفة الطويلة إلى أن وصلت حيث مصدر الدندنة، إلى قاع ذاكرتها، وضعت يدها الناعمة كخروج النبات الأوّل من باطن الأرض في يد أمّها الناعمة كبذرةٍ تلِج باطن الأرض. لم تبكِ (سيرانه)، تجاسرت، فانتصرت على جيشٍ خفيٍّ أعدَّ لها العدّة فتستسلم للبكاء، إلا أنّها لم تفعل، قاومت، كأنّ البكاء مقصّ خفيٌّ سيقصّ حبالاً توثقها بأرض التذكّر، كأنّها ستُحمَل إلى موطنٍ آخر بعيدٍ إذا ما بَكَت. ظلّت الغزلان التي هبّت من عينيها ترعى وتقرأ في أثر حوافرها، ظلّت مهادنةً مع فراشةٍ أرشدتها إلى الوطن عبر الأشعّة النورانيّة، مريداتِ نار فانوسها. سألت رُسلاً هبّوا في صدرها: «هل هو الفانوس ذاته الذي لثم ضياؤه وجنتَي أمّي؟ هل هي النار ذاتها التي تنفّست كرضيعٍ داخل عينيها في تلك اللّيالي الطويلة التي تحاربت فيها مع السلّ؟ هل طلاء الجدران هو ذاته الممهور ببصمات يدي أمّها حين نازلت المرض؟ هل هذه الوسادة ذاتها / الحقل الذي ارتوى من دموع أمّها؟». ترى في كلّ التفاصيل، من ثمَّ تُتَمتم لنفسها: «لا تبكي يا (سيرانه)، لا تبكي». أطاعت نفسها، فلا تفنى من ذاكرتها تلك اللّحظة، القدر قد رتّب لها كلّ شيءٍ، فتصل إلى ما وصلت إليه، تَلَت في قرارة نفسها تلاواتٍ سريّةً كشكرٍ وامتنانٍ، كي تبقى على الأقلّ تلك اللّيلة في حضرة نعيم وُهِبَ لها، دعت لترتاح (عَدلك):

- إلهي، هبها راحةً من الاثنتين: راحة العافية، أو راحة الموت.

خفقت أجنحة الفراشة الخفيّة في غرفتها حول شفتيها أكثر وأكثر، كأنّها جلبت مكتوباً من الغيب ردّاً على ابتهالاتها، لم تنسَ الدعاء لـ(عَدلك)، لم تنسَ قطرات الدموع حول محاجر ابنتها التي لم تسألها حتّى عن اسمها.

بعد ليلتين قضتهما ببيت خالها في قرية (توكي)، آثرت البقاء على العودة إلى (رأس العين)؛ إذْ راودها حلمٌ تيقّنت إثره من موت (عَدلك) خلال الساعات القادمة. التحق بها (نايف) لاستكشاف سبب تأخّرها، قال لها: «لم يعد بمقدوري المشي داخل بيتٍ لا تضبح أنفاسك فيه». بعد هاتين اللّيلتين الممزوجتين بالبكاء والقصص، المزدحمتين بالأزمنة المتعدّدة كأنّهما لحظتين من يوم القيامة، ماتت (عَدلك).

تحت الخيمة الكبيرة المصنوعة من شعور ماعز كُلئ في بيادر تلك البقعة المنسيّة، بقرية (شورِك)، جلس خالها و(نايف) بين المعزّين من الرجال، بينما اكتظّت غرف بيت والد (سيرانه) بالنساء والفتيات اللّواتي قدِمن من القرى المجاورة ومدن (القامشلي) و(عامودا) لواجب العزاء. انتفضت (سيرانه) على صوتها بجيش البكاء والنحيب، فهدأ ولم يعد بمقدوره الخروج من حنجرتها. انتحبت على كلّ القصص التي حدثت، على كلّ الأقدار التي تداخل بعضها ببعض، وجَبَلت معاً بأيادي الزمن غير المتناهية مصيرها وقدرها. انتحبت على أمّها، أبيها، على قصص أمّها، وقصص أبيها، وقصصها، وقصص (سلتي)، و(كالو)، و(عَيشانه)، تداخلت كلّ القصص، تكاثرت عليها وتحوّلت إلى مخلوقٍ حفرَ ذهنها. انتحبت على (عَدلك) التي ماتت، ولم تردّ على سؤالها لها قبل قرابة عقدين ونصف، آنَ سألتها في فناء البيت إذ خلّصت بدنها النحيل من قبضتها الغليظة القاسية:

- تكرهيننا، كنتُ أعيش بهناء في بيت خالي، لماذا أتيتِ بي مجدّداً إلى قرية أبي بعد موت أمّي؟ ماذا تخبّئين بالله عليك، لماذا تلقين عليّ كلّ هذا الأذى؟

– هل تدفعينني إلى البوح يا ابنة شكري؟ ستموتين ولن تعرفي غايتي، سيُدفَنُ سؤالك هذا من دون جواب، مع جثّتك الوحيدة في قبرٍ بمكانٍ ما، أجل، أنت لستِ مسجّلة في خانة والدك، وهل كنتِ تنتظرين منّي أن أترك لك ولزوجك هذه الأرض التي فنيت شبابي لأجلها؟ أجل، أنت لستِ مسجّلة في خانة والدك، هل ارتحتِ، ارتاحي أكثر، وأريني ما ستفعلينه.

استرجعت بالنحيب العميق ذلك الحوار الذي لم يغادر ذهنها للحظة، لم تلتق بالجواب، صارت تسأل نفسها، وهي تنتحب:

– كنتُ أعيش بهناء في بيت خالي، لماذا أتيتِ بي مجدّداً إلى قرية أبي بعد موت أمّي؟ ماذا تخبّئين بالله عليكِ، لماذا تلقين عليّ كلّ هذا الأذى؟

ارتابت أكثر؛ إذْ ماتت هي ودَفنت الجواب معها، وحيدةً صارت تبحث في خبايا الجواب المدفون مع جثّة (عَدلك) داخل قبرٍ مجاورٍ لقبر والدها في مقبرة القرية على التلّة المتاخمة للمخفر. يُعتَصَرُ قلبها بقبضةٍ خفيّةٍ كلّما وقعت عينها على بطاقتها الشخصيّة، وقرأت اسم رجُلٍ غريبٍ، وامرأةٍ غريبةٍ مكان اسم الأب، واسم الأم. كادت تحرق بطاقة النفوس خاصّتها مرّات عديدة لولا وعد (نايف) لها بأنّه سيصحّح كلّ شيء إلى الحقيقة عبر محامٍ وكّله للخوض في سراديب تلك القضيّة المعقّدة مثل الأصوات والجلبة لحظات الفجر الأولى. صارت تكره اسم بلدها، صارت تكره جميع الدوائر والمؤسّسات الحكوميّة، ترتاب إذْ تشاهد الأطفال على طريق المدرسة، ترتاب إذْ تقع عينها على سيّارة الشرطة، على مبنى البلديّة، على الأخبار في التلفاز والراديو. كلّ تلك العناصر كانت تذكّرها ببطاقتها الشخصيّة، بالانتماء الكاذب لأبوين غريبين سجّلتها (عَدلك) على اسميهما فتحرمها من حقّها الشرعيّ في ممتلكات والدها،

تلك الممتلكات التي مات أجدادها في سبيل الحفاظ عليها، وحاربوا من أجلها. كلّها ذهبت هكذا ببساطة، باسمين وهميّين غريبين يرافقان اسمها الحقيقيّ والحيّ على بطاقتها الشخصيّة المسجّلة لدى الحكومة. كلّ تلك الأحداث والقصص تداخل بعضها ببعض وامتزجت مع النحيب، كلّ تلك الأحداث ظهرت مجدّداً ودفعةً واحدةً وتفتّحت وتناثرت كالخيوط حول جرحٍ طويلٍ في جثّةٍ تفنى داخل القبر.

رَبَّتت ابنة (عَدلك) على كتفها في الغرفة؛ إذْ أخفقت نداءاتها المتكرّرة لها في مجلس العزاء. سُرعان ما أعادتها الطبطبة تلك من أرض شرودها المتداخل مع البكاء، وهمست في أذنها: «ثمّة امرأة بفناء البيت تسأل عنك». مضت (سيرانه) إلى حوش البيت، وتوقّفت قبالة امرأةٍ طويلة القامة مكوّرة الوجه بياضه متداخل مع بياض الشال على رأسها:

- هل أنت (سيرانه)؟

سألتها المرأة متفحّصةً باطمئنانٍ ملامحها.

- نعم، أنا (سيرانه).

بصوتٍ مبحوحٍ بالكاد سُمِعَ، جاوبتها فيما تمسح أثر الدموع عن وجهها بطرف شالها الأبيض.

- أنا الحاجة (لطفية)، أنت لا تعرفينني، أتيت من (عامودا) كي أتحدّث إليكِ في أمرٍ غاية في الأهميّة، هلّا أخذتني إلى غرفة نتحادث فيها بمفردنا؟

سارت (سيرانه) بالمرأة السبعينيّة صوب غرفة (عَدلك)، واقتعدتا سجّادةً، ورشفتا القهوة المرّة من فنجانين ضيّفتهما ابنة (عَدلك) وخرجت.

زفرت المرأة مراراً، حرّكت شفتيها كأنّها تُتَمتم بشيءٍ ما، وهي تسبّح بسبُحةٍ طويلةٍ ذات حبّاتٍ زيتونيّة اللّون صغيرة:

– أنا الحاجّة (لطفية)، من مدينة (عامودا)، لا أعرفك ولا تعرفينني، لا تستغربي من زيارتي يا ابنتي، لن أطيل عليكِ، رجاءً اسمعيني.

هزّت (سيرانه) رأسها خفيفاً كإشارةٍ دفعتها صوب المرأة فتكمل حديثها.

– لليلتين متتاليتين، شاهدت امرأةً في حلمين متشابهين، بالتفاصيل ذاتها، والحوارات ذاتها، والمكان، شاهدت امرأةً طويلةً نحيلةً، شعرها أبيض أشعث، أظافرها بحجم ذراعيها، تصرخ وتبكي متمزّقة الثياب، بدنها مغمور بالدماء والجروح، تتسلّق تلّةً كبيرةً شديدة الانحدار، من ثمّ تسقط متدحرجةً تستقرّ قربي، وتعيد الكرّة مجدّداً مرّاتٍ كثيرة، وكانت تقول لي: أرجوكِ، أرجوكِ، اذهبي وابحثي عن (سيرانه)، ابحثي عنها واطلبي منها أن تسامحني كي أهدأ وأرتاح. سألتها: مَن هي (سيرانه) ومَن أنتِ؟ وأين سأجدها؟ جاوبتني، وهي تتدحرج، وتنهض، وتقع أرضاً، وتنهض، وتتسلّق جبلاً شاهقاً وتسقط: اسمي (عَدلك)، متُّ منذ ثلاثة أيّام، أنا من قرية (شورِك)، اذهبي هناك واطلبي من (سيرانه) أن تسامحني.

كانت (سيرانه) هادئةً مستسلمةً طوال الفترة التي أُنفِقت في سبيل ما سمعته من لسان المرأة التي أكملت كلامها منقطعة الأنفاس، وجفناها متهدّلان على عينيها، تُسَبّح وتسرد كأنّها تنقل ما تراه في باطن عينيها وقلبها مباشرةً، وأكملت إثر تنهّدات عديدة:

– لا أعرف مَن تكون (عَدلك)، ولا أريد معرفة أيّ شيءٍ يا ابنتي، فقط أردت أن أنقل لكِ كلامها علّني أرتاح أنا الأُخرى من هذا الحلم القاسي،

سامحيها يا ابنتي، مهما كان ما فعلته عظيماً سامحيها، بحثتُ عنكِ، وكنت متأكّدةً من أنّني سأجدك؛ أما الآن، اسمحي لي أن أعود إلى البيت، فابني ينتظر بالخارج تحت خيمة الرجال.

نهضت المرأة بعد محاولاتٍ متكرّرة من (سيرانه) طلبت فيها أن تتناول الطعام من ثمّ تذهب، على عتبة الباب الخارجيّ، حضنت المرأة (سيرانه)، فهمست في أذنها:

- أنا سامحتها من قلبي يا حاجّة (لطفية)، بقي أن يسامحها ويسامحنا اللـه.

استرجعت (سيرانه) كلّ تلك الأحداث في ذهنها طوال اللّيل، طوال اللّيل خفقت قطرات المطر الخفيفة على الموجودات، كفراخ طيورٍ تتمرّن داخل أعشاشها على الطيران، لم يكن وقعها على زجاج النافذة بجانب سرير (سيرانه) لطيفاً كالمرّات السابقة التي خلالها كانت تمتطي فرساً يهبها لها الشرود لتنطلق كناجيةٍ صوب معنى المطر المبطّن، صوب الأرض التي ولدت عليها، وصوب تفاصيل لقائها بـ(نايف). نهضت منتصف اللّيل إثر حلمٍ استخرجها من قاع النوم، حبّات العرق لمعت على وجهها مثل البريق في فوانيس المختبئين، ولكي تكمّم خطواتها على مرمى أذني (سَلمى) النائمة في سريرٍ يجاور سريرها. مَشَت حافية القدمين على بلاطات الغرفة علّها تجد سبيلاً إلى الطمأنينة وتعود إلى قراءة نقرات المطر على صفحة نافذتها كما تفعل عادةً. جلست تارةً، وتمدّدت تارةً أُخرى، إلّا أنّ كلّ محاولاتها في وجه نسيان حلمها قد أخفقت، فاستسلمت لفكرة الاستفسار عن أيّ خبرٍ يخصّ (نايف). تمنّت لو أنّ (أَسْبيد) ترك لها رسالةً منه كما فعل قبل ستّة أشهر عندما مرَّ بدمشق

مع زوجته في طريقهما إلى لبنان لزيارة بيت حَميه. توسّلت لحظتها أيّ خبرٍ عن أي شخصٍ من سكّان (رأس العين)، تمنّت لو أنّها تقرأ اسم تلك المدينة في مكانٍ ما داخل المستشفى، آمنت بفكرة أنّ أيّ خبرٍ من هناك سيكون ممزوجاً برائحة زوجها، فتمشّت داخل الغرفة إلى أن تجاسرت وخرجت. تساندت على رغبتها، بطيئة متّكئة إلى جدار الممرّ الطويل المطليّ باللّون الرماديّ، سارت ثقيلة الخطوات كأنّها تجرّ عربةً لا مرئيّة محمّلةً بمصيرها وآلامها، إلى أن ولجت غرفة الممرّضة، استندت بكلتا يديها إلى طرفيّ الباب، تمدّدت ذراعاها كجناحي يعسوب. نهضت الممرّضة عن كرسيّها وراء الطاولة، وهرعت صوبها بوجهٍ تزمّله الدهشة، وكنفتها على الدخول، أجلستها على كرسيٍّ مقابل طاولتها؛ إذْ همست لها (سيرانه): «أنا بخير لا تقلقي، لكنّني مغتمّة». اتّكأت بكوعها على طرف الطاولة الخشبيّة المتدثّرة بالأوراق، والدفاتر، والكتب، وأسندت رأسها إلى راحة يدها الباردة المائلة إلى الصفار، تأمّلت الشاي يدور حول نفسه بسرعةٍ كدوّامةٍ داخل كأسٍ وضعتها الممرّضة أمامها، وسرحت في فقاعاتٍ صغيرةٍ إلى أن فُقِئت إثر نفخاتها عليها لتبرد. لم تبادر بالحديث، كأنّها لمست الطمأنينة لحظة دخولها غرفة الممرّضة. فكّرت، لو كان من رسالةٍ، أو خبر لها لبادرت هي بالحديث معها حولها، لذلك بقيت صامتةً ومتأمّلةً تجوب نظراتها في الغرفة التي لم تدخلها من قبل، فكّرت لحظةً بالأسباب التي منعتها من القدوم أحياناً إلى الغرفة والجلوس إلى الممرّضات، لم تجد سبباً سوى رغبتها في البقاء طوال الوقت داخل غرفتها، فزفرت كأنّها ارتبكت من تلاقي جملتين في صدرها المعبّأ بالقصص والكلمات. كذلك الممرّضة، لم تتحدّث إليها، واكتفت بدفع ابتساماتٍ صغيرةٍ نحوها، إلى

أن انسابت عينا (سيرانه) مع مجموعة كتبٍ على الطاولة الكبيرة، فدفعت سؤالاً صوب الممرّضة بنبرةٍ ممتلئةٍ شغفاً:

- هل هذه كتبكِ؟

- أجل.

وضعت الممرّضة كأس الشاي على راحة يدها اليسرى، وطوّقت أصابع يدها اليمنى حولها.

- كان زوجي يقرأ مثلكِ كتباً كثيرة.

قالت (سيرانه)، فيما أسبلت جفنيها للحظات كأنّها قبضت على صورةٍ مرّت بخفّةٍ في ماء عينيها كقاربٍ صغيرٍ يصنعه الأطفال من الأوراق ويرمونه في السواقي، وتمدّدت شفتاها. اسُتدرِجَت صوب ركن الطمأنينة في قرارة نفسها، بعد لحظات صمتٍ طويلة، أدارت رأسها صوب مرمى نظرات الممرّضة الوديعة، وسألتها بنبرةٍ تشبه نبرة ضائعة التقت بالجهة التي تهبّ منها الرياح:

- لماذا تقرئين الكتب؟ لم يحدث أن سألت زوجي هذا السؤال.

- وهل تقرئين أيضاً؟

سألتها الممرّضة بنبرةٍ عطوفةٍ كأنّها تدفعها إلى البوح فتصل إلى غايتها في معرفة سبب غمّها الذي بقي مبطّناً.

زفرت (سيرانه) وتأتأت إلى أن وفِّقَت في ترتيب جملةٍ دفعتها نحو الممرّضة المواظبة على شرب الشاي برشفاتٍ خفيفةٍ مكتومة الصوت:

- لم أفكّر يوماً في السبب الذي يدفعني إلى القراءة، ربّما لديّ مجموعة أسباب، سأفكّر بها، لكنّني سألتكِ عندما تذكّرت زوجي، ربّما شوقي إليه

الآن، شوقي إلى معرفة أخباره دفعني إلى استكشاف علاقته بالقراءة من خلال علاقتك أنتِ، أووووه! انسي الأمر يا صغيرتي، حقيقةً لا أعرف.

أنهت كلامها بارتباكٍ دفعها إلى حمل كتابٍ صغيرٍ بحجم الكفّ وقراءة ما دُوِّن على غلافه بصوتٍ جهوريٍّ كأنّها تتفقّد قدرتها على القراءة، فِتنال الطمأنينة، وتتذكّر أنّها لم تنسَ القراءة بعد:

- يبدو أنّ هذا الكتاب جديد، هذا واضحٌ عليه، كانت كتب زوجي قديمة.

سألت الممرّضة، فابتسمت وقالت:

- أجل، هو جديد، طُبِعَ قبل أشهرٍ قليلة، فاشتريته.

تصفّحت الكتاب حتّى غاب نور الممرّ الوافد إلى الغرفة؛ إذْ تمدّد ظلٌّ بَشَريٌّ على الكتاب، والطاولة، وبدنها، كأنّه غيمةٌ قضمت ضوء الشمس على الموجودات، التفتت (سيرانه) إلى الباب -مصدر الظل- وتبسّمت عندما وقعت عيناها على بدن (سَلمى) المندهشة والمستغربة الواقفة بالباب تقول بنبرةٍ معبّأةٍ عتاباً: «أنتِ هنا يا سيرانه؟ لقد جعلتني أرتجف خوفاً عليكِ، استيقظت ولم أرَكِ في الغرفة».

جالسةً في سريرها، مسندةً ظهرها إلى الوسادة، الغيوم البيضاء المتناثرة في السماء الممتلئة بآثار أمطار اللّيلة الفائتة هشَّمتها أشعّة الشمس التي ولجت الغرفة من النافذة الموصدة، والتمعت في أثر الحنّاء على شعر (سيرانه). سألت (نايف) إن كان بمقدورها وضع الحنّاء على شعرها داخل المستشفى، لم يجاوبها. عاد في اليوم ذاته بالحنّاء من دكّان السيّد (كالوش) ليأخذوها معهم إلى دمشق.

رؤوس أشجار السرو الباسقة في ساحة مستشفى (ابن النفيس) تتمايل مع الهواء الخفيف كأشرعة السفن في عرض البحر. تمرّرُ (سيرانه) سبّابتها على سطور الكتاب المفتوح في حضن كفّها الأيسر، وتقرأ في قرارة نفسها، بينما شفتاها تنبضان بحركةٍ خفيفةٍ كقلب عجوز. تردّدت بادئ الأمر في طلب الكتاب من الممرّضة بغرض قراءته، لم يسبق لها استعارة الكتب من الغرباء، كانت تعتقد بأنّ الأزواج وحدهم يتبادلون الكتب فيما بينهم، فتجاسرت؛ إذْ رأت الكتاب بمنزلة خيطٍ خفيٍّ يربطها بزوجها المسجور داخل ذاكرتها. وفي سبيل القيام بفعلٍ يذكّرها بزوجها تجاسرت وطلبت استعارة الكتاب. تقرأ بعمقٍ كَمَن يقرأ وصاياه على الباقين الناجين، أصبح الكتاب هذا وسيلةً من الوسائل التي تستند إليها فتنجو من الوحدة والوحشة في المستشفى البعيد عن (رأس العين)، وجدته معيناً يحملها إلى ضفّة الطمأنينة، تمرّر سبّابتها على السطور، تقرأ بنَظْمٍ بطيءٍ كي لا تفرغ منه سريعاً، كأنّه الكتاب الوحيد في الوجود وقد حصلت عليه، على الرغم من أنّ الممرّضة قد أهدتها إيّاه، إلّا أنّها توجّست من ألّا تنهي قراءته، قلبت صفحاته ببطءٍ، قرأت إلى أن خرج (نايف) من قاع الكتاب، وولج عينيها.

– مَهري هو أن تعلّمني القراءة والكتابة، ففي الوقت الذي كان الأطفال فيه يذهبون إلى المدرسة، كنتُ أعمل في أرض أبي، جهلي بالقراءة كان سبباً في ضياع أرض أبي.

قالت لـ(نايف) بنبرة مَن تأخّرت عن خطّ النهاية في سباق جريٍ طويل، متورّدة الوجنتين، وقد حُمِل دم التردّد في طَلبها ذاك إلى رأسها قادماً من قلبها الخجول. بعد مرور شهرٍ ونصف من زواجها، أمسكَ زوجها بيدها،

وسارَ بها إلى فناء البيت مشيراً بإصبع نهض من قلبه إلى السبّورة الخشبيّة الخضراء وقد علّقها إلى جذع التينة المتين أسفل المرآة الصغيرة، أجلسها على كرسيّ الخيزران والزلّ، وأخذ يدوّن بالطبشور الأبيض حروف اسمها باللّغة الكرديّة على صدر السبّورة التي جلبها له السيّد (كالوش) من مدينة حلب. (S E Y R A N Ê) نطقَ حرفاً تلو الآخر كأنّه لم ينطق من قبل، كأنّ حروف اسم (سيرانه) هي أوّل ما تعلّمه في دنياه. صار يتأمّل في عمق الأحرف، ويتلذّذ آن يخرج لفظها من فم (سيرانه) المواظبة على التعلّم. فيما بعد، خلال الأيّام والأشهر اللّاحقة، صار (نايف) ينظّم وقته بين العمل وتعليم زوجته، بدأ بتعليمها القراءة والكتابة باللّغة الكرديّة، ومن ثمّ اللّغة العربيّة، ذات يوم سألها (نايف): «لماذا لا تلفظين كلمة أحبّك؟ لم تقوليها لي منذ زواجنا». وهي تعلّق على الحبال في فناء البيت كالمسابح حلقات الباذنجان المحفور، والبامية، والكوسا؛ إذْ جمعتها بخيوطٍ مرّرتها بإبرة اللحف والفرش في أبدانها لمؤونة الشتاء، بنبرة وملامح سمكةٍ انتقلت من حوضٍ صغيرٍ إلى حوضٍ أكبر همست له: «هل يجب أن أقولها يا أيّها المعلّم؟ ألم تلحظ كيف تعلّمت القراءة والكتابة خلال سنتين فقط؟ هل سألت نفسك عن السبب؟». وأسبلت جفنيها فيما خفقت فراشتان؛ إذْ هبّتا من وجنتيها المكوّرتين الممتلئتين، وحلّقتا صوب شفتي (نايف).

وجنتاها المورّدتان، وجفناها المسبلان، استدرجت (سَلمى) صوبها، فأعادتها من شرودها أمام الكتاب المفتوح مثل منقار دجاجةٍ؛ إذْ قالت:

- (سيرانه)، أجبيني، أين ذهبتِ؟ هل تقرئين أم تراكِ سارحة بشيء ما؟ ما اسم الكتاب؟

فتحت (سيرانه) بوّابتي عينيها والتفتت إلى الجهة اليسرى حيث

(سَلمى) مستلقية في سريرها، تنهّدت عميقاً، وتأتأت، ورتّبت كلماتها قبل أن تبوح بها:

- أخذتني القراءة إلى (رأس العين) يا (سَلمى).

- إلى (رأس العين) أم إلى زوجك يا عاشقة؟ ما اسم الكتاب؟ من هو كاتبه؟

قالت (سَلمى) بهمسٍ ممزوج مع غمزة دفعتها صوبها.

ابتسمت (سيرانه) وأغلقت الكتاب بينما تركت سبّابتها بين صفحاته، فلا تضيع الصفحة التي بصدد قراءتها، ونظرت إلى غلافه.

تأمّلت (سيرانه) خيراً من رغبة (سَلمى) بالتحدّث إليها من تلقاء نفسها، كانت قد اعتادت أن يكون كلامها أجوبةً فقط، لا سيّما أنّها لم تبادر بالكلام إلّا ما ندر، سلّمت أمر الحالة تلك إلى الطمأنينة، ولم تحاول كلاهما تغيير مصيرها. قُصِفَ المبنى المجاور لمستشفى الجامعة الأمريكيّة، واشتدّت الحرب بمدينة (بيروت)، مضى شقيق (سَلمى) من جبل (الكرد) شمال غربي مدينة حلب إليها هناك. كانوا قد سمعوا الأخبار من الراديو، فدفع مستحقّاتها الماليّة لإدارة المستشفى، وجاء بها إلى مدينة (دمشق)، إلى غرفة (سيرانه) بعد معرفة إدارة مستشفى (ابن النفيس) بأنّها لا تجيد التكلّم سوى باللّغة الكرديّة. قبل عامٍ تقريباً، كان قد مرَّ على وجود (سيرانه) داخل المستشفى ثلاثة أشهر وأسبوع تقريباً، فصارت (سيرانه) شريكتها بالغرفة ومترجمتها، تترجم لها ما يقوله الطبيب والممرّضات، وتتركها تمضي وحيدةً لساعاتٍ تتأمّل وتبكي في سريرها متكوّرةً على خاتمها الذهبيّ ببنصرها اليمين. لم تملك (سيرانه) الجسارة كي تسألها عن سبب عزلتها وبكائها اليوميّ، وعلاقتها بالخاتم الذي تتكوّر عليه وتحضنه طوال الوقت.

أشهر أربعة تقريباً كانت قد مضت، ولم تنطق فيها (سَلمى) سوى أجوبةٍ قليلةٍ توجّه إليها مترجمةً إلى الكرديّة من الطبيب والممرّضات. لم تنزل يوماً إلى حديقة المستشفى الصغيرة، لم تتمشَّ سوى تلك الخطوات إلى المرحاض وأخرى إلى نافذة الغرفة تتسمّر قبالتها ساعاتٍ طويلة، لتعود فتتمدّد في سريرها، وتتكوّر على الخاتم، وتجهش بالبكاء المكتوم، كأنّها بكت طويلاً خلال السنوات التي أنفقت من عمرها، كأنّها فقدت خاصيّة البكاء جهْراً.

صبيحة ذات يوم، نهضت وطلبت من (سيرانه) إبرةً، اعتقدت (سيرانه) بادئ الأمر أنّها تطلب إبرةً طبيّةً تشبه تلك التي يحقنون عضلاتهنّ وأوردتهنّ بها، إلّا أنّها وضّحت على وجه السرعة بأنّها تسعى في سبيل خياطة شيءٍ ما. بعد يومين جاءت ممرّضة لها بإبرتين، بقياسين مختلفين. فجر اليوم التالي، استيقظت (سيرانه) على صوت تمزّق القماش، كانت (سَلمى) تمزّق قطعة صغيرة من أسفل ثوبها الأبيض بأسنانها على شكل مربّع بحجم الكفّ. أولجت شعرةً قطعتها من جذع رأسها في خرم الإبرة وصارت تنقش على المنديل الأبيض الصغير، بقيت على هذه الحال قرابة شهرين، تنقش بشعرها على المناديل أشكالاً غريبةً، شبيهةً بمخلوقاتٍ ممزوجةٍ من البشر، والحيوانات، والنباتات، والزهور، تفرَغ من منديلٍ لتبدأ بآخر. جلبت لها الممرّضة قطع قماشٍ مقصوصةً جاهزةً في هيئة مناديل كي لا تمزّق ثوبها بعد أن كرّرت ذلك مرّتين. تنقش وتبكي، وتنقش وتبكي، وتتمدّد في سريرها وتنهض تسير إلى النافذة، وتعود لتكمل التطريز على المنديل، وتتكوّر من جديد على خاتمها الذهبيّ تجهش بالبكاء. ذات يوم، قالت من تلقاء نفسها، من دون أن تسألها (سيرانه):

– كنت أتمنّى ألّا ينقذني الراديو، لو أنّ أهلي لم يسمعوا أخبار الحرب، لما جاء أخي وأخرجني من ذلك المستشفى، الحرب تتيح للحزانى إمكانيّة الموت بقذيفةٍ على الأقل.

بدورها، (سيرانه) لم تركّز كثيراً على كلامها، ليس لأنّها غير مهتمّة، بل لخشيتها أن يحدث تدخّلها ردّ فعلٍ لديها، فتترك حالة مبادرة الكلام، لذلك اكتفت بالإصغاء وحسب، لا سيّما أنّها كانت تدرك تماماً بأنّها أسيرة عشقٍ ينال من قلبها كما تنال السكّين من رقبة الذبيحة، تركتها تتحدّث أحايين قليلة من تلقاء نفسها، وكانت تسألها أحايين أُخرى في لحظات تناول الطعام، أو عندما كانت تريها ما طرّزته على المنديل. ذات يوم؛ إذْ شاهدتها بمزاجٍ جيّد، ولتفتح بوّابة الحديث بينهما، طلبت منها أن تطرّز اسمي: (نايف)، و(كليستان) على منديل. وبعد موافقةٍ ممزوجةٍ بابتسامةٍ كشفت عن كلّ أسنانها، كتبت (سيرانه) الاسمين بقلم الممرّضة على المنديل، وقطفت بضع شعراتٍ من رأسها وأعطتها لـ (سَلمى). لحظتها سألت: «مَن هؤلاء؟». فأجابتها (سيرانه) بنبرةٍ معبّأةٍ حيرة وحسرة: «(نايف) زوجي، و(كليستان) ابنتي».

تسع سنوات كانت قد مرّت على زواج (سيرانه) و(نايف)، عندما عرفت بأنّها حامل، لم يكونا قد تناقشا قَطّ حول موضوع الحمل والإنجاب من قبل. لم يكن (نايف) أسير الرغبة الذكوريّة تلك، رغبة صناعة أطفال على هيئة الأب بحجّة تخليد اسمه الذكوريّ، حتّى إنّه كان يردّ بشراسةٍ على السائلين له ما إن كانت زوجته حاملاً أم لا. كره كثيراً تلك الجملة التي يتسلّى بها الناس ويرمونها على مسامع مَن تزوّج ولم ينجب الأطفال بعد مرور عامٍ على الزواج: «هل من طفل في الطريق؟»، أو جملة: «هل أرسلت

في طلب وليّ العهد؟». أصابه الصداع من تلك الجمل التي كان الناس يرمونها بأقواس ألسنتهم كسهامٍ تنغرز في أذنيه، وحدهما السيّد (كالوش)، و(الملّا أمين) لم يسألاه عن تأخّر حمل زوجته قطّ، كانا صديقين يعرفانه جيّداً، وخشيا من أن يفقداه إذا ما دفعا نحوه هذا السؤال؛ لذلك، وبعد تسع سنوات من دون حمل، لم يكن (نايف) سعيداً عندما أخبرته (سيرانه) بأنّها حامل. ارتاب بادئ الأمر، ظانّاً أنّ الأطفال سيغيّرون طريقة عيشه مع زوجته التي يحبّها كثيراً، بعد تلك السنوات التي تمرّن خلالها على العيش معها فقط. ارتاب من ذلك الخبر كأنّ الأطفال سيسلبونه بعضاً من حبّ زوجته ووقتها. قال لها ذات مرّة عندما سألته عن عدم سعادته بحملها: «يا عزيزة قلبي، سعادتي لا توصف، ألا تلحظين؟». اقتنعت (سيرانه) بكلامه، وأكملت خياطة وتطريز ثياب طفلها القادم خلال أيّامٍ قليلةٍ، كما أخبرتها الداية الكرديّة (كلجيهان) التي نفتها الحكومة السوريّة إلى مدينة (السويداء) كعقابٍ إثر تُهمٍ سياسيّةٍ تخصّ علاقتها وزوجها باللّغة الكردية الممنوعة هناك. عملت في مدينة (السويداء) عامين متواصلين، وكانت (سيرانه) أوّل امرأةٍ تفحص وتراقب حملها بعد عودتها مجدّداً إلى (رأس العين) قادمةً من منفاها ربيع 1980.

لم تهنأ (سيرانه) بطفلتها، تَلبَّسها الحزن، حتّى إنّها لم تسأل زوجها عن معنى اسم (كليستان) الذي اختاره لها. انسابت وتماهت مع الحزن بعد دخولها المستشفى في مدينة (رأس العين) إثر ولادةٍ شاقّةٍ، ومعرفتها بأنّها مصابة بالسلّ. جبلٌ عظيمٌ تدحرج وهبط على صدرها مثل نقطة حليبٍ وضعته بإبهامها على شفتي طفلتها في المرّة الأولى كي تعرّفها على الثرب. امتطت تلك الفرس الخفيّة التي لا أحد يراها سواها، ارتابت وخشيت أن

تسلك طريق أبويها اللّذين ماتا بالسلّ، وجدّتها لأبيها، وآخرين من ذلك النسل السريّ الذي يتنقّل سرّاً من لسان الجدّة إلى أذن الأم، ومن لسان الأمّ إلى أذن الحفيدة، كانت هي الحفيدة التي ينبغي لها تلاوة ذلك السرّ في أذني ابنتها ليدوم إلى أن تشرق الشمس من الغرب وتغيب من الشرق، إلى أن تتسطّح الأرض وتقلع رياح قويّة كلّ الموجودات وتفنيها، ليبقى الذئب وحيداً، مخالبه مغروزة في الأرض، وقد اقتلعت الريح عنه جلده. لحظتها سيقول الذئب لنفسه: «لو كنت أعرف قوّتي لما سمحت لأحدٍ أن يسلب حقّي منّي». تذكّرت تلك العبرة التي قالتها لها أمّها عندما كانت في الثامنة من العمر، وطلبتها إلى غرفتها للحديث معها مكمّمةً قبل موتها بعامين: «(سيرانه) يا ابنتي، لا تتركي حقّك في حوزة الظالمين». وكأنّها كانت تعلم وتقرأ ما ستفعله بها السيّدة (عَدلك). فكّرت في السنوات، فكّرت فيما لو أنّ القدر سيهبها سنوات قليلة حتّى تحكي لابنتها (كليستان) تلك القصص السريّة أم لا، فوجدت ضالّتها في (نايف)، اتّخذت منه رسولاً يخبر وينقل لابنته كلّ شيء، كانت قد تكلّمت عن تلك الأسرار كلها لـ(نايف) بعد الأيّام الأولى من زواجهما، وكرّرت على مسامعه في الباص الذي جاء بهم من مدينة (رأس العين) إلى (دمشق)، والذي استأجره (نايف) لها على وجه الخصوص. كانت تلقي له كلّ شيء مكمّمةً، بينما صوتها المعذَّب ينساب مع صوت محرّك الباص الكبير. انتحبت لحظتها لأنّها اكتشفت عورة القدر؛ لأنّها شاهدت الزمن عارياً يتنقّل في البراري مثل وحشٍ طوال الطريق من مدينتها إلى العاصمة. تنظر عبر نافذة الباص، وتشاهد الزمن والقدر معاً، وهُما عاريان يجوبان البراري الشاسعة، أدركت بأنّ قدرها يشبه قدر ابنتها التي تركوها بحوزة عائلة السيّد (كالوش) تهتمّ بها زوجته

ـروجة (أَسْبيد) كأنّها ابنتهم من لحمهم ودمهم، من رائحة أرواحهم؛ لذلك، أجهشت بالبكاء عندما ذكّرها سؤال (سَلمى) لها بكل شيء:

- من هما (نايف) و(كليستان)؟

أجهشت بالبكاء وهي تجيبها:

- (نايف) زوجي، و(كليستان) ابنتي.

وغابت في شرودٍ عميقٍ؛ إذْ ضمّت (سَلمى) خيوط شعرها من خرم الإبرة التي وجّهتها صوب النافذة، فتكتشفه عبر الضوء الوافد منه إلى الغرفة، وهي تطلب من (سيرانه) همساً تحت خديّن مورّدين كتابة اسم (فَخري) بالكرديّة على منديل. دوّنت (سيرانه) اسمه بالكرديّة على المنديل الأبيض الصغير ووضعته على ركبة (سَلمى) المقتعدة طرف سريرها. وأزاحت مخدّتها الممتلئة قطناً، حملت من أسفلها مظروفاً صنعه (نايف) بنفسه، أخرجت منها رسالةً مطويّةً بعنايةٍ، فتحتها وجلّست طيّاتها براحة يدها اليمنى، مرّرتها مراراً على الورقة البيضاء كما تُمَرَّر اليد على صدر مريض، وهمّت بإعادة قراءتها همساً، تفعل ذلك كلّما هبَّت في ذهنها ريبة تخصّ (نايف) وابنتها:

«عزيزتي، وحبيبتي، وزوجتي الغالية سيرانه، تحيّة لكِ بطول الطريق من (رأس العين) إلى الشام.

أكتب لكِ هذه الرسالة، وأنا جالسٌ على الكرسيّ الذي كنتِ تجلسين عليه، تحت شجرة التين العظيمة، من هنا كانت العصافير تغادر عينيك الصافيتين العسليّتين، تحلّق نحو السبّورة الخضراء مثل عروق يدك النقيّة، وتحطّ على الحروف والكلمات التي عبرت ثغركِ الرقيق مثل أجنحة

الفراشات، لتدخل حنجرتكِ، ومن ثمّ صدركِ، كنت أراقب الارتعاشات في شفتيكِ، وأنتِ تُتَمتمين وتتلعثمين؛ إذْ تردّدين الكلمات همساً لتحفظيها سريعاً عن ظهر قلب، عن ظهر قلبكِ الذي يأسرني طوال الوقت.

عزيزتي وغاليتي..

أكتب لكِ، وأنا جالسٌ على كرسيّكِ الناعم لأنّك ستقرئين هذه الرسالة بالشغف ذاته الذي كنتِ تقرئين ما كنت أدوّنه على السبّورة، هل تلمسين البيت الآن؟ بيتكِ الذي ينتظركِ، بيتكِ المحمول على ظهري أينما ذهبت، الواسع الفسيح. أتخيّل خطواتكِ على الشوارع، السهول، وداخل بيتنا. كلّ شيء في المدينة ينضح برائحتك.

عزيزة قلبي..

كلّنا بخير، وبصحّةٍ جيّدةٍ، ابنتنا (كليستان) بخير، تكبر لحظةً تلو الأُخرى، أزورها كلّ مساء. زوجة السيّد (كالوش) وزوجة ابنهما (أَسْبيد) ترعيانها بدفءٍ لا نظير له، كأنّها من صلبهم. كوني مطمئنةً، لا أدعهم يتحمّلون نفقات رعايتها، أشتري ما يلزمها على الرغم من معارضتهم الشديدة. هي تمشي الآن، أراقب خطواتها الخفيفة وأتذكّرك. زوجة السيّدة (كالوش) وكنّتهم تعلّمانها نطق اسمك، عندما تعودين إلينا سالمةً، ستسمعينها تلفظ اسمك. أخذتُ إليهم شالكِ، وضعوه في مهدها كي تبقى رائحتكِ قريبةً من أنفاسها، يقولون: «الطفل يحفظ رائحة أمّه».

عزيزتي وغاليتي..

أنا بخير، أعمل كالسابق، الأحوال ممتازة للغاية..

المدينة على حالها، لم يتغيّر فيها شيءٌ، مَن نعرفهم يسألون عنكِ دوماً وينتظرون عودتكِ بالسلامة، الجيران والأصدقاء، كلّهم يحبّونكِ، وينتظرونكِ، ويدعون لكِ بالسلامة طوال الوقت.

سأشاركِ بعض الأخبار كي تتلمّسي ابتسامتكِ وتعودي إلينا بسرعة..

الأخوان المكفوفان: (عَبود)، و(سالم) على حالهما، أشاهدهما عندما أزور السوق. قبل أيّامٍ قليلةٍ، أمسكت بيد (سالم) وطلبت منه أن يأخذني إلى حارة المدرسة، وعندما مشينا قليلاً، سألته عن المسافة بين ركن وقوفنا وتلك الحارة، رفع رأسه عالياً، ابتسم وقال: «هل تختبرني أم تريدني أن آخذك إلى هناك بالفعل؟». أخفيت عنه نيّتي في إعطائه بعض النقود حسنة تدفع عنّا البلاء -كما تقولين دائماً- ومشيت معه كيلا يكشف نيّتي، وعدت بعدها إلى البيت.

قبل مدّةٍ أيضاً، وأخيراً شاهدتُ جارنا (أبا مراد) مرتدياً بيجامته، يقف أمام بابه، هل تذكرينه؟ هو ذاته الذي أشيع عنه هلعه من السجن ورجال الشرطة، تخيّلي! لم يخرج بالبيجاما منذ سنوات كثيرة، عندما منع فيها الرئيس الأسبق (حسني الزعيم) خروج الناس من بيوتهم بالبيجاما. وأخيراً هجر جارنا ذلك الخوف، أو ربّما نسي الحادثة بعد قرابة ثلاثين عاماً، قال (الملّا أمين): «ربّما أصابه الخرف». كم ضحك عندما شاهده معي! بالمناسبة، لكِ تحيّات كثيرة من (الملّا أمين)، كان هنا عصر اليوم. أموره جيّدة، لم يزل يشتري اللّبن والجبن من البدو العرب، ويبيعه في دكّانه الصغير، من ثمّ ينصرف إلى شؤونه ويهتمّ بالمسجد، قال بأنّه انشغل أيّاماً بمجموعة مراهقين يسرقون النقود من مقام (الإمام البخاري)، تتذكّرين تلك الغرفة الصغيرة، مررنا بها عدّة مرّات في أقصى شمال المدينة. قال

بأنّ السيدة (هاجر) اشتكت عليهم له، كما تعرفين، تلك الصدقات التي يرميها الناس عبر النافذة العالية إلى الغرفة حيث الضريح، تذهب للسيّدة (هاجر) لذلك هي من اكتشفتهم، تخيّلي كيف كانوا يسرقون: ربطوا قطعةً صغيرةً من المغناطيس بطرف عصا طويلة أدخلوها من الشبّاك، ومرّروها على قطع النقد المعدنيّة، فكانت تلتصق بالمغناطيس، من ثمّ يلوذون بالفرار. قبض (الملّا أمين) على واحدٍ منهم، واكتشف كلّ الثلّة، واشتكى إلى ذويهم، وانتهت المشكلة، كانت سعادته لا توصف. فكما تعرفين، طيبته الشديدة جعلته مقصداً للضعفاء في المدينة. ولكِ تحيّات من زوجته وبناته أيضاً، سيرسل لكِ مع (أَسْبيد) شالاً، قال بأنّ زوجته اشترته لكِ قبل أشهر من مدينة (القامشلي) عندما زاروا أقرباء لهم عائدين من أمريكا.

أشيع في المدينة نبأ توجّس بعض السكّان من التكهّف، بعد سماعهم بتهدّم بقعة من الأرض على طرف المدينة، قالوا بأنّ أحد عمّال المهندس الجيولوجيّ الألمانيّ قد باع بيته وانتقل للعيش في مدينة (الحسكة)، الناس تضحك من فعلته هذه. يقال بأنّه تأثّر بالمهندس الألمانيّ، فكما تعلمين، هو أوّل من زرع خوف التكهّف في قلوب الناس بالمدينة، فقد كان يرفض النوم في (رأس العين) خشية انهدام الأرض تحت سريره، وكان يذهب كلّ ليلةٍ للنوم في مدينة (الحسكة) ليعود للعمل صباح اليوم التالي في (رأس العين). صارت القصّة مثل نكتةٍ بين الناس، حتّى إنّ السيّد (كالوش) يمازح بعض الزبائن ويقول لهم: اربطوا أسرّتكم بالسماء وناموا.

عزيزة قلبي..

مهما كتبت، لن يكون بمقدوري التعبير عن مدى شوقي إليكِ. اشتريت سريراً كبيراً لنا، ونصبته على سطح الغرف كي ننام عليه في الصيف.

عندما تعودين، سأحكي لكِ القصص تحت سماء اللّيل المعبّأة بالنجوم، سننام ونستيقظ فجراً لنرى معاً طلوع الشمس، سيخفق النسيم بين شعرك الطويل، وستهبُّ من بين خصلاته رائحة الحنّاء.

عزيزة قلبي..

تردّدت في كتابة هذا الخبر لكِ بدايةً، أخشى أن يكون سبباً يدفعك إلى التفكير مجدّداً بالماضي، على الرغم من أنّه خبرٌ سارٌّ جدّاً، المحامي الذي وكّلته بخصوص تزوير السيّدة المرحومة (عَدلك) لأوراق ميلادك، قد أخبرني قبل شهر تقريباً بأنّه استطاع الوصول إلى الشهود، نسّق معهم كلّ شيء. كانت هذه هي الخطوة الأخيرة يا عزيزتي، خلال مدّةٍ قصيرةٍ جدّاً ستعود لكِ أرض أجدادكِ، وسيُدَوَّن اسم والدكِ الراحل، ووالدتكِ الراحلة الحقيقيّين على بطاقتكِ الشخصيّة، وفي جميع دوائر الدولة الرسميّة. فكّري بالخير وحسب وانسي ما حدث، فكّري بابنتنا، وكوني قويّةً كي تعودي إلى حضننا قريباً. سأزوركِ بعد أشهر قليلة.

هل ستكتبين لي يا عزيزة قلبي؟

أحبّك جدّاً، ننتظر عودتكِ بالسلامة.

زوجكِ الذي يعشق اسمكِ، وقلبكِ، وجسدكِ، وروحك.

(نايف)

(رأس العين)، الساعة: السابعة مساءً، واثنتان وأربعون دقيقة - يوم الأحد الواقع في 13- 06 - 1982

ب

وضعَ (نايف) عينيه في خيالهما المنعكس على زجاج النافذة بجانبه، كوع يده اليسرى على إطارها البارز المرتجّ، جسده على المقعد العريض يميل نحو الأمام ويعود إلى الخلف، يميل يميناً ويعود إلى اليسار، في حركاتٍ متوازنةٍ لها الرتابة والإيقاع ذاتهما، يتحرّك بدنه كأنّه في منخلٍ كبيرٍ بيد امرأةٍ على بيدر القمح. أذناه ممتلئتان بالأصوات المنبعثة من القطار. على ركبته موضوع منديل أبيض يسنده وينقذه من السقوط براحة يده اليمنى المشدودة عليه، يزيح النافذة عن مرمى نظراته تارةً، ينزل عينيه كي تستقرّا على اسمه المطرّز من شَعر (سيرانه) على المنديل الأبيض الصغير، من ثمّ يعاود التمعّن في خياله المنعكس على زجاج نافذة القطار الطويل الذي يعيده مجدّداً إلى وحدته وعزلته في مدينة (رأس العين). كلّما ارتفع صفير القطار، تيقّن بأن المسافة بينه وبين (سيرانه) داخل المستشفى بمدينة (دمشق) تطول وتطول مثل ظلٍّ منتصبٍ في وجه غروبٍ أبدي.

– لقد حلمت بكَ قبل أيّام، وخطفَ القلق سنواتٍ من عمري.

همست (سيرانه) في أذنه على مقعدٍ خشبيٍّ في حديقة المستشفى. وقعت عينه على عشٍّ فارغٍ ردم المطر أجزاءً منه؛ إذْ رفع رأسه كمَن يفتّش

عن عذرٍ، حام حول سببٍ يختلقه حال بينه وبين زيارتها طوال تلك المدّة. لم يخبرها بالظروف الأمنيّة الصعبة في كلّ البلد نتيجة الأحداث الدمويّة التي دارت بين الحكومة والإسلاميّين في مدينة (حماة)، اكتفى بلكمةٍ خفيفةٍ دفعها صوب راحة يدها المنبسطة أعلى ركبته اليسرى كمناقير فراخ طيور تتحيّن طلوع منقار أمّها. يدها الناعمة مثل أرضٍ بور.

- لم أخرج من مبنى المستشفى طوال عام وشهر يا (نايف)، خذ موافقتهم كي ننام ليلةً خارجها، خذني إلى فندق، فكثيراً ما حلمت بأنّك تستأجر لي غرفة في فندقٍ بعيد، كيف تكون الفنادق يا حبيبي؟

تحت السقف الطويل المصنوع من التوتياء والحديد، المرفوع على حوامل نصف دائريّة معدنيّة ضخمة، الذي يدثّر (سوق الحميدية) وسط (دمشق)، وضعت يدها في يد زوجها. ضوء النهار الأبيض مثل أثر فوانيس المنسيّين يهبط من النوافذ والثقوب الصغيرة في السقف غير النهائيّ، ويحطّ على فستانها الأخضر الذي فصّلته لها زوجة (أَسْبيد): «كيف عرفت مقاساتي الجديدة؟». لم يخبرها (نايف) بأنّها استنتجت مقاسات بدنها قبل ستّة أشهر عندما زارتها مع (أَسْبيد) ليعطياها رسالةً منه، ويكملا السفر إلى (بيروت)، واكتفى بالثناء على نساء (الأرمن) وذكائهنّ، فلا تنتبه (سيرانه) وتتوجّس ببدنها النحيل. تمشّيا في الشوارع والأزقّة الدمشقيّة المفتوحة على بعضها، والمتداخلة كالنقوش على سجّادةٍ مغزولةٍ بنول البائسين. كانت المرئيّات بائسةً تلِج عيني (سيرانه)، ولم تخبر زوجها بذلك، فلا تفقده نقاء اللقاء بعد أكثر من عامٍ قضته في المستشفى. أرادت أن تصنع يوماً من أثر الأيّام التي ستعيشها. أرادت أن تصنع ذاكرةً مستقبليّةً وتحجرها عنوةً بين أيّامها. هذا اليوم على وجه التحديد، اليوم الذي تسند فيه رأسها

على كتف (نايف) في ظلّ شجرةٍ كبيرةٍ بإحدى حدائق العاصمة. كثيراً ما حلمت أن تزورها رفقة (نايف)، حيث يقضيان فيها كباقي الناس أيّاماً يخلّدونها في سيرتهم، ويقصّونها كحكايةٍ على أطفالهم وأحفادهم فيما بعد، إلّا أنّها تسير في شوارع العاصمة بقلبٍ مكسورٍ، كأنّ المرض يسلب من الموجودات خصوصيّتها داخل النفوس والقلوب، ويرسم لها شكلاً جديداً، وخصوصيّةً جديدةً لا تشبه تلك الموجودة والظاهرة، يغيّر المرض ظاهر الموجودات. فكّرت وحسب بالسبل التي تدفع خلالها يومهما نحو فرادةٍ لا تُنسى أبداً. بدوره (نايف) حلم كثيراً أن يصطحب (سيرانه) إلى العاصمة، وها هما في العاصمة الآن، إلّا أنّه يمشي على طرقاتها وفي شوارعها منحني الظهر، كأنّ عَموده الفقريّ مهشّمٌ، أو تحوّل إلى قوس كمنجة يعزف القدر بها قدره، كأنّه يقول في قراره نفسه: «واااا (سيرانه)، يا عزيزة قلبي، قد كسّر مرضك ظهري». سعى بدوره، طوال الوقت، في سبيل صناعة ما لن يُنسى، ونسْجِ أحداثٍ يشكّل خلالها يومهما الفريد هذا. كلاهما كان مكسورَ القلب، منحني الظهر، تطير وتحطّ الطيور غير المرئيّة في ذهنيهما، طيور الوحشة، والعذاب، والقلق. لم تكن تلك الطيور غريبةً على كليهما، فهما من صلب الألم والقلق، وقد كبرا على حليبه الأزلي.

داخل غرفة فندقٍ بمنطقة المرجة، القريبة من الساحة التي أعدم فيها القائد العثماني (جمال باشا) الوطنيّين السوريّين العرب بحجّة التواصل مع الفرنسيّين والوطنيّين السوريّين الفارّين من بطشه إلى (القاهرة). شرّع (نايف) نافذة الغرفة المطلّة على خطوات الناس، شرد إذْ صبّ الغروب ضوءه في عينيه، فرفع راحة يده اليمنى على جبينه يظلّل بها ناظريه ليتمكّن من معاودة الشرود وتأمّل الجنود المنتشرين في الشوارع كضفادع حول

الجداول والبرك، والرجال والنساء العابرون، تخيّل غايات زيارتهم إلى العاصمة. فكّر وقال في قرارة نفسه: «تُرى هل جميعكم مرضى أم مرافقو المرضى، هل تحوّلت العاصمة إلى مستشفى كبير كل من بداخلها إمّا مريضٌ، وإمّا مرافق له؟». إلّا أنّه استعاد ذهنه من بين أنياب الشرود، والاستنتاجات، والتخيّلات؛ إذْ استبدل بهواء الغرفة آخرَ قادماً من سماء (دمشق). أوصد النافذة، خفَت وقع الأصوات، واندثرت كأنّها جُلِدَت حدّ الإغماء. جلس إلى جانب زوجته على طرف السرير. تأمّل في صوت رعدٍ هزّ العاصمة على حين غرّة، حجب برقه الموجودات أمام ناظريهما، حجب الألم، والماضي، والحاضر، وفتح عيونهما على بياضٍ لا متناهٍ، لا يُلمس، وسرحا معاً في قرع المطر على النافذة، فتدثّرا بتأوّهات تشبه خروج العصافير الأوّل لحظات الفجر الأولى.

عينا (نايف) في خيالهما المنعكس على زجاج النافذة بجانبه، مثل طائر في عشٍّ غريبٍ وبعيدٍ، جسده على المقعد العريض يهتزّ ويرتجف كأنّه في منخلٍ كبيرٍ بيد (سيرانه) في سدرة المنتهى. يقرأ جهْراً اسمه المطرّز باللّغة الكرديّة على منديلٍ منسوجٍ من أثر عيني (سيرانه). يأخذه القطار الذي يشقّ اللّيل بصفيره، ويهشّ بعصا الزمن على الظلام الدامس الممتدّ بين البيادر والبيوت المنعزلة الوحيدة في مرمى السكّة الحديد غير المتناهية مثل البكاء خلال العتمة. وضع (نايف) أثر عينه في أثر عين (سيرانه) داخل المنديل الذي يشعّ مثل صهيل الأفراس الوحيدة في أفنية بيوت مضى سكّانها إلى العاصمة للتداوي من الزمن. رغب لو يسير القطار به سنةً كاملةً من دون توقّف، أراد أن يبقى معلّقاً على المسافة بين (دمشق) و(رأس العين)، وكأنّ فكرة الوصول لديه تحوّلت وتحوّرت، وأصبحت وحشاً يلتهم عضواً في

جسده كلّما اقترب من مدينته وابتعد عن المدينة التي تتدثّر (سيرانه) فيها بأضوائها الصفراء. قُطِعَت أفكاره، والأفراس التي تحمل شروده عادت صوب ذهنه، هاجَت الضوضاء داخل القطار إثر ركوب أعدادٍ كبيرةٍ من مسافرين يرتدون الزيّ العربيّ على متنه في محطّة (حلب). عرف بأنّهم عراقيّون سيسافرون إلى محطّة (القامشلي)، وبعدها يدخلون بالعربات والسيّارات الحدود العراقيّة. تحدّث إلى بعضهم في سبيل استكشاف سبب ذلك الطوفان الآدميّ الذي خُلِقَ بعد توقّف خطّ قطار (حلب / الموصل) عن العمل قبل شهر، ما دفع العراقيّين إلى استخدام قطار (حلب / القامشلي)، القادم من (دمشق)، كوسيلةٍ يقتربون بها قدر الإمكان من حدود بلدهم بعد خسارتهم خطّ القطار السريع الذي بدأ خدمته عام 1940 كما تمتم به راكب، أحال الأمر إلى السياسة قرب أذني (نايف) القابض على منديل (سيرانه) كأنّه طفل يخشى عليه من الضياع في فراغ الكون.

ت

أصبحت (سيرانه) وحيدةً تواجه المرآة التي تُضاء في عيون الوحيدات. ما من شيءٍ تعيد به حمل جيفة الوحشة في داخلها سوى ذاكرتها، بعد أن انحسرت (سَلمى) إلى عالم البكاء الذي حملها صوب الاستسلام للألم. فقدت عيناها القدرة على إرشاد النور إلى جسدها المتآكل كسور قلعةٍ متربّصةٍ بالغيب، فأُخِذَت إلى قسمٍ آخر، أخفقت (سيرانه) في معرفته. لم تعد المرئيّات واضحةً أمام عينيها، استسلمت هي الأُخرى للوحدة؛ تنصب عينيها كمنجنيقين محشوّين بالرأفة قبالة سريرها الفارغ المرتّب داخل الغرفة. تلمس شعرها فتتذكّرها، تنهض ليلاً، تسير حافيةً على بلاطات الغرفة، تتخيّل وجود (سَلمى) في سريرها نائمة. تجهش بالبكاء كأنّها فقدت اللّسان الذي كانت تعبّر خلاله عن توقها إلى زوجها وابنتها، إلى (رأس العين)، إلى أثر خطواتها على بيادر قريتي: (شورِك)، و(توكي)، عرّاها غياب صديقتها (سَلمى). تمنّت لو أنّها لم تتعرّف إليها، بعد أن صار الفراغ الذي يشعّ في أثرها داخل المكان مثل جثّة غريب. كيف ستنتصر الآن بمفردها على الوحشة؟ تسأل نفسها ساعات اللّيل المتأخرة؛ إذ تقف قبالة النافذة المطلّة على أضواء العاصمة الصفراء الشبيهة بوجوه

المنعزلات: «هل أُسلَب شيئاً فشيئاً من كلّ ما يوثقني بهذه الدنيا؟». تسأل نفسها، كأنّها تعرّفت لتوّها على السؤال في هذا العالم، تسترجع ما عاشته كي تتذكّر علاقتها بالأسئلة، هل كانت تسأل نفسها قبل مرضها وقدومها إلى العاصمة؟

شيئاً فشيئاً يتحدّب بطنها الممتلئ بأثر (نايف) ويتقعّر زمنها، تمرّر يدها عليه كأنّه جروٌ صغيرٌ وسط بردٍ قارسٍ تنوّمه، تسترجع لحظةَ تلو الأُخرى تلك اللّحظات التي عاشتها رفقة زوجها في اللّيلتين داخل غرفةٍ بالفندق الجميل. تسترجع نظرات زوجها البرّاقة داخل تأوّهاتهما المسرجة ليلتها. تلمس بطنها المكوّر الذي تحوّل إلى روزنامة تعرف خلالها الأيّام، والأسابيع، والشهور التي مرّت على المرّة الأخيرة التي زارها فيها (نايف). صارت تقيس غيابه بترقّب طفلها داخل أحشائها. كلّما اقتربت من الولادة صارت أيّام غياب زوجها عنها أكثر وأكثر. لكنْ، لماذا لم يراسلها زوجها؟ سألت نفسها ذاك السؤال ليالي عديدة، الأمر الذي دفعها لتطلب من الممرّضة كتابة رسالةٍ إلى السيّد (كالوش) المعروف في سوق (رأس العين) بعد أن أدركت بأنّ زوجها لا يملك عنواناً معلوماً في المدينة، ماذا سيكتبون على مظروف الرسالة؟ إلى السيّد (نايف) في مدينة (رأس العين)؟ طلبت منها الممرّضة تذكّر عنوانٍ واضحٍ يكون علامةً في المدينة كي تصل رسالتهم التي كُتِبَ فيها بأنّها حامل ستلد في الشهر السادس من عام 1983، وتشير إلى ضرورة قدوم زوجها لأخذ المولود إلى (رأس العين) حتّى تكمل (سيرانه) علاجها وتعود إليهم. إلّا أنّها لم تحصل على ردّ، اعتادت الذهاب إلى غرفة الممرّضة للسؤال عن الرسالة التي تنتظرها. فقدت رغبتها حتّى في استعارة الكتب منها، كانت قد قرأت

كتاباً آخر للشاعر (رياض الصالح الحسين) بعد أن عرفت بأنّه مات في أحد مشافي (دمشق) قبل أشهر. بكت عليه كأنّها كانت تعرفه، بعدها فكّرت بزوجها، سألت نفسها كيف تبكي على رجُلٍ لا تعرفه؟ خافت أن يكون في ذلك إساءة لزوجها، هدأ بالها إذْ أحالت الحزن عليه إلى قصائده التي تذكّرها بزوجها. فبكت أكثر؛ لأنّها خسرت مَن كان مراسلاً خفيّاً يدوّن ما تشعر به تجاه زوجها وتجاه هذا العالم، مراسلاً لا تعرفه، لم تره، ولم يرها، لم يتحادثا. كان فقط شبيه تلك النجوم الخفيّة السريعة المشعّة التي يطلقها اللّيل في مرمى عيون المنتظرات الحائرات كردٍّ ترسله السماء لهنَّ. سألت نفسها: «هل سأهجر القراءة إلى الأبد؟». سألت نفسها بعد أن فقدت قدرتها على قراءة المزيد من الكتب إثر سماعها بموت الشاعر، ومعرفتها بأنّها تحمل نطفةً ناجيةً في رحمها -ارتطمت فراشةٌ بالنور فوق جسدها داخل غرفة الفندق عندما زارها زوجها قبل أشهر- وبعد أن أخرجت إدارة المستشفى صديقتها (سَلمى) من الغرفة إلى أُخرى في جناحٍ آخر، إثر كلّ تلك الأحداث هجرت قدرتها على قراءة المزيد من الكتب، كان آخر ما قرأت هُما كتابا: «الأجنحة المتكسّرة»، و«تحت ظلال الزيزفون». طلبت من الممرّضة شراءهما لها، كي تسترجع تلك اللّحظات التي كان زوجها يجلس فيها تحت التينة في حوش البيت ويقرأ هذين الكتابين، لم تسأله يوماً عن مضمونهما. الآن، بإمكانها الحديث إليه عنهما. حفظت بعض المقاطع عن ظهر قلب، كانت تختبر ذهنها أحياناً، تنهض لحظات الفجر الأولى، تعيد على نفسها قراءة مقاطع الكتابين من ذاكرتها. كانت تلك وسيلةً تعبّر من خلالها عن توقها إلى زوجها. فقد حضّرت له قصصاً كي تردّدها وتهمس بها قرب أذنيه. هجرت بعد هذين الكتابين القراءة. صارت

تخيط ثياباً لطفلها، تحيك جوارب له بالصوف، تعلّمت من الممرّضة ما يهرس حبوب الوقت الكبيرة داخل عينيها. إلّا أنّها لم تنسَ (سَلمى) لحظةً واحدةً، كانت تتمعّن في أثر جسدها الممشوق على سريرها الفارغ، تبكي وتبتسم في اللّحظة ذاتها، تبكي حزناً وحيرةً على حالها لا سيّما أنّها أخفقت في الحصول على أجوبةٍ من الممرّضة عن حال (سَلمى)، وتبتسم عندما تتذكّر كيف نقشت اسم (نايف) على منديلٍ أبيض. كلّ تلك الهواجس والأحداث مرّت في قرارة نفسها عندما فتحت عينيها ذات يومٍ كي تشاهد بطنها وقد عاد إلى طبيعته، قالت:

- هل جاء زوجي؟

قرأت الجواب في عيني الممرّضة، فسألت عن جنس المولود، وعن إمكانيّة رؤيته. بيدين غريبتين وهِبتا لها من صلب الضوء، حملت طفلتها، تأمّلت في عينيها وفكّرت بالزمن، سألته عمّا يخبّئه لها القدر. تمنّت لها لحظات نقيّة، تمنّت في سرّها أن تشبه زوجها. تمنّت لو أنّها تملك صورةً لوالدها (شكري)، تذكّرت أنّها لا تعرف ملامح أحدٍ من أهل أبيها. كأنّ كلّ القصص التي قصّتها عليها أمّها قبل موتها كانت مجرّدةً من الملامح، كأنّها كانت قصصاً عن الملائكة، سألتها: «مَن تشبهين يا ابنتي؟ أباك البعيد؟ أنا؟ أمّي؟ أبي؟ جدّتي (عَيشانه)؟ عمّتها (سلتي)؟ جدّي (فرحان)؟».

- ماذا ستسمّينها؟

سألتها الممرّضة، وهي تأخذها من حضنها كي تعيدها إلى غرفتها.

من دون تفكير، كأنّها حضّرت جواباً لهذا السؤال، ونسجته كثوبٍ طوال فترة الحمل:

- لن أسمّيها؛ سأترك لزوجي ذلك.

وغابت في فناء بياضٍ هبَّ من الفضاء المخبوء داخل عينيها. خيال الممرّضة تحمل طفلتها وتخرج من الغرفة، التمع على قطرة دمعٍ غادرت عينها بجسارة الوحيدات المنعزلات التوّاقات إلى لقاء وجه الخلاص، وملامسة الطمأنينة التي تفنى العيون في سبيلها. ظلّت قطرات الدموع جاريةً على خدّيها، لكنّها كانت فارغةً من صور وخيالات مَن تتوق إليهم. شهراً وبضعة أيّام مضت، وهي مسرّجة تتحارب مع ذهنها لإيجاد سبيلٍ ينقذها من التفكير بالأسباب التي حالت بين زوجها وبين القدوم إليها، فكّرت بالأسباب كافّةً، اختارت منها تلك القريبة من شكل الأحلام كي تقنع نفسها.

التمعت مجدّداً الخيالات في دموعها، خيال (الملّا أمين)، و(أَسْبيد) وزوجته في حديقة المستشفى، وقد جاؤوا لأخذ طفلتها إلى (رأس العين). لم تقتنع بالسبب الذي منع زوجها من القدوم معهم، أو بمفرده، نظرت مباشرةً في عيني (الملّا أمين)، وهو يتحدّث عن توظيف (نايف) في مركزٍ للحبوب بمدينة (رأس العين)، وأنّه أخفق في الحصول على إجازة. دفعت (الملّا أمين) إلى القَسَم باللـه، ففعل (أَسْبيد) ذلك عنه، وقال:

- يا سيرانه، أقسم بأنّ الجميع بخير، (نايف) أرسل لك الحنّاء معنا مع شالٍ اشتراه لك.

كَمَن يقف على رؤوس أصابعه ليلمس شيئاً مرتفعاً، شهقت (سيرانه) فتلمّستْ بقلبها الطمأنينة، لكنّها همست لنفسها، وهي تلفّ طرف شالها حول معصمها:

- لماذا لم يراسلني (نايف)؟ ماذا جرى؟

لم يكن بمقدورها سؤال (الملّا أمين) مجدّداً، كانوا قد عادوا إلى

(رأس العين) بعد أن أخذوا معهم طفلتها التي تنتظر اسماً، طفلتها التي لم تشاهدها (سيرانه) سوى مرّتين: مرّة بعد الولادة مباشرةً، والثانية في حديقة المستشفى؛ إذْ أخرجوها من مكانٍ لرعاية الرضّع، وذهبت مع (الملّا أمين) و(أَسْبيد) وزوجته إلى (رأس العين). صارت وحيدةً، مجرّدةً من كلّ شيء، تتحارب مع الزمن بين جدران غرفتها داخل المستشفى، سألت نفسها إذ نهضت منتصف ليلةٍ قمريّة: «على أيّ أرضٍ سأموت؟ إلهي.. إن كان لا بدّ من موت أحدهم، فلأكن أنا، واحمِ زوجي وابنتَيّ».

ث

- **لماذا** لم أودِّع (سيرانه)؟ لماذا لم أطلب رؤيتها قبل خروجي من المستشفى؟

سألت (سَلمى) نفسها، وهي متمدّدةٌ في سيّارة الإسعاف تتأمّل العالم من خلال النافذة الصغيرة الموشومة بغبارٍ ممزوجٍ مع أثر المطر، وقد صارت كالأوردة في جسدٍ آدميّ. تتمايل العربة كأنّها تسير بنبضات قلبها الاعتباطيّة. فكّرت وقالت في قرارة نفسها:

- لا أعرف عنوانِ (سيرانه) في مدينة (رأس العين)، وهي لا تعرف عنواني.

متدثّرةً بالأسئلة، يتعرّق جسدها تارةً، ويجفّ تارةً أُخرى تحت بطانيّةٍ ذات لونٍ كاكيّ، ناعمة كجلد الفأر. تتأمّل في كلّ ما حدث، هل حدث كلّ شيء فجأةً؟ خروجها من غرفة (سيرانه)، ومن ثمّ المستشفى، وعودتها إلى قريتها على نحوٍ مفاجئٍ وغير مرتّب، هل حدث كلّ هذا على حين غرّة؟ يتثاقل رأسها كأنّه تنّور يُشوى فيه الرغيفُ الأوّل. تحاول القبض على النوم بمخلبين خفيّين يبزغان على جفونها المترهّلة، تسرح في الأصوات المتداخلة مع صوت الراديو ومحرّك السيّارة من دون أن تفهم شيئاً. تخفق

في قنص حوارات السائق الدمشقيّ وشقيقها الجالس جواره خلال عربيّةٍ ركيكةٍ ممزوجةٍ باللّغة الكرديّة، لا توفّق في تتبّع الحوارات حول منطقة جبل (الكرد) التي انحصرت في مدينةٍ صغيرةٍ تسمّى (عفرين)، حاول شقيقها بذل جُمَل تفضي إلى أنّ تلك المنطقة تسمّى تاريخيّاً بـ«جبل (الكرد)»، حاول التعبير عن استغرابه كيف اختُصِر وجود الكُرد في تلك المنطقة من خلال مدينةٍ فقط. سعّرت (سَلمى) أذنيها في سبيل فهم أيّ شيءٍ يخصّ حالها: لماذا أخرجها شقيقها من المستشفى، هل شُفيت؟ هل سينقلها إلى مكانٍ آخر؟ هل سيعيدها إلى بيروت؟ هل انتهت الحرب في لبنان؟ استرقت السمع علّها تحظى بجوابٍ صغيرٍ يخصّ أيّ سؤالٍ كبيرٍ يدور في ذهنها الثقيل كقدمٍ حافيةٍ تعبر درباً طينيّاً. استرقت السمع إلى شقيقها وأخفقت في فهم كلماته المتداخلة مع صوت محرّك السيّارة بتلك اللّغة المعجونة التي يتحدّث بها الكُرد في تلك المنطقة مع عربيّ، أخفقت في سبيل استكشاف ما يحملها إلى الطمأنينة عبر تلك الكلمات المتداخلة بين الكرديّة والعربيّة قادمةً كبحّة عجوزٍ يهذي صوب أذنيها عبر قطعة نايلون شفّاف ومتشقّق يفصلها عن المقعد الأمامي حيث ركن السائق.

سُعِّرَت الحناجر بالصرخات والجلبة داخل المستشفى، اهتزّت الأرض تحت قَدَمَي (سَلمى)، لم يعد بمقدورها السير والهروب إلى الخارج أسوةً بجميع المرضى، والممرّضات، والأطبّاء. التصقت قدماها وقدما (سيرانه) ببلاطات الأرضيّة في غرفتهما. انهارت الجدران والأسقف، وأُضرمت النار بالمبنى، ودُمِّر شيئاً فشيئاً. لم تُخمَد الحركة في الزلزال. قُذِفا خارجاً إثر طاقةٍ مجهولةٍ حملتهما واستودعتهما ركناً مرتفعاً، فأمعنتا النظر في المستشفى المنهار، وقد التهمت النيران أسرّته

وفرشه المتداخلة مع الصخور، والدخان، والغبار، والطوب، والإسمنت. نظرتا إلى نفسيهما، كلّ منهما مرتدية فستاناً أبيضَ شبيهاً بالفساتين التي تُزَفّ بها العرائس. مِن مرتفعٍ بعيدٍ راقبتا الناس يهتفون ويغنّون لهما، صارتا عروسين، وضعت يدها في يد (سيرانه)، وحُمِلتا على متن عربةٍ أخذتهما إلى فضاءٍ مفتوحٍ على نفسه، فضاءٍ واسعٍ وبعيد. استيقظت (سَلمى)؛ إذْ ازدادت الارتجاجات داخل عربة الإسعاف. تأمّلت عبر النافذة الصغيرة مجدّداً. شاهدت السيّارة تعبر مدينة (عفرين)، من ثمّ سلكت الدروب الجبليّة المنحنية الصغيرة التي ستأخذهم إلى قريتها (تَعلكي). كَمَن يتأمّل في أزمنته المنقضية، راقبت أثرها على الدروب بعينين معبّأتين فراغاً، عبرت بها سيّارة الإسعاف قرى: «بابليتي، كفر بتري، شيخ عبد الرحمن، تل حمو، كفر زيتي، تلفي وقُربي».

بنظراتٍ مهتزّةٍ كالتفاتات الراحلات، تأمّلت في تلك القرى المستورة والمختبئة بين أشجار الزيتون والرمّان، كابتسامات الناجين داخل الظلام الوسيع، وكأطفالٍ مختبئين في فروة جدّهم. تلك القرى التي سرعان ما تختفي بيوتها لحظات اللّيل الأولى، لتشعّ أضواؤها الحمراء في هيئة أسْراب القطا، منثورة على الجبال كنجومٍ صغيرةٍ في ماء عيون التائهين. لم تتُهْ، اهتدت قبل سنوات بالضوء إلى أثر بيت حبيبها.

شمَّت رائحة مكانها، سريعةً لاهثةً كمَن يردّد أسماء القتلى دفعةً واحدةً، همست وردَّدت قرب قلبها اسم: (فَخري)، نسيت كلّ أسئلتها التي رافقتها طوال ستّ ساعاتٍ سارت خلالها سيّارة الإسعاف من دون توقّف، لماذا لم تتوقّف؟

وكأنّ ذاكرتها الخاصة بالمستشفى قد حُذِفَت على حين غرّة،

كأنّها عادت إلى أرض ذاكرتها الأولى، ذاكرتها الممهورة بريح حبيبها وحسب.

– هل تنتظرني يا عزيز قلبي يا (فَخري)؟ هل تنتظرني كما انتظرت هذه اللّحظة؟ ها قد خرجت من المستشفى وعدت إليك، هل ستخطبني؟ هل سنتزوّج كما وعدتني؟

رتّلت حواراتها السريّة مع (فَخري) حتّى ركنت السيّارة قرب كوخٍ صغيرٍ مبنيٍّ من اللّبنات والطين الممزوج مع التبن، مرتفع عن الأرض مترين. حملها شقيقها بين ذراعيه الوسيعتين، وصعد بها عتبات السلّم الرفيع الطينيّ، واستودعها ذلك الكوخ كما يُستودَع مولود قماطه، كما تُستودَع الريبة صدور الحكّائين الناجين:

– لماذا لا تأخذني إلى البيت يا أخي؟

متلعثمةً سألته، وهي تزيح شعرها عن وجهها بأناملها، فتتمكّن من رؤية شقيقها جيّداً.

– لا عليك يا أختي، سنعود إلى البيت قريباً، قال الطبيب: إنّه يجب عليكِ قضاء بعض الوقت وحيدةً حتّى تتماثلي إلى الشفاء التام، أنت شفيتِ، لكنّ الأمر متعلّقٌ بالقليل القليل من الوقت يا أختي الغالية.

متلعثماً، جاوبها شقيقها وخرج، تركها وحيدةً تغزل الأيّام، والأسابيع، والشهور، بنولين سريّين في عينيها.

تجهش بالبكاء وتتمتم: «كيف سأمشي إليك فيما بعد يا عزيزي؟». هكذا، كأنّها تبحث في كلّ التفاصيل، وتهيّئها لذلك اليوم البعيد القريب، عندما تستردّ عافيتها وتغادر الكوخ ماضيةً إلى الأماكن الممتلئة بـ(فَخري). كعروسٍ تتمرّن على المشي، الرقص، الابتسام، المصافحة.

تسترجع كلّ شيء، تتمرّن على كلّ شيءٍ من جديدٍ في سبيل لحظةٍ سريعةٍ تلتقي فيها عينها بعين (فَخري)، وكأنّ كلّ الأفعال، وكلّ حواسها، ذاكرتها وحاضرها، تفضي إلى ذلك الكائن الذي لا تعرف عنه شيئاً منذ ثلاث سنوات، خمسة أشهر منها أنفقتها في الكوخ وحيدةً تصارع آلام المرض وآلام الحبّ، مرميّةً بين هذين الألمين كخشبةٍ في أعالي البحار، كقشّةٍ في زوبعة، وكاسْم ميِّتٍ على لسان حبيبته.

مع هذه الأيّام الثقيلة، كقلب المجنون، مثل طيرٍ يبحث عن فناءٍ يحطّ عليه، حامت (سَلمى) حول الأقدار التي تغيّرت بسرعةٍ لا تدركها العين الآدميّة. صارت تترقّب عبر قلبها، هل ثمّة عيون داخل قلوب المتحسّرين المنعزلين؟ تأمّلت كيف تحوّل المرض إلى عقبةٍ تفصلها عن حبّها، كأنّ المرض تتمّة الأقدار المتربّصة بالمرأة العاشقة، كأنّ المرض هو الآخر موظّفٌ ورقيبٌ اجتماعيٌّ يحاصرها، ويراقبها، ويتصيّد رؤيتها لحظة مرور سريع بحبيبها، ويتحيّن كلمةً خاطفةً تخرج من فمها وتسير نحو أذن (فخري)، كلمةً خفيفة، حتّى إنّها أصبحت تحسد العاشقات المعذّبات اللّواتي ليس بمقدورهنّ رؤية عشّاقهنّ بسبب المتلصّصين المتأهّبين في العادات والتقاليد القاسية، صارت تحسد أولئك الفتيات؛ إذْ أضيف المرض إلى تلك التقاليد وأخذ يحاصرها. استغربت كيف يصبح المرض وحشاً برأسين: الأوّل يلتهم جسدها، والرأس الثاني يلتهم قلبها، مسكونةً بذاك الوحش العملاق غير المرئيّ، تجرّدت من كلّ ما يوثقها بالدنيا، لم يكن يعنيها قدوم إخوتها إلى كوخها جالبين الطعام لها، أحايين كثيرة تجاسرت كي تسأل إخوتها من وراء باب كوخها المغلق عن (فَخري)، إلّا أنّها كانت تدرك مغبّة سؤالها ذاك، كانت تعدل عنه، مرّات كثيرة كانت

تختلق حواراً سريّاً بينها وبين أحد إخوتها لحظة جلب الطعام والشراب، حواراً بقي داخل قلبها:

- أخي، ما أحوال (فَخري)؟ هل تراه، هل يسأل عنّي؟ لماذا لا يمرُّ بالكوخ حتّى أراه لحظة خاطفة؟ هل تأخذ إليه مناديلي؟ هل يرسل إليّ حبّات الزيتون معك؟ هل ينتظرني كما أنتظره؟ أخي، أين هو (فَخري)؟ أخبره بأنّه لا يفارق قلبي، وعقلي، وروحي لحظةً واحدةً، أخبره بأنّي سأنتصر على المرض كي ننتصر لحبّنا، بالله عليك يا أخي، قل له، أخبره كم أنا مشتاقة إليه!

كانت تصنع هذا الحوار بينها وبين أخيها، تتمتم به، ولا تجرؤ على نطقه والبوح به كما تبوح بأيّ شيءٍ بسيطٍ عاديٍّ، كأن تقول: أنا جائعة، أنا بخير. بقيت أسيرة ذاك الحوار المفترض أشهراً عديدةً، وأخفقت في استخراجه من قاع السرّ لوضعه داخل أذني أخيها، أضيف ذلك الحوار المفترض والسريّ والخفيّ إلى حوارٍ آخر مفترضٍ، وسريٍّ، وخفيٍّ صنعته بينها وبين أمّها التي تزور كوخها مرّتين خلال الأسبوع، تزورها مكمّمةً، تحمّمها داخل صنت مصنوع من البافون، وتحمل ثيابها، وأغطية فراشها، ومخدّاتها. فتغليها وتغسلها في ماء بيتهم الخلفيّ بالقرية، أرادت كثيراً أن تحضن أمّها، أن تضع رأسها على ركبتها كما كانت تفعل أيّام الطفولة، أن تمرّر أمّها يدها على شعرها وتحكي لها قصّة حتّى تخلد إلى النوم، لكنّ تلك الرغبات أيضاً أضيفت إلى الرغبات التي شطرت قلبها، إلى الرغبات التي فَنيتْ وراء أسوار التحقّق. كانت تفكّر في المرض الذي منعها من حضن أمّها أيضاً. فكّرت بماهيّة العلاقة بينها وبين أمّها، وقد حوّلها وحوّرها المرض. صارت أمّها كأيّ امرأةٍ غريبةٍ، تدخل إليها،

تحمّمها، بينما فمها مكمّم بشالها. فكّرت بالعاطفة التي يحوّرها المرض، بتوقها إلى حضن أمّها الذي تحوّل إلى عدم رغبة في احتضانها خشية نقل العدوى إليها، أصبحت نظرتها إلى الآخرين تشبه نظرة مَن يتفحّص التماثيل الحجريّة، يراقبها من بعيدٍ، ويندهش لجمالها، لكنّه لا يحضنها، ولا يقبّلها، ولا يضع رأسه على تلك التماثيل، فكّرت مراراً: هل تحوّلت هي إلى تمثالٍ أم إنّ الآخرين تحوّلوا إلى تماثيل؟ لم يكن يشغلها الجواب بقدر ما كانت تشغلها وسيلةٌ نورانيّةٌ تنقل إليها أخبار (فَخري). مرّات عديدة كانت تواظب على نسج حوارٍ مفترضٍ بينها وبين أمّها كما كانت تنسج جدّتها بساطاً بالخيوط المسحوبة من ثيابهم القديمة، بقي حوارها المفترض هذا بينها وبين أمّها سريّاً أيضاً كالحوار بينها وبين أخيها:

- أمّي، أشتاق إلى (فَخري)، هل من أخبارٍ عنه؟ يكاد الشوق يلتهمني، ما يشغلني هو ليس مرضي يا أمّاه، إنّما توقي إليه، حبّي له تحوّل أيضاً إلى مرضٍ على مرضي، مرض أشدّ فتكاً، لكنّه مرضٌ جميلٌ يا أمّاه، هو مرض الحبّ الذي أحارب به وحدتي، وعزلتي، وعلّتي في هذا الكوخ البعيد عنكم يا أمّاه، لا تأخذي شعري المتساقط حول أسنان المشط معكِ، لا تأخذيه كي تكوّريه على نفسه وتخبّئيه داخل شقوق اللّبنات، أعطني إيّاه، سأطرّز به نقوشاً على قماشةٍ بيضاء، وستحملين المنديل إلى (فَخري).

أسيرة ذاك الحوار السريّ الذي لم يُنطَق قطّ، عمَرت علاقةً سريّةً بينها وبين أمّها، وحوّلتها من أمٍّ إلى صديقةٍ تبوح لها بما يلتهم قلبها ويدور في خلدها، هكذا كانت تعيد صياغة علاقاتها مع كلّ ما هو موجود، تتحارب والزمن كي تَحظى ولو بخبرٍ كاذبٍ عن (فَخري).

انتظرت (سَلمى) حبيبها (فَخري). لم يخبرها أحدٌ بأنّه قد تزوّج فتاةً

أُخرى بعد أن تفشّى نبأ مرضها بالسلّ. ما من أحدٍ أخبرها بأنّ الأطبّاء فقدوا الأمل من شفائها، فأرسلوا برقيّةً إلى ذويها يطلبون منهم القدوم لأخذها إلى البيت إذ امتدّ السلّ وانتشر في رئتيها. لم تعرف شيئاً، نسجت الأمل وحسب. انتظرت قدوم (فَخري) كي يحملها ويتزوّجها ويأخذها إلى بيتهم الجديد، تحيّنت اللّحظة التي تحرق فيها زيت الزيتون داخل بيتهم ليلة الجمعة من كل أسبوع كي تتسرّب رائحته إلى الفقراء. قالت له ذات يوم: «أخبرتني جدّتي بأنّ الإيزيديّين يحرقون زيت الزيتون داخل بيوتهم كي تتضوّع رائحته صوب الفقراء، رائحة زيت الزيتون صَدَقة». لكنّها لن تفعل ذلك، هل ستفعل ذلك؟ هل ستنجب عشرة أطفال من (فَخري)، وتنظّف بيتها كجميع النساء؟ تخرج إلى الحقول، تعود منها؟ تُحمّم أطفالها؟ تعلّمهم سرّاً التعاليم الإيزيديّة؟ تعلّمهم حبّ الشمس والطاووس؟ تعرّفهم إلى القماش المقدّس في ديانتها؟

وضعت (سَلمى) حبّة رمّانٍ على راحة يد (جاسم) المفتوحة مثل كتاب الوصايا، قبل أن تحفّزه على الخروج معها صوب الحقل للّعب مع بقيّة أطفال قرية (تَعلكي)، كانت هذه هي الإشارة الوحيدة التي تتقنها الطفلة فتشغل بها طفلاً تملّكه الحزن إثر موت أمّه. منذ يومهم الأوّل في القرية، بعد أن جاؤوا لاجئين من قرى (منبج) هاربين من ثأرٍ عشائريٍّ، قال والد (سَلمى): «هذه العائلة أصبحت جزءاً منّا، لقد أعطيتهم الحماية». عاش (جاسم) ذو الثمانية أعوام، وأبواه، وشقيقه العشرينيّ في كنف بيت والد (سلمى)، عمر لهم غرفتين في فناء بيتهم، وأهداهم خمسة عشر خروفاً وعشر أشجار زيتون يقتاتون من محصولها. هكذا عاشوا، إلى أن قطف السلّ أبوي (جاسم) بعد عامين. تأمّلت (سَلمى) في قطرات الدموع

المشعة مثل المطر على سيوف المدافعين عن قراهم، تأمّلت في قطرات الدموع تلك التي خرجت من عيني شقيق (جاسم)؛ إذْ عاد مع القطيع إلى البيت ليشاهده ميّتاً إثر مرض السلّ بعد خمسة أعوامٍ على رحيل أبويهما. ركض الشقيق إلى الحظيرة وأصبح يقبّل الأغنام واحدةً تلو الأُخرى، وهو يصرخ باسم شقيقه (جاسم)، قبّل أفواه أغنامهم واحداً تلو الآخر.

اندثر النور حول (سَلمى)، وضعت حبّة رمّانٍ وُهِبَت لها من مكانٍ مجهولٍ على جثّة (جاسم) الذي فتح عينيه وقال لها: «هل تأتين للّعب معي هناك؟».

فتحت (سَلمى) عينيها فزعةً، مدهوشةً، تمتمت كأنّها تنفض ذلك الحلم عن ذهنها، استغربت كيف حلمت به بعد كلّ تلك السنوات، لماذا حلمت بالتفاصيل كافّةً التي حدثت منذ اليوم الأوّل من لجوء تلك العائلة العربيّة الصغيرة إلى قريتهم حتّى موت (جاسم) أخيها بالعهد. لم تقوَ على النهوض وشرب الماء، كأنّ الزمن قد ربطها بفراشها، كلّ ما كان بمقدورها فعله هو تمتمة اسم (فَخري)، بصوتٍ مبحوحٍ قالت همساً: «أقسم بقبر الشيخ مندي، سأقبّل أشجار الزيتون في حقلك، شجرةً شجرةً، إن شفيتُ وخرجتُ من عزلتي يا عزيز قلبي يا (فَخري)». تكوّرت على نفسها. تعرّق جسدها، سجر الكوخ من سخونة رأسها، أغلقت عينيها على صورة (فخري)، وهي تقول متلعثمة: «لن ينال منّي المرض يا عزيزي، إنّما فراقك هو الذي سيقتلني».

لم تسمع (سَلمى) نحيب أمّها في اليوم التالي.

لقد طوى الزمن صفحة (سَلمى) بعد خمسةٍ وعشرين عاماً قضتها في هذا العالم. ماتت وعلى لسانها اسم (فَخري)، تحت جفنيها صورته، في

أذنيها صوته يقول: «سَلمى، مُتيَّمٌ بكِ أنتِ، أنا». ماتت من دون أن تعرف بأنّ (فخري) تزوّج بعد ثلاثة شهور من مرضها.

ج

مضت الأيّام ثقيلةً بطيئةً كدوران حجر الرحى على حبّة قمحٍ، مرَّ الزمن كأنّه مسوَّرٌ بسبحةٍ لا مرئيّة مغمورةٍ منسيّةٍ في داخل (سيرانه). أحصت الساعات واللّيالي، أحصت عدد المرّات التي هطل المطر فيها، والمرّات التي خرجت فيها من غرفتها داخل المستشفى. هجرت مرغمة قراءة رسالة زوجها الوحيدة لها، تحوّل فعل لمس مظروف الرسالة إلى كابوسٍ يظهرها أكثر داخل فضاء الأسئلة الشاسع: «لماذا لا يزورني زوجي؟ ما أحوال ابنتيّ: (كليستان)، والثانية التي أوكلتُ إلى (نايف) تسميتها؟». بكت وتنادتها بدون أن تعرف اسمها: «كيف حالك يا ابنتي؟». كأنّ كلمة (ابنتي) صارت اسمها. فكّرت، إن خرجت من المستشفى ستبقى تناديها: (يا ابنتي)، كانت الكلمة هذه تختصر جميع الأسماء التي يتعرّف خلالها البشر إلى فلذات أكبادهم، لذلك تحوّر مفهوم الأسماء لديها، صارت مقترنة بالقيمة النفسيّة لا الظاهريّة. أحصت كلّ الأشياء داخل غرفتها التي تنهض عبر الانشغال بها. صارت الموجودات أدواتٍ تعرف خلالها الزمن. هجرت النظر إلى الساعة، وضعتها داخل خزانة ثيابها في الغرفة.

هجرت عادة وضع الحنّاء على شعرها، كانت تتذكّر (نايف) كلّما همّت بطلاء شعرها بها، تتذكّر قامته الطويلة منتصبةً أمام باب الغرفة، وبيده كيسٌ ممتلئٌ بحنّاء اشتراها لها من دكّان السيّد (كالوش) عندما سألته: «هل يمكنني وضع الحنّاء على شعري داخل المستشفى؟». سألته كي تؤقلم ذاكرتها القادمة مع ذلك المكان الجديد الذي ستذهب إليه تاركةً زوجها وابنتها وراءها. تحوّلت رؤية كيس الحنّاء داخل خزانة ثيابها بالغرفة إلى وحشٍ يهشّم في ذهنها جرّة الأسئلة، أسئلة تخصّ سبب غياب زوجها. تحوّل ما كان أنيس وحدتها البارحة إلى كابوسٍ لا يفارقها اليوم. تحوّل وتغيّر مقياس الأدوات التي سعّرت الحنين في قلبها، صارت تُقاس بهلعها على غياب زوجها. حتّى إنّها طلبت من الممرّضة إخراج سرير (سَلمى) من غرفتها، خشيت على نفسها من الجنون، الجنون الذي يعيد صياغة حواسّ المرء داخل مكانٍ مغلق. كان سرير (سَلمى) بجانب سريرها يُسعِّر ويقعِّر الألم في معدتها، كانت تتكلّم مع السرير، كأنّه مشغولٌ بجسد (سَلمى)، تلتفت بين الفينة والأُخرى إليه، تسترجع كلمات الممرّضة آنَ أخبرتها: «لقد شفيت وخرجت من المستشفى وعادت إلى قريتها». لم تقتنع بالجواب، ظلّ السؤال مجرّداً من جوابه، ظلَّ معلّقاً كيَد جنديٍّ مبتورةٍ على خطّ الحدود. طلبت من الممرّضة أن تخرج سرير (سَلمى) من الغرفة؛ لأنّ بدنها لم يعد قادراً على حمل الحنين، ووضعت خزانة ثيابها مكان السرير. التمعت الدموع في عينيها عندما فعلت ذلك، كأنّها تردم التراب على جثّة عزيز. فكّرت: كيف يدفن الناس أحبّتهم كي يتخلّصوا من وحش الحنين المتربّص بعيونهم المصوّبة في ذاكرتهم؟ هجرت قراءة الكتب، صارت تراقب وحسب. تحصي المرّات التي تأخذ خلالها الأدوية، تحصي

المرّات التي تضع فيها الملعقة داخل فمها في أثناء تناول الطعام. كيف حدث واستُبدِل مقياس الزمن لديها؟ سألت نفسها: «هل يجب عليّ نسيان مَن أحبّ كي أنتصر على المرض، وأخرج من المستشفى، وأعود إليهم من جديد؟». ارتابت عندما جفَّ حليبها الذي لم تشربه ابنتها ولو مرّةً واحدةً. كانت تخرج ثديها في الأشهر التي تلت الولادة، تعصره حتّى يتساقط حليبها الدافئ على راحة يدها اليسرى، من ثمّ تشربه. لم تفكّر يوماً بالسبب الذي دفعها إلى القيام بذلك كلّ ليلة. فكّرت وحسب بتلك الرغبة التي تنال منها، رغبة شرب حليبها، همست لنفسها يوماً بنبرةٍ معبّأةٍ بأثر الغناء: «أشربُ حليبكِ يا ابنتي، أنا ابنة نفسي وشقيقتكِ، ولدتكِ وشربت حليبكِ يا ابنتي ويا أختي». ارتابت عندما جفَّ ثدياها، كأنّها أصبحت وحيدةً في صحراء جفّت آبارها، تنقّل ذهنها بين الحنين والأسى كتنقّلِ البَدو. أجهشت بالبكاء والنحيب. تذكّرت ذلك النحيب الذي صادقها ورافقها عندما ماتت أمّها في قرية (توكي) وجاءت السيّدة (عَدلك) لأخذها إلى قرية أبيها وأجدادها (شورِك)، تذكّرت ذاك النحيب الذي أعانها على البقاء قويّةً، أعانها على حبّ أرض والدها، إلّا أنّها سرعان ما هجرت النحيب داخل غرفتها في المستشفى البعيد؛ إذْ تذكّرت أنّها مسجّلة لدى الحكومة على اسم رجُلٍ غريبٍ، وامرأةٍ غريبةٍ، وكأنّ الحنين والبكاء أصبحا أيضاً وحشاً يتربّص بذهنها. تعرّت من كلّ شيءٍ إلّا سؤالها عن سبب غياب زوجها طوال عامين، أحصت أيّام غيابه بعنايةٍ فائقة. بدأت من ليلة الفندق، مروراً بفترة الحمل، ومن ثمّ الولادة، إلى اليوم الذي أخذوا فيه ابنتها إلى مدينة (رأس العين)، إلى الأشهر التي قضتها وحيدةً بعد خروج (سَلمى) من المستشفى، ثلاثة أعوام وشهران مرّت على وجودها في المستشفى.

على عتبة بوابّة مستشفى (ابن النفيس) المسيَّج بطوب إسمنتيّة يعلوها قطع حديد تقشّر طلاؤها الأخضر وتداخل مع بقع الصدأ وأوراق أشجار اللبلاب والياسمين كوشومٍ على جسد امرأةٍ مات أولادها في الحرب، حضنت (سيرانه) الممرّضة التي تداخل دمع الحزن مع دمع الفرح في عينيها وهمست في أذنها:

– أحبّك جدّاً، أحبّك مقدار كرهي لهذا المستشفى، سأفتقدك.

من ثمّ مضت رفقة (أَسْبيد) وزوجته اللّذيْن قدما في أثر برقيّةٍ أرسلت من إدارة المستشفى إلى دكّان السيّد (كالوش) في (رأس العين) تُعْلمهم بشفاء (سيرانه) من مرض السلّ، وضرورة قدوم أحدٍ ما لإعادتها إلى بيتها. اختفى أثر الثلاثة في عيني الممرّضة التي ظلّت على البوّابة تتحيّن حنينها العالق بينها وبين (سيرانه) التي لم تلتفت. مضت هكذا، تُباعد بين خطواتها كأنّها مُلاحقةٌ من وحش غير مرئيّ، عاهدت نفسها ألّا تعود إلى هذا المكان مجدّداً، عاهدت نفسها ألّا تعود إلى زيارة العاصمة، هذا المكان الذي تحوّل إلى شوكةٍ تَخِز صدرها، واقترن وجوده بتلك اللّيالي واللّحظات التي قضتها داخل المستشفى. لم تلتفت، كانت تنظر إلى الأمام، الأمام الذي يحملها إلى شمال شرق البلد، إلى مدينتها، إلى زوجها، وابنتيها، وبيتها، وصديقاتها، وجيرانها. لم تلتفت كأنّها كانت ترغب في عدم تخزين الأمكنة التي تمرّ بها في ذهنها، كأنّها أرادت استئصال العاصمة من ذاكرتها كأنّها ورمٌ خبيث.

جلست في مقعدها داخل باص شركة (الكرنك). لم تنظر عبر النافذة كي تستطلع حركة الباص داخل (دمشق)، حتّى إنّها طلبت من زوجة (أَسْبيد) أن تذهب للجلوس جوار زوجها في المقاعد الأماميّة، أرادت

البقاء وحيدةً، خافت أن تسألها عن سبب عدم قدوم (نايف) لأخذها، لم تسألهما، خافت أن تكتشف إذا ما كذبا عليها، أرادت أن تبقى ممتلئةَ بالأمل، تتخيّل لحظة وصولها إلى بيتها، تتأمّل خيراً، لذلك وضعت رأسها على زجاج النافذة وأغمضت عينيها على أشعّة الشمس الحمراء تقفز كالأطفال تحت جفنيها الحمراوين. صارت تتحسّس حركة الباص عبر ضربات قلبها، تلمس سرعته، فيزداد نَظْم أنفاسها كأنّها تقترب أكثر من مدينتها وبيتها. أشغلت نفسها بصوت الراديو داخل الباص، أرادت التمعّن في أخبار العالم، في كلّ ما هو خارج المستشفى وخارج العاصمة، أرادت أن تستبدل الأماكن في ذهنها، أن ترغم ذاكرتها على اعتياد موسيقا أسماء مدنٍ أُخرى. تذكّرت (نايف)، سألت نفسها: «عندما زارني (نايف)، هل عاد إلى (رأس العين) بالباص أم بالقطار؟ هل هذا هو الباص ذاته؟ هل هذا هو المقعد ذاته؟». صارت تلمس جلد الكرسيّ البنيّ وترى أثر عرق أصابعها عليه، كأنّها كانت تدوّن عليه سرّاً ومن ثمّ تحذفه بتمرير راحة يدها على كلّ المقعد، كأنّها كانت تقرأ أثر (نايف)، لم تكن تعلم بأنّ (نايف) عاد يومها بالقطار، لم تكن تعلم بأنّه طوال الوقت ظلّ قابضاً على ذلك المنديل الذي طرّزت (سَلمى) اسمه عليه. في سرير التذكّر والنسيان، البكاء الخفيف والابتسامة، الاغتراب، الحنين، في سرير كلّ تلك الأشياء كانت جالسةً في كرسيّها تخالس النظر أحياناً إلى (أَسْبيد) وزوجته في مقعديهما أمامها على الجهة الثانية من صفّ الكراسي. تنظر إليهما كي تصدّق بأنّها عائدةٌ معهما إلى بيتها. كأنّهما كانا شهود خروجها من المستشفى، تشهرهما في عينيها كلّما نال منها الشكّ واختلطت الأحلام إثر غَفوات سريعة مع الواقع. تغفو، تحلم، تستيقظ، تنظر إلى (أَسْبيد) وزوجته، من ثمّ

تعيد كرّ سبْحة التذكّر. تذكّرت (نايف) وابنتيها، وترقّبت اللّحظة التي تطأ فيها قدماها أرض بيتها البعيد القريب كأثر نجومٍ داخل عيونٍ متدثّرةٍ بليلٍ وسيعٍ مديد. سعّرت التأمّل في عينيها كأعواد القطن تحت حلّة، غرقت نظراتها في نهر (الفرات)؛ إذْ عبره الباص المسجور بأشعّة الشمس التي يهبها الصيف لتلك البقعة من الأرض. ازدادت التنهّدات؛ إذْ أعادها شكل الماء المتدفّق إلى المرّة التي شاهدت فيها (رأس العين)، مرتديةً فستاناً أبيضَ جُلِبَ لها من مدينة القامشلي ليوم زفافها. يدها في يد (نايف) يعبران الحشد المواظب على الغناء بلغاتٍ غريبةٍ عنها، لم يسبق لها أن سمعت أحدهم يغنّي بالأرمنيّة، والعربيّة، والآشوريّة، كأنّهم في مهرجان توحّدت فيه اللّغات وتحوّلت إلى لغةٍ واحدةٍ، لغة الفرح الواسع الممتدّ على طول شارع بيت (نايف). تأمّلت النساء والفتيات اللّواتي تشابكت أياديهنّ مع أيادي رجالٍ وشبّانٍ يرقصون في حلقةٍ كبيرةٍ يتوسّطها عازفا الطبل والمزمار. استرجعت الأعراس التي رقصت فيها على ذلك النحو في قرية (توكي) مسقط رأس أمّها. تذكّرت قصصها القديمة الجديدة، وذرفت دموعاً صغيرةً سرعان ما مسحتها بأطراف أصابعها، تنهّدت وتمالكت الجسارة كي لا تَخِز فرح الناس الجماعيّ بحزنها، فعادت إلى تأمّل حلقة الدبكة. لم يسبق لها أن شاهدت النساء والفتيات بفساتين قصيرة، لم تكن تعلم شيئاً عن تلك الفسيفساء، كأنّها انتقلت إلى بلادٍ أُخرى وليس إلى مدينةٍ داخل بلدها. أسندت رأسها مجدّداً إلى زجاج نافذة الباص، أسبلت جفنيها، كأنّ التذكّر كان سبيلاً لطيفاً تنقذ نفسها به من مخالب المسافات والقلق داخل الباص الكبير. اختبرت ذاكرتها وأعادت لحظاتها في (رأس العين). تذكّرت المرّة الأولى التي شاهدت فيها لمبات تُضاء بالكهرباء

لا الكاز. استرجعت علاقتها مع الكهرباء، الشوارع العريضة المنتظمة، وسوق المدينة، والبيوت الإسمنتيّة المكتظّة بقناطر مصنوعة بإتقانٍ أعلى النوافذ والأبواب. استرجعت اللّحظات التي تعرّفت خلالها إلى أناسٍ من قوميّاتٍ أُخرى، من دياناتٍ لم تكن قد سمعت بها من قبل، كأنّ قريتَيْ: (شورِك)، و(توكي) كانتا منتميتين إلى عالمٍ مختلفٍ، عالمٍ تسود فيه اللّغة الكرديّة فقط. استرجعت القصص في (رأس العين)، كيف تعرّفت إلى الشيشان الذين فرّوا من الجيش الروسي نحو (رأس العين)، زارت قراهم وتناولت طعاماً طبخته نساؤهم. تبسّمت داخل الباص مجدّداً آن همّت باختبار ذاكرتها عبر تذكّر كلّ التفاصيل كأنّها مقدمةٌ على امتحانٍ شاقّ، كانت تخشى أن يكون المرض قد نال من عقلها. استرجعت أسماء قرى وعائلات الشيشان في (رأس العين)، تمتمت باسم (بَرقَش نيقا)، و(آختا)، و(آتيي)، تلك العوائل التي عرفتها. ابتسمت حين تذكّرت فترة الخطوبة لدى شيشان (رأس العين)، تلك التي كانت تمتدّ إلى خمسة عشر عاماً أحياناً، بعدها يقوم الشاب بخطف خطيبته وأخذها إلى بيت رجُلٍ له منزلته بين الشيشان، لينتظر بعدها قرار أهل العروس؛ فإمّا أن يباركوا الزواج، وإمّا لا. كانت عمليّة خطف الشابّ لخطيبته منتميةً إلى طقوسٍ غريبةٍ تفضي إلى الشجاعة والرجولة.

نهضت (سيرانه) بخطواتٍ ثقيلةٍ، سارت صوب سرير (سَلمى)، مرّرت يدها على شَعرها الأشقر الطويل، تفحّصت أنفاسها، وقعت عيناها على أسنانها البيضاء متساقطة متناثرة حول وسادتها، صرخت وهزَّت كتفها، استيقظت (سَلمى) من نومها ووضعت عينيها في عيني (سيرانه)، لملمت أسنانها عن السرير والوسادة، كوّمتها في راحتي يديها كَمَن يحمل

فرخ عصفورٍ، وسارت إلى النافذة وهمست: «لا تقلقي يا (سيرانه)، لقد سقطت كلّ أسناني». ضُرِبَ رأس (سيرانه) بظهر الكرسيّ أمامها، فتحت عينيها فَزِعةً وقد امتلأ وجهها عرقاً داخل الباص. تمتمت سريعاً بالدعاء بأن يكون حلمها عن (سَلمى) خيراً، مرّرت عينيها تتفحّص الغروب ينثر شعاعه على السهول القريبة من مدينة (رأس العين). توقّف الباص، نزلت والتفتت يميناً وشمالاً باحثةً عن (نايف)، تمعّنت في ملامح (أَسْبيد) وزوجته، صرخت بكامل قوتها:

– أين (نايف) يا (أَسْبيد)؟ أين (نايف)؟

تلعثم (أَسْبيد)، تنهّد، حاول أن يستجمع شهيقاً كبيراً فيخبرها بما حدث. لم تنتظر (سيرانه) زفير (أَسْبيد)، وقعت أرضاً كريشةٍ من جناح طائرٍ مهاجر.

ح

– متى تزور (سيرانه) مجدّداً، مضتْ خمسة أشهر على زيارتك الأخيرة لها؟

أتمَّ (الملّا أمين) سؤاله الذي تخلّله سعالٌ عميقٌ سُمع إثره صوت مرور سكين على معدنٍ صديءٍ ممزوجٍ مع دخان السيجارة الرماديّ اندفع من صدره، وهو يرمي فتات الخبز المتبقّي من وجبة الغداء إلى الدجاجات السابحة في ظلالها القصيرة حول البئر داخل حوش بيت (نايف).

– عليك التوقّف عن التدخين وزيارة طبيب.

قال (نايف)، جالساً على كرسيّه بعد نظرةٍ طويلةٍ خرجت من قاع قلبه؛ إذْ نسجها بالريبة والقلق على صحّة (الملّا)، وأكمل تفتيت قطعة خبزٍ إلى أجزاء بحجم مناقير الدجاج، يجمعها في راحة يده اليسرى فيضعها مجدّداً في راحة يد (الملّا) الذي أعاد سؤاله بنبرةٍ شبيهةٍ بتلك التي يهرب فيها أحدهم من سؤالٍ محيّر.

كتم (نايف) صوت أوراق كتابٍ تصفّحه الهواء بجسارةٍ على الأرض بجانب الإبريق عبر حجرٍ بحجم بدن عصفورٍ وضعه على غلافه، ودفع

جملته مجدّداً، همساً قرب أذن (الملّا أمين)؛ إذْ نهض وسار نحوه وخلط ظلّ يده اليسرى مع ظلّ يد الملّا اليسرى على الأرض المشغولة بالنقرات القصيرة.

– إنّه الربو، لا أكثر ولا أقلّ، قيل بأنّني أحتاج إلى هواءٍ عليلٍ، ومكانٍ قليل الرطوبة والعجاج وحسب، ربّما عليّ السفر بضعة أيّام للنقاهة في مكان ما، أتحدّث إليك عن مواصفات طقسٍ موجودٍ في الفردوس فقط ربّما، أليس كذلك؟

قال (الملّا أمين)، وهو يضرب راحتي يديه بعضها ببعض كي تتحرّرا من بقايا الخبز. رَبَّت على كتف (نايف) يسير به صوب الكرسيّ، فيدفعه إلى الجلوس. هبط دخان سيجارته وانحنى كقوسٍ استقرّ على بدنه المقتَعِد كرسيّاً مصنوعاً من قصب الزلّ، لكمَ ركبة (نايف) خفيفاً وقال له بنبرةٍ ممزوجةٍ بالقهقهات الصغيرة:

– دعني أحكي لكَ هذه القصّة عن الخديوي عبّاس والي مصر في القرن الثامن عشر.

وحمل إبريق الشاي يصبّ كأساً له بعد أن تُرِكَ دقائق طويلة ليغدو معتّقاً ثقيلَا

– يُحكى بأنّ طبيباً أشار على الخديوي عبّاس بالذهاب بضعة أشهر للعيش على جبلٍ عليل الهواء.

رشف طويلاً من كأس الشاي، تلاه سعالٌ صغيرٌ بحجم قرق دجاجةٍ تتحارب مع أخريات في سبيل فُتاتٍ من الخبز وأكمل:

– وأمر الخديوي رجاله بالبحث عن جبلٍ هواؤه عليل. بعد أيّامٍ من البحث، وضعوا على قمّة كلّ جبلٍ في البلاد قطعةً من لحم شاةٍ، وانتظروا

القطع حتّى تتفسّخ وتفسد. بعد ذلك، اختاروا الجبل ذا الهواء العليل، حيث تأخّرت قطعة اللّحم على قمّته حتّى فسدت وتفسّخت، وعلى الرغم من...

لكمات على باب البيت قطعت حديث (الملّا أمين) الذي ما لبث أن التفت حتّى وقعت نظراته على رجالٍ ضخام الجثث، مدجّجين بالسلاح، مرتدين ثياباً مدنيّةً انتشروا داخل البيت وقبضوا على جسد (نايف). الدجاجات الممتلئ ريشها بالنسيم تناثرت فزعةً، ومضت نحو الحظيرة تحوم حول نفسها. فتّشوا كلّ البيت كأنّهم يبحثون عن إبرةٍ صغيرةٍ منسيّةٍ في لحافٍ عظيم. حملوا جميع الكتب والأوراق. بعد أن عاد (الملّا) من دهشةٍ أخذته صوب أرضها، قال لأحدهم: «مَن أنتم؟ عمَّ تبحثون؟». لم يكن بمقدور (نايف) الالتفات والحركة، تحجّر جسده وسط الأيادي القابضة عليه. عند خروجهم، قال أحدهم لـ(الملّا):

- الزوبعة تحمل معها كلّ شيء.

سحبوا (نايف) كما يُسحَبُ جلد كبشٍ منحورٍ مسلوخٍ عن بدنه. صُنِعَ خطّان على تراب فناء البيت من حذاء (نايف)؛ إذْ أُخِذَ إلى إحدى السيّارات التي عبّأت الشارع بأصوات هدير محرّكاتها.

لم يُسأل (نايف) أيّاماً طويلةً، تُركَ وحيداً في زنزانةٍ تحت الأرض. لم يكن يعرف بأنّه موجودٌ في مبنى فرع أمن الدولة بمدينة القامشلي، ذلك الفرع الذي كان يُؤخَذ إليه مَن ستطول إقامته بين مخالب رجال المخابرات. أيّامٌ طويلةٌ لم يتمكّن من عدّها ومعرفة ليلها من نهارها، مضت عليه، كان يُقرع باب زنزانته بقطعة حديدٍ كلّ لحظةٍ كي لا يقدر على النوم سوى فترات قصيرة متقطّعة. إلى أن بدأوا بطريقةٍ أُخرى لتعذيبه؛ حيث ينادي أحدهم من

خارج الزنزانة: «تفضّلي يا (سيرانه)، ادخلي هذه الغرفة، يا أهلاً وسهلاً بك في فرع المخابرات». انتفض (نايف) وسط الظلام العميق، كجملٍ طُعِنَت رقبته، ضرب جدران الزنزانة بيديه باحثاً بعينين خفيّتين عن بابها، فانتصب أمام الحديد المتين يلكمه ويضربه بقدميه، وهو يصرخ: «أرجوكم، أرجوكم.. اتركوا زوجتي وشأنها. سيرانه. سيرررررراااااااااااااااننن نننننننننه، هل خرجت من المستشفى؟ متى خرجتِ؟ أرجوكم اتركوها وشأنها، فهي مريضة، لماذا أخرجتموها من المستشفى؟ ماذا تريدون منها؟». يصرخ إلى أن يفقد القدرة على القيام بشهيقٍ ينجز صرخاتٍ أُخرى يخرجها من قاع صدره ويطلقها كسرب نحلٍ داخل ظلام الزنزانة التي يتغوّط ويتبوّل فيها. عندما وضعوه داخلها، قالوا له: ثمّة ثقبٌ في زاوية الزنزانة، هو مرحاضك. كان يبحث عن الثقب بقدميه ويديه، يمرّرها على أرضيّة الزنزانة حتّى يكتشفه، يقضي على فوهته حاجته، ويسترق السمع إلى صدى صوت بوله وغائطه بداخلها، قاس عمق الحفرة أسفل زنزانته عبر المدّة التي يستغرق فيها البول حتّى يستقر في القاع، تمعّن في صدى صوت بوله، حفظ نَظْمه وموسيقاه، اعتاد عليه. كان الصوت الوحيد الذي يذكّره بأنّه إنسانٌ، تحوّل إلى موسيقاه داخل ذلك الفضاء الذي كان يُفَضُّ مرّة واحدةَ كلّ يوم، يعاود الكرّة خلالها أحد رجال المخابرات خارج الزنزانة يقول: «تفضّلي يا (سيرانه)، ادخلي هذه الغرفة، يا أهلاً وسهلاً بك في فرع المخابرات». لم يكن يملك إمكانيّة قياس الأيّام داخل تلك العتمة الكثيفة الثقيلة كلسان المظلوم؛ لذلك، كان يُصوّر له بأنّه يعيش حالة عذابٍ مستمرّةٍ لا يفصلها اللّيل والنهار. ينتفض كلّما سمع ذلك الكلام. ربطوا يديه وراء ظهره، وقدميه على نحوٍ يدفعه إلى المشي ببطءٍ شديدٍ كي لا

يقوى على لكم وركل الباب، كأنّهم كانوا يحرمونه من أدوات التعبير عن الغضب والحزن، كأنّهم حاولوا تجريده من بشريّته. لذلك كان يلكم الباب برأسه بعد أن يكتشف مكانه عبر نطح الجدران. كان أسير تلك السيرة، كأنّه يتجرّد من ذاكرته، وحاضره، ومستقبله، يعيش رفقة ذلك العذاب المستمرّ، إلى أن أقنع نفسه بأنّهم يكذبون عليه كي يموت حزناً. قبض على جسارةٍ وُهِبَت له من موطنٍ خفيٍّ داخل جسده، صار قادراً شيئاً فشيئاً على العودة إلى قيمة السؤال. يسأل نفسه كي لا ينسى، وكي لا يُنسى. يتمرّن على استعادة ما عاشه، يتذكّر كأنّه يقرأ كتاباً لا نهائيّاً، لم يفكّر في نهايته. واظب على إعادة تفاصيل عاشها كي يمرّن ذاكرته فلا تضمر كالعضلات، كلّما انتهى من تفصيل يومٍ عاشه مضى إلى اليوم التالي، إلى تفاصيل أُخرى، كأنّه يقلّب صفحات كتابٍ لا مرئيّ موجودٍ في ركنٍ خفيٍّ داخل ذهنه. أقنع نفسه بأنّه سيموت إن ماتت الأحداث التي عاشها في ذاكرته، أو ضمرت، سعى في سبيل إنقاذ نفسه بالتذكّر. كان يتملّكه الرعب عندما ينسى تفصيلاً صغيراً يعيده في ذهنه، بدأ من سنوات الطفولة. يبكي أحياناً، ويضحك أحايين أُخرى. يعيد كلّ ما عاشه همساً كي يستأنس بصوته، تمرّن على الاستماع إلى صوته، أعاد صياغة نبرته وأتقن نبراتٍ أُخرى كان يستبدلها مرّاتٍ عديدةً آنَ يحكي لنفسه كي لا يملّ من نبرته، كي يحتفظ بها سليمةً ناجيةً من كرهه للمكان. أراد ألّا يكره صوته عندما يفرج عنه، إلّا أنّه نسي نبرته الأساسيّة، ضاعت ملامح صوته. مضت الأيّام والأشهر عليه كأنّها يومٌ واحد. أراد أن يستكشف الزمن عبر وجبات الطعام التي كانت تقدّم إليه، إلّا أنّه أخفق في ذلك، لم تكن تقدّم الوجبات له بالنَظْم ذاته، عرف ذلك من إحساسه بالجوع، والشبع، والتغوّط. لم يكن يعرف

بأنّ رجال المخابرات كانوا يخطّطون خارج زنزانته كيف يكسرون مقياس الزمن لديه؛ لذلك، كانوا أحياناً يعطونه طعاماً كلّ ثلاث ساعات، وأحايين أُخرى كلّ يومين، هكذا ضاعت قدرته على قياس الزمن من خلال وجبات الطعام. انتابته الريبة بادئ الأمر، إلّا أنّه سرعان ما تجاوز ذلك؛ إذْ أقنع نفسه بعدم أهميّة معرفة الزمن، تماهى شيئاً فشيئاً مع ذلك الزمن الضائع، حتّى راقت له فكرة العيش خارج دوّامة اللّيل والنهار: البارحة، واليوم، وغداً، صارت كلّ اللّحظات مرتبطةً مع بعضها كسجناء يُقتادون إلى المشنقة. واظب فقط على فعل التذكّر وحسب. أعاد اللّحظات التي زار فيها (سيرانه)، تمدّد على البطانيّة المعبّأة بروائح مَن عبروا هذا المكان، امتزجت الروائح فيها وصنعت رائحةً زُرِعَت في ذهنه. توجّس بالرائحة فتنبّه إلى ثقب المرحاض، أراد أن يسدّها بسرواله، قبل أن يبتكر فكرة التمدّد على ذلك الثقب المفضي إلى بئرٍ عميقةٍ معبّأةٍ بغائطه وغائط مَن سبقوه. تمدّد وسدّ بجسده فوهة المرحاض وسط الفضاء الشاسع المظلم. ينهض، يحرّك قدميه ويديه قليلاً، فلا تموت عضلاتهم، يتناول الطعام، من ثمّ يبحث بيديه وقدميه عن الفوهة كي يتمدّد فوقها ويهمّ بالتذكّر.

وضع يده في يد (سيرانه)، كان حريصاً ألّا يتخيّلها موجودةً داخل زنزانته، لم يرغب بجلبها إلى ذاك المكان الخارج عن الزمن؛ لذلك، تخيّل كلّ اللّحظات التي عاشها، لم يبتكر لحظات جديدة في خياله، أقنع نفسه بأنّه يملك وقتاً وفيراً ينهي به تخيّل ما عاشه ليباشر بخلق ذاكرةٍ مستقبليّةٍ عبر صناعة أحداثٍ جديدةٍ تعيش رفقته داخل زنزانته.

هزيلاً عجوزاً تلتمع على جسده صورة الزمن كما يلتمع المحراث في أرضٍ بور، يهشّ بعصا على ظلّه المقوّس، تخفق الرأفة في تقويم ذهنه،

بخطواتٍ قصيرةٍ مرتجفةٍ كشفاه المتوسّل عَبرَ بوّابة السجن، وولج باب بيته. وقعت عيناه على شجرة التين وسط الحوش تتدلّى عصافير ميّتة من أغصانها، تهتزّ في ريحٍ لونها يشبه دم الدجاج المذبوح لتوّه. التفت إلى (سيرانه)، أُزهرت الورود على فستانها الأبيض الذي يكسو معظم الحوش، ويمتدّ صوب الغرف متسلّقاً جدرانها، في يدها منخلٌ كبيرٌ معبّأ بشعاع الشمس تنخله فتتساقط من ثقوبه خَرَانِقُ الأرانب: عمياء، وعاريةً، وضعيفةً، سرعان ما تكبر وتلد فراشاتٍ ما إن لامست الأرضيّة المتدثّرة بفستانها. تقدّم نحو زوجته، أخرج ثديها الأبيض الممتلئ، وضع حلمته في فمه وشرب حليباً تدفّق كنبعٍ إلى أن انتفخ بدنه واستقام. بيدين شبيهتين بجناحي طائرٍ غريبٍ حملَ (سيرانه) وحلّق بها عالياً بينما يدثّر فستانها كلّ الأرض. فزِعاً، استيقظ (نايف) وارتطمت نظراته بفضاءٍ أسْود، لم يكن بمقدوره العودة من ذلك الحلم سريعاً، صارَ يُردّد اسم (سيرانه) همساً كأنّه يستنشق منه الهواء. نهضَ، سار في الزنزانة من دون أن يسترشد يديه. اصطدم بأحد الجدران. كأنّه أراد أن تخلّصه تلك اللّكمة من وحشة ذاك الحلم الذي راوده مرّاتٍ عديدة. في كلّ مرّةٍ، كان ينهض ويسير صوب الجدار كي يرتطم به حتّى يغيّر موضع الألم في نفسه، كانت لكمة الجدار تلك بمنزلة الإبهام المرطّب بِريق لسان القارئ. كانت (سيرانه) الصفحة التالية من كتابه الداخليّ دوماً. يقلّب داخل الظلام كتابه الخفيّ، إلّا أنّه يخفق في تتبّع ما عاشه بالدقّة التي سعى في سبيلها. لا يعلم بأنّه زرع طفلةً في رحم زوجته في اللّيلتين اللّتين قضياها كممثّلين أتقنا دور سائحَيْن يزوران العاصمة داخل غرفةٍ بفندق (رضوان الكبير) المطلّ على ساحة المرجة. لا يعرف عدد الأيّام التي قضاها في هذه الزنزانة. لا يعلم بأنّ

(سيرانه) وصلت إلى (رأس العين) هذه اللّيلة بعد أن شفيت من السلّ تماماً. لا يعلم بأنّها وقعت أرضاً كريشةٍ من جناحه المكسور الذي يخفق في عتمةٍ لا متناهية داخل زنزانته العميقة مثل بكاء الصمّ ليلاً.

خ

لم تسأل (سيرانه) عن اسم طفلتها التي وضعتها معبّأة بالهموم داخل مستشفى في (دمشق). شاهدتها مرّةً واحدةً فقط تمشي بخطواتٍ ركيكةٍ متثاقلةٍ بين الباب وحضن (لينا) زوجة (أَسْبيد) التي ربّتها وعلّمتها كلمة (أمي) باللّغة الكرديّة، شاهدتها (سيرانه) داخل الغرفة في بيتهم بـ(رأس العين)، تلك المرّة وحسب بعد خمسة أيّامٍ من وصولها، من ثمّ عادت إلى الإيمان بالصمت والنحيب كوسيلةٍ تنجيها من بؤسها وحزنها العميق مثل التمعّن في صور الراحلين. تأمّلت لحظةً واحدةً فقط، ذلك اليوم، في صورة ابنتها البكر التي تركتها تكبر في بيت السيّد (كالوش) ومضت إلى العاصمة للشفاء من السلّ. تأمّلت في صورتها، انتحبت لأنّ قلبها لم يخبرها أنّها ماتت قبل عام وشهر على نحوٍ مفاجئٍ بعد أن ارتفعت حرارة جسمها في ليلةٍ خريفيّة. لم تسأل (لينا) عن تفاصيل أُخرى تخصّ موت ابنتها. لم تنبسْ بحرف، انتحبت وحسب. ثمانية وعشرون يوماً، الجملة الوحيدة التي قالتها عندما علمت بأنّ (نايف) مسجون منذ عام وسبعة أشهر، وبأنّ ابنتها (كليستان) ماتت على نحوٍ مفاجئ في بيت السيّد

(كالوش): «هذا رجائي الوحيد لكم، لا تأخذوني إلى المستشفى». كأنّها لم تنسَ وعدها لنفسها أمام باب مستشفى (ابن النفيس) بدمشق، وعدها ألّا تدخلها مجدّداً. لم تفكّر بما سيحدث، كلّ ما آمنت به هو الاستسلام لما سيحدث، هو البقاء في البيت وانتظار (نايف) وحسب. ثمانية وعشرون يوماً مضوا، وبجانب رأسها تتناوب نسوةٌ ثلاث على رعايتها: (ماريت) زوجة السيّد (كالوش)، و(لينا) زوجة (أَسْبيد)، و(مريم) ابنة (الملّا أمين)، كنّ يتناوبن على قصقصة الحزن حول جسدها المتمدّد في فراشٍ معبّأ بالقطن الوافد من سهول (رأس العين). يتناوبن على إطعامها بضع ملاعق من حساء العدس، كي تعود مجدّداً إلى النحيب والنوم والحلم بزوجها، ومن ثمّ النحيب. كأنّها عادت إلى تلك الفكرة التي آمنت بها منذ كانت في الثامنة من عمرها عندما أعادتها السيّدة (عَدلك) إلى بيت أبيها في قرية (شورِك)، كأنّ لحم أكتافها هبة من النحيب، كأنّها ربيبته الخالدة.

مقتعدةً سجّادةً نُقِشتْ عليها قصص النسّاجين، لا يعبُر الهواء بين جسدها الملتصق بجسد (نايف) المنهمك بشواء لحم الضأن لها على صاجٍ مسجور بنارٍ تسعّره أعواد القطن والأغاني. تهزُّ طرف فستانها الطويل كي تدفع حشرةً صغيرةً إلى الطيران مجدّداً. هي ظلُّ (نايف) وكوراله في آنٍ واحدٍ، يدفع قطع اللّحم المشويّ المتبّل بالغناء صوب فمها الذي يسع للفظ حروف اسمه سبع مرّاتٍ دفعةً واحدة. تعضّ اللّقمة على هيئة نقر العصافير في الأنحاء، فيدفعها (نايف) إلى تقليده في تناول الطعام، ويغيبان في قهقهةٍ توهَب لهما من الركن المنسيّ الذي يُفتَح للسائلين عن الرأفة. تسأله عن مقدار حبّه لها، فيزيد (نايف) من سرعة التلويح بقطعة خشبٍ على النار كي يزداد سجوره ويتمدّد الوهج متسلّقاً وجهه في هيئة

جوابٍ مبطّنٍ تقرأه (سيرانه) وتمدّد شفتيها كجناحي فراشةٍ تتهيّأ للتحليق. تعيش (سيرانه) على هكذا أحلام، تغمض عينيها كي تستدرجها صوب نومها المتقطّع الممزوج بالنحيب، تحلم وتستيقظ مجدّداً، تنظر في سقف الغرفة الذي يقترب منها شيئاً فشيئاً، يوماً بعد يوم. تتأمّل في العواميد التي تسند إسمنت السقف. تهبّ في ذهنها العواميد تحت سقف غرفتها في قرية (شورِك)، تقارن بين الحزنين: حزنها آنذاك، وحزنها الآن. لا تفلح في المقارنة التي تسعى بها إلى استقدام الجسارة صوبها، إلّا أنّ الحزنين يتداخلان، تخفق في الفصل بين الحزن الذي عاشته منذ الطفولة حتّى هذه اللّحظة، تخفق في تصنيفه. بدا كأنّه سبْحةٌ طويلةٌ يمرُّ خيطها في صخورٍ عظيمةٍ موضوعةٍ أمامها، سبَّحت طوال الوقت بتلك السبْحة. سبَّحت في سرّها، وهي تسترجع كلّ القصص التي قصّتها عليها أمّها قبل موتها: قصص القائد (قاسو)، قصص (عَيشانه) وعمّتها (سلتي)، قصص (كالو)، وقصص والدها، قصص جدّها الأصمّ (فرحان)، قصص اللّبنة الأولى في قرية (شورِك). بدورها، قَصَّت كلّ تلك القصص على زوجها (نايف) الذي استخلصت وعداً منه أن يحكيها كلّها لابنتها (كليستان) عندما كانت في الباص يأخذها إلى العاصمة. لكن (كليستان) ماتت، و(نايف) مسجونٌ بمكانٍ مجهول. تنتحب، وتنام، وتحلم، وتستيقظ، وتنتحب، وتفكّر بطفلتها الثانية التي ولدتها في دمشق، كلّ مرّة تتجاسر كي تسأل عن اسمها إلّا أنّها تخفق، كَمن يخفق في تمرير الخيط المبلّل بالدموع في خرم إبرةٍ لا مرئية. لم تفكّر لحظةً واحدةً لماذا لا تسأل عن اسم ابنتها، هل سمّوها؟ مَن سمّاها؟ إذاً، لماذا لا تسأل عن هذه الأمور؟ ما الذي يدفعها إلى عدم السؤال عن اسم طفلتها؟ هل هو الخوف من فقدانها؟ هل ارتابت من الأسماء؟ هل تريد الحفاظ عليها هكذا؟ لم تحظ بأجوبة، لم تحظ بأسئلة.

بقيت معلّقةً بين أزمنةٍ متعدّدةٍ تدافعت صوبها دفعةً واحدة. نهضت، تأمّلت في أثر جسدها على الفراش. خرجت من غرفتها، وقعت عيناها على نساءٍ غريباتٍ يضعن بذوراً في تراب الحوش، مَرَّت بهنّ كما يعبر خيط الضوء بين وريقات زهرة دوّار الشمس لحظات الفجر الأولى. ختمت مقبض باب البيت الخارجيّ براحة يدها، التفتت كَمَن يلتفت إلى ركنٍ سيغادره إلى الأبد، ولجت النساء مياه عينيها واحدةً تلو الأُخرى، تناثر المكان في مرمى نظراتها، تبخّرت الغرف، والبئر، وشجرة التين، والحظيرة، وسور البيت، عاد البيت إلى عهده الأوّل، إلى الفكرة. مضت وسط البيوت التي كانت تختفي واحداً تلو الآخر، إلى أن لامست فضاءً مفتوحاً خالياً من أيّ حجرٍ يدلّ على مرور البشر من هناك. سارت بخطواتٍ ثقيلةٍ مثل التمعّن في الندم. وصلت إلى قريتها (شورِك). وقفت على صدر تلّةٍ ونظرت إلى البيوت، وهي تختفي وتتبخّر. التفتت إلى تلّةٍ صغيرةٍ فُتِحَت فوهات قبورها معاً وخرج منها نساء ورجال. لوّحوا لها، مضت نحوهم، وضعت يديها في يدٍ عظيمةٍ بزغت من أجسادهم، قالوا لها معاً: «هيا يا (سيرانه)، سنعود إلى الديار». تناثر حديد الحدود، حُذِفَت آثار خطوات غرباء عبروا تلك السهول والبيادر الواسعة مثل عين الطير، تبخّر جنود يرتدون الزيّ العثمانيّ، وفنوا في مرمى نظراتهم، بسطت الأرض كأنّها عادت إلى زمنها الأوّل، ذاك الزمن الذي لم يكن الشرّ قد ولد من رحم الخير فيه بعد. منقطعة الأنفاس، فتحت عينيها على وجه (لينا) الجالسة قرب فراشها تدفعها إلى الاستيقاظ. لم تخبرها أنّها كانت تحلم بالبداية، البداية التي صنعت هذه النهاية التي تحياها وحيدة. رشفت بضع قطراتٍ من الماء في الكأس بيد (لينا)، بدا صوت مرور الماء إلى بطنها مثل صخرةٍ تُرمى في قبو قلعةٍ مهجورةٍ، وعادت من جديد استلقت مبلّلةً بعرقٍ باردٍ.

- تفضّلي يا (سيرانه)، طلب منّي (الملّا أمين) أن أعطيكِ هذه الأوراق، علّها تفتح بوّابة الأمل أمامكِ، وتعودين كما عرفناكِ قويّة. قبل دخول (نايف) السجن، استخلص من المحكمة حقّكِ في أرض أجدادكِ بقرية (شورِك)، وأخرج لكِ بطاقةً شخصيّةً جديدة، أنتِ الآن مسجّلةٌ باسْم أبويكِ يا (سيرانه)، انظري إلى أوراقكِ الشخصيّة أرجوكِ!

أسبلت (سيرانه) جفنيها على الأوراق وانتحبت. فمسحت (لينا) بيدها اليمنى شعرها الطويل، ووضعت قطعة قماشٍ مبلّلةً على جبينها، وهي تتمتم بالأرمنيّة، وترسم إشارة الصليب على جسدها بيدها الأُخرى المرتجفة مثل ذيل فرسٍ عادت وحيدةً من معركة، من ثمّ دفعت كلّ المستندات تحت وسادتها، استُحدِثَ صوت مرور سكّين على قماشٍ خشنٍ ولج أذنها اليسرى.

نهضت (سيرانه)، غادرت فراشها كما تغادر شوكةٌ نحيلةٌ جسد آدميّ. كان اللّيل قد أرسل مكاتيبه إلى المتربّصين بالضوء، والموجودات تتلو تعاليم الظلام الحقيقيّة الصارمة في الأنحاء. لم تشاهد (لينا)، لم تشاهد أثراً لمن سهرْن عادةً قرب رأسها الذي قدحته حرارة جسدها وحوّلته إلى شعلة فانوسٍ مرميٍّ وسط فناءٍ مفتوحٍ على رياحٍ شديدةٍ وغليظة الصوت. خرجت من غرفتها، اتّجهت إلى ممرٍّ لم يسبق لها أن شاهدته وراء الغرفة الشرقيّة، اقتربت بخطوات النسّاجات صوب نافذةٍ واطئةٍ مواربةٍ، فتحتها على مصراعيها فهبَّت أصوات النحيب والتمتمات مرتفعة النبرات فولجت أذنيها. استغربت كيف لم يخبرها (نايف) بأمر هذا الممرّ والنافذة من قبل! فركت النوم من عينيها، سألت نفسها إن كانت تحلم أم لا، فمسّت يد اليقين وأثبتت لنفسها يقظتها. أحنت ظهرها وولجت النافذة كما تَلج

النمور مخابئ الدوابّ المتوحّسة. هبطت سلّماً قصيراً وضيّق العتبات، وسارت صوب شعاعٍ توافد من درك المكان. استقرّت في قاع القبو المكدّس بالكتب والفوانيس المتّقدة. سارت إلى نهايته فانفتح بابٌ واطئ عن جنود يتكلّمون بالتركيّة، يسعّرون النار بثيابٍ باليةٍ مكوّمةٍ كتلّةٍ وسط المكان. تحجّرت (سيرانه) مكانها، فقدت قدرتها على الصراخ، والحركة، والالتفات، كأنّ أفعى عملاقة التفّت حول جسدها. تعرَّقت، وتسارع تنفّسها، وجحظت عيناها المرتميتان في مرمى طناجر عظيمة تطهى فيها اللّحوم. تقدّم صوبها جنود ودفعوا صوب فمها مغرفةً ممتلئةً بلحمٍ أصفر اللّون، وقالوا لها: «هذا لحم أجدادك، تناولي لحمهم». أطبقت فكّيها وزمّت شفتيها كي لا يضعوا المغرفة داخل فمها، من ثمّ اختفى الجنود، واختفت الطناجر المتدثّرة ببخار الطهو، اختفت النيران المنتشرة كحفر الأخلاد. وأضيء في عينيها جمعٌ كبيرٌ من النساء، والأطفال، والرجال، عراةً، مقيّدين بسلاسل عظيمة، يلوّحون لها وينادون بالكرديّة: «أنقذينا يا (سيرانه)!». شاهدت بينهم زوجها، تحرّك لسانها كذيل هرّةٍ محجوز بدنها تحت صخرةٍ كبيرة. حاولت التقدّم نحوه. حاولت الصراخ. حاولت الالتفات. دعت أن يكون ما تشاهده حلماً، إلّا أنّها كانت متيقّنةً بأنّ ما يحدث أمامها لا علاقة له إلّا بالواقع. كأنّها كانت تحلم طوال تلك المدّة الماضية، تداخلت للحظةٍ واحدةٍ في ذهنها كلّ الأحداث، اقتنعت بأنّ ما عاشته كان حلماً، كلّ شيء: المرض، مستشفى السلّ بدمشق، (سَلمى)، الممرّضة، (رأس العين). أدركت بأنّها تعيش في الزمن البعيد، ذلك الزمن الذي ذبح فيه الجنود العثمانيّون الإيزيديّين. تسارعت أنفاسها وصرخت عالياً؛ إذْ تحرّك لسانها وانطلق كهرّةٍ تحرّرت من صخرةٍ حجزتها طويلاً.

وركضت صوب زوجها. عانقته، وحرّك بدوره كتفيها، هزّهما بقوّةٍ، وهو يقول قرب أذنها: «استيقظي يا عزيزة قلبي، استيقظي يا (سيرانه)، عودي إلى بيتنا، فليس هذا مكانك». فتحت (سيرانه) عينيها وشاهدت (لينا) تهزّ كتفيها تدفعها إلى الاستيقاظ. مبلّلةً بالعرق، أنهضتها (لينا) ودفعت صوب فمها كأس الماء، وهي تتلو بالأرمنيّة قرب أذنها، من ثمّ تقول لها: «كنتِ تصرخين في النوم. الحمد لله، أنتِ بخير يا سيرانه».

– أريد أن تجلبوا لي ابنتي، ماذا سمّيتموها، مَن سمّاها؟

متلعثمةً، بنبرةٍ شبيهةٍ بتحطّم الزجاج همست قرب أذن (لينا) المتدلّية أرنبتها من ثقل قرط الذهب في خرمها. حرّكت (لينا) رأسها وقرّبت فمها من أذنها، سُمِعَ صوت القرط خفيفاً كأنّه موسيقا المشهد النسائيّ، والتمع شعاع من قرط (سيرانه) الذهبيّ على شفتيها، وهي تقول:

– اسمها (روكسان)، سمّاها (الملّا أمين) على اسم جدّة (نايف) لأبيه، الإيزيديّة. سمّوها بذلك الاسم تكريماً لأجدادكِ يا (سيرانه)، هكذا قال (الملّا أمين) وعمي (كالوش). (روكسان) جميلة مثلكِ يا عزيزتي..

كانت تعلم بقصص (نايف)، كان قد أخبرها وقصَّ عليها كلّ الحكايات، تبادلا الحكايات والقصص فيما بينهما، كي تبقى وتخلد على لسان من يعيش طويلاً. كي لا تموت قصصهما بموتهما، وزّعاها فيما بينهما. كانت تعرف بأنّ لزوجها قصّة مماثلة لجدّتها (عَيشانه)، فجدّة (نايف) هي الأُخرى، خبّأت عن الناس حقيقة ديانتها الإيزيديّة كي لا تُقتَل. كانت هي وزوجها أحفاد مَن شاهدوا رقاب ذويهم تُنحر بسيوف العثمانيّين.

عادت (سيرانه) واستلقت، تداخل جسدها الممتلئ بضوء الغرفة

البرتقالي مع ظلّها على الفراش الممتلئ بأثر زوجها المسجون في مكانٍ ما. أسبلت جفنيها على رنين اسم ابنتها (روكسان)، صارت تتمتم به، كأنّها تتلذّذ بقطرات ماءٍ هبطت من السماء على شفتيها الجافّتين إثر الحزن الأزليّ. مغمضة العينين، قالت لـ (لينا):

– حدّثيني عن ابنتي (روكسان).

غيّرت (لينا) فستانها المبلّل بعرق الكابوس، جفّفت جسدها الأبيض النحيل، وألبستها فستاناً جديداً، ومدّدتها مجدّداً في سريرها، وهي تتحدّث لها عن (روكسان). تخبرها كيف يعلّمونها اللّغات: الكرديّة، والعربيّة، والأرمنيّة. تتحدّث عن بديهتها، عن حركاتها السريعة في البيت، طريقة مشيها، وكيف تأكل، وتشرب، وتجلس، وتنام. حدّثتها عن كلّ اللّحظات. منذ أن جلبوها من المستشفى في (دمشق). تغيّرت نبرة صوت (لينا)، وهي تلفظ اسمَي: المستشفى، ودمشق، كأنّها ندمت على لفظهما خشية أن تعيد (سيرانه) إلى تلك الأيّام وتدفعها إلى تذكّر لحظات المرض. لم تكن تعلم بأن (سيرانه) لم تغادر تلك اللّحظات بعد، لم تكن تعلم بأنّها في اللّحظة ذاتها كانت تخاطب وتصافح رُسلاً جاؤوا من السماء لأخذها معهم.

دُفِنَت (سيرانه) ظهيرة اليوم التالي في مقبرةٍ إيزيديّةٍ صغيرةٍ على هامش مدينة (رأس العين)، وأخرج السيّد (كالوش) و(الملّا أمين) شهادة وفاتها من دوائر الدولة السوريّة ببطاقتها الشخصيّة الجديدة، دُفِنَت (سيرانه) باسمي والدها ووالدتها الحقيقيّين. كانت تلك هي المرّة الأولى التي يُكتَبُ اسمها بجانب اسم والدها ووالدتها على الإطلاق، على شهادة الوفاة. عاشت بأسماء وهميّة، ودُفنت حقيقيّةً باسم والديها وقصصهم. وقُرِئت التلاوات الإيزيديّة على قبرها. قرأ لها (الملّا أمين) باللّغتين: الكرديّة، والعربيّة، تكريماً لها، ولشعبها، ولصديق عمره (نايف).

عندما خرجت (سيرانه) من مستشفى السلّ في دمشق، دندنت لنفسها هذه الأغنية داخل الباص، سمعتها زوجة (أَسْبيد)، فالتفتت إليها.

Dêra Sorê

Kurdish Folk

القسم الرابع

I

أضلاعُ الفراشات

أ

ماريا، غاليتي.. ماريوشكا..

أمهلتُ الذبابة ساعةً كاملةً لتخرج من الغرفة. كانت ضعيفةً هشّةً ليلة أمس. شاهدتها؛ إذْ خُلقت إثر خطبٍ ما، وصارت بدينةً، ولم يعد بمستطاعها الطيران. كنتُ قادرةً على دحرها بكتابٍ غليظٍ في متناول يدي، إلّا أنّني تكاسلت، ولم أبذل ذلك الفعل، وأسندتُ تخاذلي إلى تعبٍ نفسيٍّ مجهول. أقذف السبب ذاته صوب قناعتي دوماً؛ إذْ يلتهمني الشرود في المجهول، لذلك شرّعتُ النوافذ في وجه الرياح، وأشرتُ بسبّابتي اليمنى نحو منبت الضوء ها هناك، غدت غريبة الأطوار، تصدر الصوت ذاته المنجلي من طائرةٍ حربيّة.

أخفقتْ محاولاتي معها برمّتها، كانت آخرها الاستماع إلى أغنيةٍ لم أحبّذها، أطلقتُ في وجه المكان الصوت، وكلّي إيمانٌ بأنّ الصوت يحذف نظيره، هل الصوتُ يمسح الصوت حقّاً؟ لم أفلح إذْ أسندتُ الريبة إلى العقل. يحدث الأمر ذاته عادةً، يركن المرء في تمام الشرود الذي نال منه قبل وهلة. ذات يوم، تلمّستُ صوتي عبرَ فكرةٍ، اتّضح لي فيما بعد أنّها

غير صائبة، كان الأمر هذا ما يُسمّى: مخافة الزمن. غياب الكائن اسمه، لذلك أكرّر الغاية في نفسي قدر المستطاع، وأجلّخ ما لا طاقة لي على نسيانه؛ إذْ أعزّز داخل الذبابة فكرة الخروج من الركن الخاصّ بي...

عزيزتي ماريا خان.. لقد وصلت ليلة أمس إلى مدينة (برلين). اجتاز أصدقائي ركن الأمن فولجوا الردهة من دوني؛ إذْ استوقفني رجُلٌ وامرأةٌ من عناصر الأمن داخل المطار، واستودعاني غرفةً مرّروا فيها أجهزةً وموادّ كشف المتفجّرات على جسدي وحقيبتي. فكّرتُ لوهلةٍ بالعناصر الباعثة الريبة للمرء، وأرجعتُ الحدث إلى ذاك القاع السحريّ في باطني؛ لم أكن قادرةً على جرِّ تفسيراتٍ أُخرى صوبي تخصّ ملامحي المتعبة، وشعري الطويل الفوضويّ، والشال الشرقيّ الذي ابتعته من سوقٍ شعبيٍّ في مدينة (أربيل) كي ألفّه حول رقبتي كما يلفّ الدراويش المسابح حول أبدانهم. في الردهة الضيّقة، توجّستُ بالأصوات المكتومة داخل الطائرات التي تحمل الناجين إلى الطمأنينة؛ أسدلتُ جفنيّ، وتتبّعتُ كرات الضوء الصغيرة أسفلهما، انفجارٌ قد فتح ذهني على الريبة الأبديّة، وأطلقت عيني مثل نسرٍ لافتراس السؤال الشاق الذي يظهر لحظات الحيرة.

لا أعرف من أين أبدأ الكتابة إليك، هذه حيرة أُخرى تنال منّي حقيقةً. أوّاه! لو أنّ الأفكار والكلمات تخرج من القلوب دفعةً واحدةً، لو يُختَصر كلّ ما حدث ويحدث بكلمةٍ واحدةٍ، كلمةٍ واحدةٍ فقط، تشبه تلك التي يلفظها المرء لحظة مصافحة الرسل القادمين من موطن الفناء المقدّس، ذلك الموطن الذي يتجرّد فيه المرء من الأسئلة والأجوبة معاً، دفعةً واحدة.

عزيزتي ماريانينا.. دوّنت ملحوظات لا متناهية. أنا بالفندق الآن، سأبقى بضعة أيّام في (برلين)، سأزور بعد غد متحف (بيرغامون)، بي شغف لرؤية الآثار التي استخرجها البارون الألمانيّ (ماكس فون أوبنهايم) من (تل حلف)، قرأت بأنّهم رمّموا الآثار التي قُصِفت في الحرب العالميّة الثانية بـ(برلين)، وبأنّهم افتتحوا قسماً داخل المتحف خاصّاً بآثار (رأس العين). أحتاج إلى زيارة المتحف، أتوق إلى رؤية آثار خرجت من باطن أرض مدينتنا السبيّة. مدينتنا (رأس العين)، مدينة الضحايا، ضحايا العثمانيّين. منذ مدّة وأنا أفكّر بالقدر الذي أعاد صناعة مدينتنا، تخيّلي! جميع سكّانها كانوا ضحايا العثمانيّين، جميعهم فرّوا من بطش جنودهم، كلّنا هناك كنّا حفيدات وأحفاد الضحايا: الأرمن، والسريان، والعرب، والآشوريّين، والإيزيديّين، والكرد المسلمين، مدينة من أعراق وديانات متعدّدة، اجتمعت مصائرهم في مكانٍ واحدٍ صغير، جُبِلَ طينها الأوّل ممزوجاً بعرق الضحايا. كانت مدينتنا شاهداً وحيداً وجماعيّاً على مجازر العثمانيّين؛ لذلك، حاول الجيش التركي رفقة الميليشيات السوريّة المتطرّفة غزوها عام 2012 وأخفقوا، كانت النتيجة ومن ضمن هؤلاء الضحايا أبي.

كنتُ أعينُ نساء إيزيديّات ناجيات من السبي على النسيان مع فريقٍ طبيٍّ صغيرٍ في مخيّمٍ قرب مدينة (دهوك) بكردستان العراق، عندما شاهدت على شاشة التلفاز غزو الجيش التركيّ رفقة الميليشيات الإسلاميّة السوريّة مدينتنا (رأس العين)، احتلّوها بالكامل يا (ماريا)، لم أكن قادرةً على الكتابة إليكِ، لم يكن بمقدوري سماع صوتكِ، فاتّصلتُ بالعم (أسْبيد)، أو - أبي الثاني- كما يودّ أن أناديه. سمعت صوت الغالية

(لينا) أمّكِ التي شربت حليبها، شممتُ رائحة ثديها عبر الهاتف يا (ماريا)، أليس هذا هو التعريف الباطنيّ لما يخفق البشر في تعريفه دوماً؟ قال لي والدكِ: إنّكم بخير وقد استطعتم الخروج من المدينة قبل ساعات من دخول الغزاة إليها، هذا ما بعث الأمل والطمأنينة في نفسي الممتلئة بكم يا صديقتي، ويا أختي بعهد الثدي الذي كبرنا على نعمته معاً. حاولتُ جاهدةً، لكنّني أخفقت في لمس جسارةٍ تدفعني إلى سماع صوتكِ، خفتُ يا عزيزة قلبي، تملّكني الرعبُ، خشيتُ على نفسي من وحش الحنين، ذلك الذئب الشديد، خفتُ أن يعيدني صوتكِ إلى البلد، لا أريد العودة، تعلمين ذلك جيّداً.

في ذلك المخيّم، استرجعتُ كلّ السنوات التي أنفقت، استرجعت صورة أبي الذي أفنى عمره في سبيل ذلك الوعد الذي قطعه لأمّي عندما كانوا داخل حافلةٍ تأخذه وأمّي إلى مستشفى بمدينة (دمشق) للعلاج من السلّ، قال أبي لي:

- أنتِ الكتاب الذي كان عليَّ قراءته حتّى النهاية، لا نهاية لكِ يا ابنتي، أمّك ترافق ذهني، وقلبي، وعقلي، وكلّ وجودي، كما لو أنّها أرادت لي التمسّك بالدنيا من خلالكِ، كانت أمّكِ تعرف بأنّها ميّتةٌ لا محالة، عرفت أنّ مصيرها سيكون مثل مصير والدها (شكري)، ووالدتها (غَزالة)، وجدّتها (عَيشانه) وجدّها (فرحان)، وعمّتهم الكبيرة (سلتي) والقائمة كبيرة وطويلة يا ابنتي، قائمة ضحايا ذلك التحالف الذي تشكّل بين السلّ، وعسكر العثمانيّين، والقهر، والمذابح، والاغتراب الأزليّ الأبدي.

استرجعتُ كلام الجدّ (كالوش) يقول لي:

- غيّري المدوّن في كتاب القدر، هاجري، اتركي هذه الأرض كي لا

تموتي هنا، فأنتِ الشاهدة الأخيرة على كلّ تلك القصص، إن لم تتركي البلد ستموت قصص أجدادك.

تخيّلي يا عزيزتي، هل ينبغي لي نسيان مصير أبي؟ ذلك الطفل الذي هرب مع أبيه وأمّه من منطقة (ديرسم) إبان ثورة 1937 بجنوب شرق تركيا، هربوا من جيش أتاتورك، ولجأوا إلى (رأس العين)، ومات بعد سبعين عاماً بقذيفة من دبّابةٍ تركيّةٍ بمدينة (رأس العين)، أحفاد العثمانيّين قتلوا حفيد ضحايا أجدادهم. قتلوا الشهود، كرّروا مشهد المذبحة، شاهدوها بإعادةٍ بطيئةٍ، تخيّلي ما حصل، أحفاد العثمانيّين شرّدوا وقتلوا أحفاد ضحايا العثمانيّين في (رأس العين)، أليس هذا هو جوهر ومعنى السواد الباطني؟ ما النتيجة؟ دمار المدينة، والاستيلاء على البيوت، وتشريد سكّانها: الأرمن، والعرب، والآشوريّين، والإيزيديّين، والكرد المسلمين. كأنّنا عدنا مجدّداً إلى عتبة الحرب العالميّة الأولى. كأنّنا مرايا يرى عبرها العالم التاريخ، كأنّنا آثارٌ يعيدون بنا قراءة التاريخ، كأنّنا في حلمٍ طويل. دمّروا المدينة الشاهد. صراعهم قائم على قتل الشهود دوماً. طوال الأشهر الماضية، بحثت في عدّة مراجع ومصادر باللّغات: الإنجليزيّة، والألمانيّة، والعربيّة، والكرديّة، دوّنت فيها ممارسات العثمانيّين بحقّ الإيزيديّين والإيزيديّات طوال فترة حكمهم، تعرّض الإيزيديّون إلى قرابة 72 حملة إبادة، معظمها على يد العثمانيّين. وقارنتُ تلك الحملات بشهادات نساء وفتيات إيزيديّات اختطفهم تنظيم داعش كسبايا، بما شاهدناه، وسمعناه، وعشناه، وصلت إلى حقائق تخصّ مصدر الوحشيّة التي سيطرت على متطرّفي داعش، الممارسات متشابهة تماماً. ما من أحدٍ يرغب بفتح هكذا ملفّات، لا أدرك السبب، لكنّني سأفعل.

تخيّلي مثلًا، انتصر العثمانيّون على المماليك سنة 1516 في معركة (مرج دابق)، واحتلّوا المنطقة. عاد الترك إلى احتلال المنطقة سنة 2018 من قرية (قسطل جندو)، القرية الإيزيديّة الملاصقة تقريباً من نقطة (مرج دابق)، بين (عفرين) و(عزاز)، بشمال غرب سوريا.

وقرأتُ أيضاً عن (نوري ديرسمي) شخصيّة كرديّة، هرب من تركيا عام 1938؛ أي: بعد عامٍ من هروب جدّي، وجدّتي، وأبي منها. مات (نوري) ودُفِن في (زيارة حنان) بمنطقة (عفرين) عام 1973. وبعد الغزو التركي، أوّل ما فعله الجنود الترك كان تدمير قبره، هشّموا ألواح الرخام عليه وحوله. كان قد كتب عليها قصيدة باللّغة الكرديّة بنفسه قبل وفاته. دمّروا ثمانين مزاراً للإيزيديّين حول منطقة (عفرين). لم تزل شعوب الشرق محكومة بالعثمانيّين. العثمانيّون والفرس قادمون، ما من أحدٍ يسعى في سبيل بيان هذه الحقيقة، لقد عادت معركة (مرج دابق) وتشكّلت في المكان ذاته عام 2018. عاد المكان وعاد الغزاة. ما الذي يشغل الكتّاب العرب الآن؟

عزيزة قلبي.. رتّبت محاور روايتي (نساء السلّ)، سأبدأ بكتابتها قريباً جدّاً. رتّبتُ موعداً مع أحفاد الطبيب الألمانيّ الذي رافق بعثة (ماكس فون أوبنهايم) في (تل حلف)، ذلك الطبيب الذي عالج جدّي (شكري) عندما احترق، كنتُ قد حدّثتكِ بخصوص تلك الحادثة. سأحظى برؤية أرشيفه وبعض الصور عن تلك الفترة، التقط الطبيب صورةً لجدّي (شكري)، وأمّه (عَيشانه)، و(كالو). هل سأتعرّف إلى الصورة من دون الحاجة إلى قراءة الشروحات عليها، أو خلفها؟ سأعرفها يا (ماريا)، سأفي بوعدي

لأبي، وسأبحث في الأرشيف عن النساء اللّواتي متْن بالسلّ تلك الفترة، وسأكمل بحثي العلميّ الذي بدأته بالفعل منذ كنت طالبةَ في كليّة الطبّ في (دمشق)، لا أعرف لماذا أكتب لكِ كلّ تلك التفاصيل، تعرفين نصفها، ربّما أحاول بالتفاصيل الضغط على يدكِ، ربّما أهرب بالكتابة، ربّما.. اشتقت إليكِ يا عزيزة قلبي.

ماريا الغالية، أحفاد الطبيب الألمانيّ يعيشون في مدينة (كولن)، المدينة التي أسكن فيها، هذه مصادفةٌ مثاليّةٌ، ربّما يكون قدراً أيضاً، مَن يعرف ذلك؟

بي توقٌ إلى الكتابة عن نساء السلّ، تخيّلي يا عزيزتي، الأوبئة والأمراض تماماً مثل الغزاة والطغاة، الاثنان يقتلان الأبرياء؛ الغزاة أوبئة.

عزيزتي ماريانا.. البيت صار أغنيةً تذكّرني ببيتنا المسلوب منّا، هناك. الطريق صار أغانيَ تذكّرني بالطرق التي سرت عليها هناك في مدينتنا. تخيّلي ذلك الاغتراب الذي أعيشه، كأنّه سكّينٌ يُجهز عليّ من دون نهايةٍ، ما من نهايةٍ لنحري، كلّما التفتُّ تحرّك سكّينٌ بيد الذاكرة على رقبتي.

قبل مدّة، في أثناء الكتابة والقراءة، بحثتُ عن معنى كلمة (القَفْر) في اللّغة العربيّة، حصلت على هذا المعنى من القاموس: «الثَّوْرُ يُعزَل عن أُمِّه ليُحْرَث به»؛ (القَفْر) أكثر كلمةٍ تعبّر عن حالنا، نحن البشر الضحايا على هذا الكوكب الخرافي.

لم أنم منذ البارحة، طوال اللّيل، راقبتُ الأضواء الصفراء من شرفة

الغرفة. كانت تغادر جوف الظلام، كوجوه المرضى، وتندفع نحوي وتتداخل مع الكلمات العالقة على وجهي. هل أكتب لكِ ما تفعله الفنادق بي؟ لم يسبق لنا أن تحدّثنا عن ذلك. لا أعلم ما الذي يدفعني إلى الكتابة إليكِ على هذا النحو. طوال اللّيل، انتفضت حوارات أبي وأمّي على الصمت داخل الغرفة، كأنّي كنت أحرس من الشرفة أثرهما في غرفة الفندق. قال أبي: «زرت أمّكِ مرّةً واحدةً فقط عندما كانت في المستشفى بالعاصمة، نمنا ليلتين في فندق (رضوان الكبير) بساحة المرجة، وبعد عودتي سُجنتُ بسبب بعض المجلّات الكرديّة، كنتُ أقرأها، ماتت أمّكِ، وأنا مسجون، بعد ثلاث سنوات خرجتُ، لم أعثر على نفسي، وكنتِ أنتِ الخيط الذي أوثقني بكلّ ما عشته». من ثمّ لفظ أبي اسمي على نحوٍ مختلفٍ كأنّه أعاد ترتيب بحّة صوته. شاهدتُ نفسي عبر قطرة ماءٍ زلال برقت في عينه كما تبرق عيون المنسيّين داخل الظلام التام، شاهدت نفسي أعدو وأهرب به من ذئبٍ لا مرئيّ يتربّص ببوّابة شروده في الماضي. طعنتُ خيال وجهي في دمعه براحة يدي، حذفتُ أثري داخل عينيه، ونصحته، وأدرتُ رأسه صوب منبت النسيان. على المرء الإيمان بالنسيان كي ينقذ التذكّر، على المرء الإيمان بالتذكّر كي ينقذ النسيان. عاش أبي كلّ عمره يهادن ما بين النسيان والتذكّر داخل ذهنه. عاشت أمّي كلّ عمرها في سبيل التهادن بين النسيان والتذكّر، كانا جنديّين منسيّين على حدود الزمن، يحفظان الأمن في حرب النسيان مع التذكّر. أنا نتاجُ تلك الحرب القديمة بين النسيان والتذكّر، لم يبق أحدٌ سواي، أنا النقطة التي تضع نهاية جملةٍ طويلةٍ. لا عليكِ!

استمعت إلى إيزيديّات سباهنّ الداعشيّون، وأنجبوا أطفالاً من نسلهم

بالإكراه. قالت إحدى الناجيات: «أنجبت ثلاثة أطفالٍ من رجُلٍ داعشي خطفني واغتصبني، هربتُ بمفردي وتركت خلفي أطفاله الثلاثة، كانوا ذكرى سيّئة. تزوّجت فيما بعد برجُلٍ إيزيديّ أحبّني وأحببته، وأنجبت منه طفلاً، هو طفلي الذي أؤمن به، الأطفال الحقيقيّون هُم نتاج عهدٍ بين المرأة والرجُل، عاهدت زوجي وعاهدني».

عزيزتي وغاليتي.. سألت أبي ذات يوم، ما إن كان الموت مؤلماً، قال: «هو بسهولة أن تضغطي على زرّ إطفاء جهاز الراديو الذي ينقل لك بؤس العالم».

أخفق البشر أمام فكرة الخلود، فاستبدلوا بها إنجاب أطفال يحملون أسماءهم وصفاتهم، يحملون صورتهم وأمنياتهم المعلّقة بين الفناء والخلود. أفكّر على نحوٍ آخر، الزواج وإنجاب أطفال يعني استمرار حكايات الأجداد البائسة؛ ستكون هويّة الطفل مزيجاً بين قصص الأجداد وحاضرهم، ستكون مرافقةً وربيبةً لفكرة نقل صورة الخراب والموت هذه إلى أذهانهم وأرواحهم. استمرار نسل الأجداد هو استمرار التمعّن في صورة البؤس، الصورة التي تُنحَر في قاعها عيون الناجين. بعد سنواتٍ قليلةٍ جدّاً سأتخلّص من الدورة الشهريّة. ستُحذَف الصورة تلك إلى الأبد، أنا الغصن الأخير من الشجرة تلك يا عزيزتي. أنا نتاجُ تلك الوصايا التي تلتها الجدّة على مسامع الأمّ، والأمّ على مسامع الابنة، والابنة على مسامع الابنة، أنا حفيدة تلك الحكايات، جرّة عظيمة مصنوعة من البكاء تحملها يد الزمن الهشّ. أنا ساريةٌ في ليل المنعزلات المنتظرات.

عزيزتي ماريا.. كنّا، أنتِ وأنا، أيّام الدراسة والجامعة، نخطّط لنسج

وشوم على نهودنا وأكتافنا، هل تتذكّرين؟ كنّا نودّ ترك ما حدث والالتفات إلى ما هو قادم، كانت محاولةً لصناعة القادم، صناعة تنجزها أيادينا، لا تشبه تلك التي ورثناها، قلت لكِ وقتها: «سأمضي إلى مَن يعشقني بجسدٍ مثيرٍ، أريد أن يعينني جسدي على النسيان». هجرنا الفكرة. هجرتُ جسدي يا عزيزتي. في مدينة (دهوك)، نقشت عجوز إيزيديّة وشم الشمس على رقبتي. صنعت الوشم من سخام الفانوس. أشعلت فتيله ليلةً كاملةً في سبيلي، من ثمّ مزجت السخام اليافع والطريّ مع حليب امرأةٍ أنجبت مولوداً مؤنّثاً. تخيّلي، يجب أن يكون الحليب من ثدي امرأةٍ أنجبت بنتاً كي يغدو لون الوشم من صلب تلك المرتبة الممزوجة بين اللّونين: الأخضر، والأزرق، رسمت الشمس ونقرتها بإبرةٍ وملأت الجرح بذاك السخام المجبول مع الحليب، الحليب المؤنّث.

ليلة أمس، حفظت خمسة أرقام طويلة مدوّنة على بطاقةٍ في غرفة الفندق، كانت لشركات ومؤسّسات مختلفة، تفنّنت في إدخالها عقلي، متناسقةً، مرصوفةً وراء بعضها. إن حفظ المرء شيئاً نسي في اللّحظة ذاتها شيئاً آخرَ مستوطناً ذهنه؛ آمنت بالفكرة، فأحظى بنسيان ما يدفعني إلى ملامسة عدم الطمأنينة، من ثمّ نسيتها، كان لنسيانها متعة حفظها وصعوبة رشفة الماء الأولى. ينفق المرء سُبُلاً لا نهائيّة في سبيل النسيان. أبحث عن خطبٍ عظيمٍ أحفظه فينسيني ما يزاحمني على السلّم المؤدّي إلى الطمأنينة.

عزيزة قلبي.. العالم منقسمٌ إلى مجموعتين: واحدة تنظر إلى الدجاجة الحيّة تنقر في قُوتها، فتتخيّلها مذبوحةً ومشويّةً وموضوعةً في صحنٍ على مائدتها.

بينما المجموعة الثانية، تنظر إلى الدجاجة المذبوحة والمشويّة الموضوعة في صحنٍ على مائدتها، فتتخيّلها، وهي تنقر في قُوتها وتتحرّك في هذا العالم.

المخلصة لكِ دائماً

روكسان

برلين – 29 ديسمبر 2019

شكرٌ واجب

الالتفات إلى تلك البقعة المعزولة والمنعزلة من الأرض تشبه الخطوات الأولى التي يبذلها الطفل؛

شكرٌ واجبٌ إلى الأصدقاء الأعزّاء:

الكاتب الدكتور فخري عَبدو

الكاتب شورَش دَرويش.

الشاعر والروائي محمد خليل.

كانوا معي منذ الكَلمة الأولى حتّى الأخيرة، قدّموا لي كمّاً هائلاً من المراجع والمصادر والمحبّة، وصوّبوا أخطائي، وفتحوا قلوبهم لي وللعمل حتّى خرج بصورته هذه.

وإلى الفنّان التشكيليّ الصديق عبد الكريم مجدل البيك، تحدّثنا كثيراً عن العشائر وتحالفات البشر على تلك الأرض في ذلك الزمان.

وشكرٌ واجبٌ أيضاً إلى الكاتب والباحث الدكتور خليل جندي، استفدتُ كثيراً من كتابه: «الدين الإيزيديّ - المعتقدات، الميثولوجيا والطبقات الدينيّة»، ووضعتُ ثلاثة أدعية إيزيديّة من ترجمته داخل الرواية.

وإلى الموسيقيّ الصديق فرج درويش، دَوَّنَ للرواية خمسَ أغانٍ من التراث الكرديّ، كانت نساء الرواية يدندنّها لحظات الحيرة والكَمَد.

ريبر يوسف:

شاعرٌ وروائيٌّ سوريٌّ، من مواليد مدينة الحسكة / سوريا 1981. يكتب باللّغتين: العربيّة، والكرديّة، درس التصوير السينمائيّ في برلين، ويقيم في ألمانيا منذ 2009.

صدر له:

- (قصائد بحجم ابتساماتنا) مجموعة شعريّة مشتركة باللّغة العربيّة: أوميد عبدو، أمير الحسين، ريبر يوسف. عن دار الزمان 2006.

- (حَجِلاً أعبرُ الحقل) (Li ser Nigekî Bexçe Derbas Dikim) مجموعة شعريّة باللّغة الكرديّة، عن دار الطليعة الجديدة 2009.

- (من غصن إلى آخر يتنقّل القصف) مجموعة شعريّة، عن المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر 2015.

- (قريباً تنهض الجدّة) مجموعة شعريّة، دار العين للنشر 2018.

- (مرايا دولة الدكتاتور) سيرة – نصوص، دار ميسلون 2018

- (عزلة الأرملة السوداء) رواية، دار موزاييك للدراسات والنشر 2020.

- (مَن هو الحب..؟) مجموعة شعريّة، دار موزاييك للدراسات والنشر 2020.

- (ماذا يقول دوار الشمس لهذا الحقل ليلاً...؟) مجموعة شعريّة، دار موزاييك للدراسات والنشر 2020.

- (في ظلالهنّ تغفو الأفراس) مجموعة شعريّة، دار العين للنشر 2021.
- (المُريد الأصم) رواية، دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع 2021.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

قصصٌ تبدأ، وتتطوّر، وتتعقّد، وتتقطع قبل أن تُستأنف من جديد، بطلاتها: سيرانه، سلتي، سلمى، خنسي، عَيشانه، نساءٌ تقاطعت سبلهنّ ومصائرهنّ في تلك المنطقة الساحرة من شمال شرق سوريا، التي عبثت "سكّة قطار برلين بغداد" بها وبمصائر سكّانها.

من سهول ماردين، ومدينتي: عامودا، ورأس العين، وقرى: شورِك، وكوندِك، وتل حلف، تهمس هؤلاء النساء بالأسرار بأصواتهنّ الخفيضة المتقطّعة الممهورة بالخوف والمرض. لكنّ حكاياتهنّ وأغنياتهنّ تتجاوز صراع أجسادهنّ مع مرض السلّ، وصولاً إلى تخليد صراعات الإيزيديّين، والسريان، والأرمن، مع القهر، والمذابح، والاغتراب الأزلي.

في نساء السلّ، يوغل ريبر يوسف بلغته الشعريّة، وحساسيّته الخاصّة في استكشاف المنطقة الشماليّة الشرقيّة من سوريا، بما فيها من تنوّعٍ: إثنيٍّ، ودينيٍّ، وعِرقيٍّ، مُتّكئاً على بحثٍ تاريخيٍّ، وجغرافيٍّ، وأنثروبولوجيٍّ معمّقٍ لما يعيشه الناس في تلك البقعة من الأرض، لكنّه عبر عمله هذا يخلق فضولاً للتنقيب في التاريخ مرّةً أُخرى، بعد أن بات لشمال شرق البلاد وجه امرأة.

ISBN 978-9933-641-85-6
9 789933 641856 >
دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع